بحوث ودراسات
في الشعر ونقده

تأليف
أ. د / عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد
بجامعة الأزهر
ورئيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي
بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه بحوث ودراسات حول الشعر ونقده كتبتها على فترات منها القريب ومنها البعيد ، ونشرتها في مجلة كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – فرع المنوفية في العقد التاسع من القرن العشرين .

ونظراً لأن هذه البحوث ، وتلك الدراسات تمثل حصاداً فكرياً له دوره في قضايا الأدب والنقد رأيت إتمام الفائدة – **جمعه ونشره في هذا العمل الماثل** أمام القارئ الكـــريم .

لقد جاءت هذه **البحوث منوعة بين الشعر والنقد ، فمن** حديث عن شعر الغزل **في العصر** الأموي إلى حديث عن **النقد الأدبي ، وفي كلٍ** أتناول القضية بالعرض والتحليل .

فقضية شعر الغزل في **العصر الأموي** بين المنهج **الأخلاقي** والتيار المادي عرضتها عرضا يبرز ما كان عليه الشعر في العصر الأموي من نزوع إلى شعر الغزل المادي يمثله عمر بن أبي ربيعه والأحوص ونصيب ممن وظفوا شعرهم إلى ذلك الغزل الذي يهتم بالحديث عن المرأة حديثا يبرز فيه مفاتنها وجمالها ، وقد يعرض لنا المرأة على أنها عرضا لا يتفق وما كانت عليه المرأة إبان ذلك العصر بل قد يصور لنا المرأة على أنها طالبة لا مطلوبة كما حدث من عمر بن أبي ربيعة الذي أراد أن يتغزل بالمرأة فتغزل بنفسه ، وعلى عكس ذلك جاء الشعر العذري .

وفي جانب النقد الأدبي عرضت لدور القاضي الفاضل في بعث الدراسات النفسية ، واستتبع ذلك أن أعرض لابن الأثير نقده في كتابه "المثل السائر" .

ثم تناولت قطاعاً من الشعر في الأندلس ، وأشفعت ذلك ببحث عن ابن شهيد متناولاً قصته "التوابع والزوابع" تناولاً موضوعياً أبرزت من خلاله منهج ابن شهيد النقدي ، وإعجابه بنفسه وبشعره ، فقد أراد من خلال رسالة التوابع والزوابع أن يبذ جميع الشعراء السابقين ، وهكذا ، بل إنني عرضت لقضية رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، ومنها السابق في هذا الميدان .

إن هذا الجهد المتواضع الذي أقدمه **للقارئ – أرجو** منه أن يجد فيه نفعا وأن يخرج من قراءته له بفائدة تدفعه إلى بذل **الجهد** ، والسير على الدرب ، والله من وراء القصد وعليه المثوبة والأجر .

أ – د . عبد المنعم أحمد يونس

أستاذ الأدب والنقد في كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

ورئيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي – بالقاهرة

الطريقة الفاضلية

وأثرها في بعث الدراسات النقدية

د/ عبد المنعم أحمد يونس

مدرس بقسم الأدب والنقد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المرسلين ، وخاتم النبيين — وبعد :

فإن النقد توءم الأدب ، ولصيق به يدرج معه في مدرج واحد ويسيران معاً في طريق واحدة ، فإن كانت الطريق تكتنفها أوعار ، أو تحيط بها حزون فإن تأثير ذلك يعود على الأدب والنقد معاً ، وإن كانت الطريق معبدة مستقيمة رجع أثر ذلك على كليهما ، فارتقت الآداب ، ونشطت الفنون ، وأدى النقد دوره المرجو .

والأدب العربي منذ عصوره الأولى لم يسر في طريق واحدة ، أو بالأحرى لم تكن طريقه معبدة دائماً ، وإنما اختلفت أماكنها ، وتباينت أطوارها فهو حيناً يتقيد بأغلال لا يستطيع الفكاك منها ، ولا يجد مناصاً من الرضوخ لقيودها والسير على نهجها ، وأحياناً أخرى يجد السواعد القوية التي تكسر تلك الأغلال ، وتتغلب على كل العقبات فينهض الأدب ، ويرقى .

ولست الآن أمام تحديد لتلك الأطوار التي مر بها الأدب العربي في عصوره المختلفة ، وأطواره المتباينة ، ولكنني أمام تسجيل لبعض

الأحكام النقدية التى صدرت . ديه للأدباء ؛ كى يتوخوا الطرق السليمة ، ويبتعدوا عن الطرق الملتوية .

ولن أنتبع بالطبع كل هذه الاحكام ، وتلك النظريات ، ولكننى سأقف أمام بعض الآراء النقدية التى نشأت إثر ظهور شخصية أدبية أثارت همم النقاد ، وحركت عقول المفكرين ، وكان لها الفضل كله فى قيام حركة نقدية نشطة تلكم هى شخصية القاضى الفاضل التى أحيت — مرة أخرى — الدراسات النقدية بعد أن ظن الجميع أن الحلبة قد خلت من الفرسان ، وأن العقم قد سيطر على الأذهان .

فى نهاية العقد الثالث من القرن السادس الهجرى ، وعلى وجه التحديد سنة تسع وعشرين وخمسمائة ولد بمدينة عسقلان إحدى مدن الشام مولود لم يدر الناس ماذا سيخط له القدر ، وما الذى ينتظره من مجد وشهرة ، إنه وليد كسائر الولدان ، ولكنه بز الجميع ، وفاق أترابه ، وتسامعت به الدنيا قاصيها ودانيها إنه « أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على بن القاضى السعيد أبى محمد محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن المفرج بن أحمد اللخمى العسقلانى المولد المصرى المعروف بالقاضى الفاضل الملقب بمجير الدين(١) » .

تخرج القاضى الفاضل على أبيه فى علوم اللغة والأدب ، وعلى أعلام زمانه فى مختلف الفنون .

وفى النصف الأخير من القرن السادس الهجرى بدأ نجم القاضى الفاضل فى الصعود ، فقد رحل إلى مصر ، وتقلب فى شتى المناصب إبان الفترة الأخيرة

---

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٢ ص ٣٣٣ . ت / محمد محى الدين عبد الحميد .

من حكم الفاطميين ، ولما آل لصلاح الدين الأيوبي ملك مصر لم يجد أمامه شخصية متفوقة في فنون الكتابة إلا القاضي الفاضل فقدمه ، واتخذه وزيراً له : حتى قال عنه ابن خلكان : «كان وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله تعالى — وتمكن منه غاية التمكن ، وبرز في صناعة الإنشاء ، وفاق المتقدمين ، وله فيه غرائب من الآثار(١) » .

وكم من الوزراء رحلوا ، وانتهت حياتهم ، ونسيهم الجميع ، وكم من الكتاب برزوا في الكتابة ، ثم آل أمرهم إلى فناء ، ولكن الأمر الذي خلد به ذكر القاضي الفاضل ، ولم يعف عليه الزمن هو تلك الطريقة التي ابتكرها في الكتابة ، والتي سار على نهجه فيها معظم كتاب وشعراء عصره والتي عرفت في تاريخ الأدب العربي باسم الطريقة الفاضلية .

وقد رزقت هذه الطريقة من سعادة الجد ، ووفور الحظ ، وإقبال الناس ما لم ترزقه طريقة من قبل ، فنمت في مصر نمواً سريعاً ، حتى استحوذت على أقلام الكتاب والشعراء ، وصارت شرعة وطريقة ، ثم فاضت على البلاد الإسلامية الأخرى ، فشرقت إلى الشام ، وغربت إلى بلاد الأندلس ، وطغت على طريقة ابن العميد التي سار عليها الناس زمناً ليس باليسير وبقيت هذه الطريقة طابع الكتاب والشعراء ، ولا سيما في مصر إلى زمن قريب ، وقد كان القاضي الفاضل غزير المادة واسع الأفق ، فساعده ذلك على تلفيق طريقته من طرق أعلام الكتاب في مصر والشام والعراق . ولا سيما ابن العميد(٢) » .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٢ ص ٣٣٣ . ت / محمد محي الدين عبد الحميد .

(٢) د / أحمد أحمد موسى . الصبغ البديعي في اللغة العربية ص ٣٥٥ . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة (١٩٦٦) .

وإذا كان القاضي الفاضل قد أقام طريقته على موروثه من السابقين فإنه قد اتخذ لنفسه خطا آخر مخالفا به طرق السابقين فى الكتابة والشعر، ذلك الخط هو الإكثار من التورية والجناس، والتزام السجع الطويل الفقرات فى الكتابة، ولكن التورية والجناس كان لهما النصيب الأوفى، حتى تأثر بهما كثير من الشعراء المعاصرين للقاضي الفاضل، واللاحقين بهم.

يقول ابن حجة الحموى: «قلت ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سمو إلى أفق التورية، وأطلعوا شموسها، ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها، وقيل إن القاضي الفاضل هو الذى عصر سلافة(١) التورية لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره، فإنه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها، وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحتها ورحابها، وممن شرب من سلافة عصره، وأخذ منه وانتظم فى سلكه بفرائد دره القاضي السعيد هبة الله ابن سناء الملك؛ ولم يزل هو ومن عاصره يجتمعين على دور كأسها، ومتمسكين بطيب أنفاسها إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها والواسطة فى عقد جمانها»(٢)

---

(١) السلاف: ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر. وتسمى الخمر سلافا، وسلافة كل شيء عصرته.

(٢) ابن حجة الحموى: خزانة الأدب وغاية الأرب ص ٢٩٨ مطبعة بولاق ١٢٧٣ هجرية.

وابن حجة هو تقى الدين أبو بكر على المعروف بابن حجة الحموى المولود فى حماة سنة سبع وستين وسبعمائة، المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة للهجرة.

ولم يسر على طريقة القاضي الفاضل كتاب عصره فحسب ، بل إن الشعراء أيضا خضعوا لهذه الاتجاهات الفنية ، وأصبح الشعر يعتمد على الموسيقى اللفظية فهم يختارون له الألفاظ الضخمة ذات الوقع القوى ، والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع .

والذى يعنينا — هنا — هو تلك الدراسات النقدية التى وقف أصحابها مواقف متباينة إزاء الطريقة الفاضلية ، فنهم من حط من قدرها ، وحاول التفوق عليها ، ومنهم من أثنى عليها ، ومدح من سار على نهجها .

أول كتاب يطالع الباحث فى ذلك هو كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لمؤلفه نصر الله محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى الجزرى أبى الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير المتوفى سنة سبع وثلاثين وستمائة للهجرة »(١)

والقارىء لمقدمة الكتاب يتبين الهدف من تأليفه — وإن كان فى رأيى هدفا عاما — فقد قال فى المقدمة (أما بعد فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام ، وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتبا ، وجلبوا ذهبا وحطبا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا ، وكتاب سر الفصاحة ، وإن نبه فيه على نكت مثيرة ، فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليهما

---

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٠ المصدر السابق

(٢) شينه ، وسينه : رديه وجيده .

ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره ، ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها ، وسير ذلك كله في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ولربما ذكرا في بعض المواضع قشوراً ، وتركا لباباً ، وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحداً ممن تقدمني تعرض لذكر شيء منها ، وهي إذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وقد أوردتها ها هنا ، وشفعتها بضروب أخرى مدونة في الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته ، وأضفت إليها ما أضفته ، وهداني الله تعالى لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا(١) .

وفضلا عن إعجاب ابن الأثير بنفسه ، وافتخاره بأنه وفق إلى أشياء لم يوفق إليها الأقدمون ، وأنه رزق موهبة الاجتهاد التي لم يتوصل إليها كثير من الباحثين ، وأن هدفه هو خدمة علم البيان الذي جمع فيه الباحثون الأولون الغث والسمين ، أو كما قال « جمعوا بين شينه وسينه » حتى صاحبي كتاب الموازنة وسر الفصاحة لم يسلما من غمزه ولمزه ، فقد قال عنهما « إنهما ربما ذكرا في بعض المواضع قشوراً وتركا لبابا ، رغم كل ذلك فان منهجه الذي سلكه في الكتابة والتحليل يدلنا على أنه أراد بذلك :

أولا : التقليل من شأن الطريقة الفاضلية ، وذلك لأنه نعى على أولئك الذين يتعبدون الألفاظ ، ويتخذون منها أساليب لا حاصل تحتها ، ولا كبير معنى وراءها ، وكذلك معارضته للقاضي الفاضل صاحب الطريقة ، وأنه قد أتى بمعان أجل من معانيه ، وبرسائل أدق من رسائله .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر جـ ١ ص ٣ ت : د. أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة (مكتبة نهضة مصر ومطبعتها سنة ١٩٥٩)

ثانيا : من تقسيم الكتاب نتبين أنه أراد توجيه الشعراء إلى المعانى ؛ فقد قسم الكتاب إلى مقدمة ومقالتين. شغلت وشغلت المقدمة والمقالة الأولى جزءاً واحدا من الكتاب بينما شغلت المقالة الثانية جزءين وبعض الجزء الثالث ، حسب الطبعة المحققة بتحقيق د. أحمد الحوفى ، ود بدوى طبانة ، والمذيلة بكتاب الفلك الدائر(١) الذى سنعرض له فيما بعد .

والحقيقة أن بحثه فى المعانى يحتاج إلى وقفة . ذلك لأنه نبه إلى « أن المعانى على ضربين أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الأمور الطارئة ، ولنشر فى هذا الموضع إلى نبذه ، لتكون مثالا للمتوشح لهذه الصناعة(٢) فمن ذلك ما ورد فى شعر أبى تمام فى وصف مصلبين(٣) .

بكروا وأسروا فى متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار(٤)

فقد جعل أبو تمام تلك الجذوع التى صلبوا عليها بمنزلة الأفراس الضوامر

---

(١) كتاب الفلك الدائر على المثل السائر لمؤلفه : عز الدين عبد الحميد ابن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبى الحديد . ولد فى غرة سنة ٥٨٦ هـ ، وتوفى ببغداد فى جمادى الآخرة سنة ٦٥٦ هـ وكان من أعيان عصره فاضلا بارعا فى علم الكلام على مذهب المعتزلة أديبا جيد النثر والشعر . انظر الجزء الرابع من المثل السائر . المصدر السابق .

(٢) يقصد : المتقلد لصناعة الشعر .

(٣) مصلبين : أى محواين على الصلب .

(٤) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى . تحقيق محمد عبده عزام . ط دار المعارف . المجلد الثانى ص ٢٠٨ .

ثم بين أنها ليست أفراساً على الحقيقة : لأنها حملت من حانوت النجار ، فهى أخشاب جبلت لهم للصلب عليها ، وهم قائمون على هذه الصلب سود الوجوه إذا نظرت إليهم حسبتهم مسافرين .

يعلق ابن الأثير على البيتين بقوله « وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، والخاطر فى مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحاضرة »(١) ولا يستحسن ابن الأثير إعجاب العلماء بقول أبى نواس :

تدار علينا الكأس فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس

فيقول معلقا على ذلك . « وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى ، وقولهم إنه معنى مبتدع ، ويحكى عن الجاحظ أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديما وحديثا إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بإبداعه ، ولا أعلم أنا ما أقول لهم ولأبى نواس سوى أن أقول : قد تجاوزتم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة « بدون هذا يباع الحمار » وفصاحة هذا الشعر عندى هى الموصوفه ؛ لأن هذا المعنى لا كبير كلفه فيه ، لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره (٢) .

فقد عد ابن الأثير إعجاب العلماء ببيت أبى نواس ضربا من الإكثار ، ونعى عليهم هذا العجب . فإن أبا نواس فى نظره لم يزد على أن رأى كأساً من الذهب لها تصاوير بديعة فنقل هذه الصورة الواقعية فى شعره .

وابن الأثير بهذا يعطينا تصوراً جديدا للمعنى . وكأنه لا يعتد بأولئك

---

(١) ابن الأثير . المثل السائر ج ٢ ص ٧ . المصدر السابق .
(٢) ابن الأثير . المثل السائر ج ٢ ص ١٣ . المصدر السابق .

الشعراء الذين يتخذون من الط[illegible] صورهم يرسمونها فقط، وينقلونها للقارىء نقلا كما فعل أبو نواس في نقله لصورة الكأس ، ولكنه خفي عليه (أي ابن الأثير) أن الشعر لا يصور الواقع فقط ، ولكنه يبعث فيه الحركة والحياة .

ولهذا فإننا نرى ابن الأثير يعجب بالمعاني المبتكرة ، والتي لا تصور واقع الحياة ، ولا تنقل صور الطبيعة ، وإنما تستخرج من غير شاهد حال مصورة فيقول : «وأما المعاني التي تستخرج من غير شاهد حال مصورة فإنها أصعب مثالا مما يستخرج بشاهد الحال ، ولأمر ما كان لأبكارها(١) سر لا يهجم على مكامنه(٢) إلا جنان(٣) الشهم ، ولا يفوز بحاسبه إلا من دق فهمه ، حتى جل عن دقة الفهم، وللهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب البواتر(٤) أيسر من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر ، وما ذلك مما يلقيه إليك الأستاذ ، وليس يقوم به إلا الفذ ، ولا أقول الأفذاذ ، وأين الذي ينشىء فيحسن الإنشاء ، ويبرز فيها صوراً يركبها كيف يشاء(٥) » .

فالقارىء لهذه الفقرة يرى أن ابن الأثير قد قسم الضرب الأول من المعاني قسمين :

١ ــ قسما يكون المعنى فيه مبتكراً متجدداً يهبط على الشاعر عندما يرى منظراً من المناظر التي تهيج خاطره ، وتحرك شعوره ، فيصف هذا المنظر ، ويضيف إليه لوناً جديداً يستحوذ به على سامعيه .

---

(١) الأبكار جمع بكر : يريد المعنى الذي لم يسبق إليه .
(٢) مكامنه : جمع مكمن . اسم مكان . أي مخبأ .
(٣) جنان الشهم : قلب الشجاع .
(٤) البواتر : السيوف .
(٥) ابن الأثير : المثل السائر ج ٢ ص ٢٠ المصدر السابق .

٢ — وقسما يستخرجه الشاعر أو الكاتب من غير شاهد حال ، وهذا المعنى أصعب فى نظره من المعنى الاول الذى يستخرج بشاهد الحال ، ويذكر ابن الأثير مثالا لذلك قول أبى تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا   شرودا فى النـدا والبـاس
فالله قد ضرب الأقل لنـوره   مثـلا من المشكاة والنبراس

يقول الخطيب التبريزى فى شرحه لهذين البيتين : « أى لاتنكروا قولى إقدامه كإقدام عمرو ، وهو أشجع منه ، وذكاؤه كذكاء إياس وهو أذكى منه ؟ لأن الله تعالى قد شبه نوره بما هو أقل منه إذ كان المشبه به من أبلغ ما يعرفه الناس ضوءاً فقال : « مثل نوره كمشكاة » ، وهى الكوة ليست بنافذة » .

« وكان أبو تمام أنشد أحمد بن المعتصم هذه القصيدة وليس فيها البيتان ، أعنى قوله : لاتنكروا والبيت الذى بعده ، فقال يعقوب بن إسحق الكندى ، وكان يخدم أحمد : الامير أكبر فى كل شىء ممن شبهته به ، فعمـل هذين البيتين ، وزادهما فى القصيدة من وقته ، فعجب أحمد وجميع من حضره من فطنته وذكائه وأضعف جائزته(١) » :

لقد قال أبو تمام هذا المعنى الذى اخترعه من فوره عندما عيب عليه تشبيه أحمد بن المعتصم ، فجاء آية فى الروعة ، وحسن التخلص ، وسرعة البديهة .

ولا ينسى ابن الأثير أن يفتخر بنفسه فى هذا المقام ، فبعد أن يذكر المعنى المتقدم يقول « وقد قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً

---

(١) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى . المجلد الثانى ص ٢٥٠ .
المصدر السابق .

المعانى ، وقد عددت معانيه المبتدعة فوجدت مايزيد على عشرين معنى، وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك، وما هذا من مثل أبى تمام بكبير ، فإنى قد عددت معانى المبتدعة التى وردت فى مكاتباتى فوجدتها أكثر من هذه العدة ، وهى مما لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه »(١) .

هذا هو الضرب الأول من المعانى ، وهو الضرب الذى لايأتيه إلا فحول الشعراء وعظماء الكتاب ، وهذا ماجعل ابن الأثير يتباهى بنفسه ، وأنه اخترع معانى أكثر مما اخترعه أبو تمام .

أما الضرب الثانى فهو الذى يقتدى فيه اللاحقون بالسابقين ، هو الذى يحتذى فيه على مثال سابق ، ومنهج مطروق ، فذلك جل مايستعمله أرباب هذه الصناعة ، ولذلك قال عنترة

هل غادر الشعراء من متردم

إلا أنه لاينبغى أن يرسخ هذا القول فى الأذهان لئلا يؤيس الترقى إلى درجة الاختراع ، بل يعول على القول المطمع فى ذلك ، وهو قول أبى تمام :

لازلت من شكرى فى حـــلة ... لابسها ذو سلب فاخر
يقول من يقرع أسماعه ... كم ترك الأول للآخـــر(٢)

ثم يقول : ابن الأثير : « وعلى الحقيقة فإن زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سبايا ، لكن قد تقاصرت الهمم ، ونكصت العزائم ، وصار قصارى الآخر أن يتبع الأول ، وليته تبعه ولم يقصر عنه تقصيراً فاحشا »(٣)

وكلام ابن الأثير على المعانى يمكن أن نستشف منه دليلا قاطعا على أنه

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ج ٢ ص ٢٢ المصدر السابق .

(٢) ديوان أبى تمام . المجلد الثانى ص ١٦١ المصدر السابق .

(٣) ابن الأثير : المثل السائر ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ المصدر السابق .

(٢ م — ١٠)

كتب هذا الكتاب ؛ ليوجه الشعراء إلى العناية بالمعانى، وعدم التقيد بالألفاظ، أو الاهتمام بها وترك المعانى ، فإن ذلك سيدفع بالشعر إلى قوالب جامدة من الألفاظ ، وسيدفع بالشعراء إلى الجمود والاهتمام بالزخارف اللفظية ، والمحسنات البديعية التى جرتها عليهم طريقة القاضى الفاضل .

ويستمر ابن الأثير فى عرض مفصل لكل أنواع المعانى من تشبيه واستعارة وتورية وفى كل لون من هذه الالوان يذكر أمثلة لأجمل الصور التى كونها فحول الشعراء ، ثم يذكر نماذج من تأليفه ، ويحاول المقارنة بينها ، وبين ما كتبه القاضى الفاضل ، ويخلص من المقارنة بتفضيل ما كتبه ، والغض مما كتبه القاضى الفاضل ، ويختم ابن الأثير كتابه بحديث مستفيض عن السرقات الشعرية ؛ حتى يلفت الأنظار إلى ضرورة تجنبها ، ولا ينسى أيضاً أن يفرق بين الشعر والنثر ، وأن يبين لنا أن النثر أعظم منزلة ، وأرقى مكانة من الشعر .

ابن الأثير وابن أبى الحديد :

وكما فعل ابن الأثير مع مجهودات العلماء الذين تقدموه من تقليل لشأنهم وحط لقدرهم قام رجل من المعاصرين له وألف كتابا أسماه « الفلك الدائر على المثل السائر » ذلك الرجل هو : عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد ابن الحسين بن أبى الحديد المعتزلى الشيعى الفقيه الشاعر ، والذى ولد فى ذى الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة هجرية ، والذى كان من أعيان العلماء الافاضل بارعا فى علم الكلام على مذهب المعتزلة أديبا جيد الشعر والنثر ، وقد اشتغل ابن أبى الحديد زمنا فى الدواوين السلطانية ، وأدرك إغارة المغول على بغداد . وعلى الرغم من نجاته من المذابح الرهيبة التى قام بها التتار إلا أن أيامه لم تطل ، فقد توفى فى جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة .

لقد قال ابن الحديد فى مقدمة كتابه : « وبعد . فقد وقفت على كتاب

نصير الدين بن محمد الموصلي المعروف بابن أثير الجزيرة المسمى «كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» فوجدت فيه المحمود والمقبول والمردود والمرذول ، أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته فإنه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر ، وأما المردود فيه فنظره وجدله ، واحتجاجه واعتراضه ، فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه ، وبما يعتمد عليه » .

« فحدانى على تتبعه ومناقضته في هذه المواضع النظرية أمور : منها إزراؤه على الفضلاء ، وغضه منهم وعيبه لهم ، وطعنه عليهم ، فإن في ذلك ما يدعو إلى الغيرة عليهم والانتصار لهم ، ومنها إفراطه في الإعجاب بنفسه والتبجح برأيه والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهـــذا عيب قبيح يحبط عمل الإنسان والاجتهاد ، ويوجب المقت من الله والعباد » (١) .

ولن يستطيع باحث أن يأخذ كلام ابن أبي الحديد قضية مسلمة ، فهو وإن كان قد أصاب في بعض نقده ، إلا أنه تحامل على الرجل في كثير من آرائه ، فالناقد يجب أن يكون حكماً عدلاً يذكر ما للإنسان وما عليه ، وابن أبي الحديد لم يذكر لابن الأثير إلا إنشاءه فقط ، وهذا في نظره لا بأس به إلا في القليل النادر ، أما جهده كله فقد تتبعه بالنقد والتفنيد .

والذى عابه ابن أبي الحديد على ابن الأثير وقع فيه ، فآفة الناقد التعصب والإعجاب بنفسه ، وهما أمران لا يقبلهما ابن أبي الحديد ، وعلى الرغم من ذلك فإنه يصرح في مقدمته بقوله :

« وكان قصدى في ذلك أن يعلم مصنف هذا الكتاب ورؤساء بلدته أن من أصاغر خول(٢) هذه الدولة الشريفة — فالعجب مبير(٣) ، ولا أنبيء

(١) ابن أبي الحديد الفلك الدائر . وهو ذيل المثل السائر جـ ٤ ص ٣٢ . المصدر السابق .

(٢) خول الرجل : حشمه . (٣) مبير : مهلك .

عن نفسى فثلى كثير — من إذا ألغز ادرى(١) ، وإذا ضرب أفرى(٢)، وإذا رشق أصمى(٣) ، وإذا نكأ(٤) أدمى ، وأن دار السلام ، وحضرة الإمام ماخلت كما تزعم المواصلة عن إذا سوبق(٥) جلى ، وإذا بوسر(٦) فاز بالقدح المعلى ، وإذا خطب خضعت لبراعته المناصل (٧) ، وإذا كتب سجدت لبراعته الذوابل(٨) ، وإذا شاء علم الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل ، وأن فى الأغفال المغمورين من رعاياها من لو هدر(٩) لقرت له الشقائق ، ولو نطق لتجلت بشموسه المهارق(١٠) ، ولو جرد حسام قلمه لقال الملك للسيف : اغرب فأنت طالق ، فكيف بسدنة(١١) كعبتها ، والحافين بشريف سدتها(١٢) ، فحول البلاغة الذين إذا ركض أحدهم فى حلبة البيان أخجل البروق ، وسخر بالديباج ، وإذ ضرب الأعداء بصارم اللسان قد السلوق(١٣) المضاعف حتى توقد نار الحباحب فى الصفاح ،(١٤)(١٥) .

ومعنى هذا أن الدافع الأول من تأليف هذا الكتاب هو إفهام المواصلة أن بدار السلام ببغداد رجالا عظماء ، وأدباء لايشق لهم غبار ، فهى إذن قضية عصبية العرق والدم ، فالمواصلة — فى رأى ابن أبى الحديد — مهما بلغوا

---

(١) أدرى: أعلم (٢) أفرى: قطع (٣) رشق أصمى: إذا ضرب أصاب

(٤) نكأ : جرح (٥) إذا دخل السياق جاء الأول .

(٦) إذا بوسر: أى إذا شرب الخمر مع غيره فاز عليهم ، والبسر خلط البسر مع غيره فى النبيذ . (٧) المناصل : السيوف (٨) الذوابل : الأقلام واحدها ذابلة (٩) هدر الحمام صوت . وقرت له الشقائق : أى طربت به الزهور (١٠) المهارق : الصحف : فارسى معرب (١١) السدنة: الخدام

(١٢) سدتها : خيوطها (١٣) ركض : الركض نوع من الجرى

(١٤) السلوقى : الدرع المنسوب إلى سلوق قرية باليمن .

(١٥) الصفاح : النواحى واحدتها صفح ، وصفحة

(١٦) الفلك الدائر : ذيل المثل السائر جـ ٤ ص ٣٢ المصدر السابق

أن يصلوا إلى ماوصل إليه أهل بغداد، وهذا عيب خطير قد يدفع الإنسان إلى إرتكاب الشطط فى إبداء المساوىء وإبراز المثالب .

ولاعرض — هنا — لمثال واحد نتبين منه منهج ابن أبى الحديد ونقده لابن الأثير : « قال المصنف وقد غلط مفسرو الأشعار فى إقتصارهم على شرح المعنى ، وما فى الشعر من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب فيه دون ماتضمنه من أسرار البلاغة والفصاحة . أقول : إن مفسرى الأشعار جعلوا قصدهم وكدهم كشف مراد الشاعر ليعلم ؛ ففسروا الألفاظ اللغوية ؛ وما فى الشعر من إعراب نحوى يتعلق فهم المعنى به ، وتارة يشرحون المعنى فقط إذا لم يكن فى البيت ألفاظ لغوية ، ولايرتبط المعنى بإعرابه ، كأنهم إنما وضعوا الشروح المصنفة لتفسير مراد الشاعر فقط ، فكل مايذكرونه من زيادة على ذلك مقصودة بالعرض لا بالذات ، وإذاكان الحال كذلك لم يجز أن يقال إنهم غلطوا لإخلالهم بنقد الشعر ، والكلام على مافيه من علم الصناعة الشعرية ، والبحث عن فصاحته وبلاغته ؛ لأن ذلك فن مفرد لم يضعوا شروحهم له وكذلك لم يتكلموا فى العروض والقوافى ودقائق التصريف »(١) .

ولعل القارىء لهذا النقد يدرك مدى تحامل ابن أبى الحديد على ابن الأثير ؛ لأن ابن الأثير يغلط الشراح فى أنهم قصروا شروحهم على الألفاظ والمعانى دون نظر إلى مواطن الجمال فى النص ؛ لأن قيمة الشعر وجلاله لايستطيع القارىء أن يستمتع بهما إلا إذا أدرك مافى النص من جمال ، وما اشتمل عليه من أسرار البلاغة والفصاحة .

ونظرة ابن الأثير هذه هى التى أخذ بها النقاد المحدثون فى عرضهم للنصوص الأدبية ، وطريقة معالجتها ؛ حتى يعطوا القارىء وجبة شهية وغذاء

---

(١) ابن أبى الحديد . الفلك الدائر ، وهو ذيل المثل السائر جـ ٤ ص ٣٩ المصدر السابق .

دسما ، أما أن يشرحوا الألفاظ فقط ، أو المعانى فحسب فهذا أمر لا يعطى قيمة للشعر ، ولا يلقى الضوء على ما فيه من أسرار جمالية ، أو عيوب فنية .

هذه المعارك النقدية التى احتدمت فى هذه الفترة من تاريخ أدبنا العربى كان عمادها أولا وأخيراً ما استحدث فى هذا العصر من طرق فنية على يد القاضى الفاضل ومن سار على دربه .

ولقد امتدت المعارك النقدية ؛ لتشمل فترات زمنية متلاحقة ، واتضع للقارىء تراثا نقديا يرشده إلى كثير من القضايا التى عكف أصحابها على خدمة الأدب شعره ونثره ، ولعلنا لا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال الجهود المشكورة التى قام بها الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى الشاعر المنشىء الأديب المتوفى سنة سبع وستين وسبعمائة هجرية ، صاحب كتاب فوات الوفيات ، وكتاب الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وكتاب نصرة الثائر على المثل الثائر .

وكتاب فوات الوفيات ، وإن يكن كتابا للتراجم التى أهملها ابن خلكان إلا أن شخصية الكاتب تبرز من خلال سطوره ، فإذا تعرض لشخصية من الشخصيات فإنه لا يذكر تاريخها البحت فحسب ، بل يذكر نتاجها الأدبى شعراً ونثرا ، ثم يذكر رأيه فى هذا النتاج ، ومدى ما يتمتع به قائله من جودة أو قبح

أما الكتاب الثانى فهو كتاب كتبه شارحا به لامية العجم لمؤيد الدين إسماعيل بن الحسن على الطغرائى المتوفى سنة أربع عشرة وخمسمائة هجرية ، والتى نظمها ببغداد سنة خمس وخمسمائة فى وصف حاله وشكاية زمانه كما جاء فى الصفحة الأولى من كتاب الغيث المسجم نقلا عن كشف الظنون .

لقد اتخذ الصفدى من هذا الشرح مجالا لإبراز نظرياته النقدية ، وسلما يرقى بالشعر من خلاله ، وكما يقول بعض الباحثين ، لقد تحول النقد عند نقاد هذا العصر عما كنا نألف فى القرون الأولى ، فقد زال من أذهان هـؤلاء

تقديس القديم لقدمه فحسب، وغدوا يضعون ادبهم وأدباءهم على قدم المساواة مع إنتاج العصور السابقة وأصحابه ، فلا تتفاوت منازلهم إلا بما يكون لكل منهم من تميز فني » .

« وقد رأينا الصفدي وهو يقرر أن أدباء عصره قد بلغوا الرجال من خلال مقاييس عصره بطبيعة الحال ، وهي ناحية هامة ترتبت عليها نتائج خطيرة في حقل التراث الأدبي ؛ إذ بفضلها حفل هؤلاء بنتاج العصر، واهتموا بجمعه ، ووصلت إلينا من صنعه مجموعات من الشعر جمة حملت في طياتها كل ماتتوق إلى كشفه من أحوال ، الادب وغيره عبر قرون متطاولة »(١) .

وقد اتخذ الصفدي لنفسه منهجا عاما يسير عليه في نقده للنصوص ، فهو يستعرض النص أولا . ثم يعمل فيه فكره شارحا ومعللا ، ثم يعرضه على ذوقه السليم ، ويحكم عليه من خلال هذا التأثر الذي حدث له وإذا نحن سرنا على ضوء موازين النقد الحديث ومدارسه يمكننا إلحاقه — كما يقول : على سلطاني — بالمدرسة التأثرية التي تعتمد في حكمها على مايحدثه النص عند الإنسان من فاعلية ، ومدى مايجلبه للإنسان من متع فنية ، وهو إزاء ذلك وقف من مدرسة القاضي الفاضل موقفين متغايرين ، فهو حينا ينقد هذه الصنعة التي كبل بها هؤلاء الكتاب والشعراء نتاجهم ، وهو حينا آخر يمدح التورية التي كانت طابعا عاما لمدرستهم .

والصفدي بعد أن يصدر حكمه على النص يقترح صيغة أخرى يراها في نظره أقرب إلى الصواب ، يقول الصفدي قال ابن الساعاتي .

أبدا يشتت لوعتي تشتيته   ويزيدني ظمأ مدار نظامه

---

(١) محمد على سلطاني : النقد الادبي في القرن الثامن الهجري ص ٢٣٤ . منشورات دار الحكمة — دمشق مطبعة الحجاز ١٩٧٤ .

أما قوله (أبدا يشتت لوعتى تشتيته) فإنه خطأ ، لأن اللوعة إذا تشتتت تفرقت أجزاؤها ، وضعفت ، وليس هذا من شكوى المحبة فى شىء ، وكان الاليق أن يقـــول . أبدا يجمع لوعتى ، أو يضم صبابتى ، ولكن الجناس أذهله »(١) .

ويقول فى نقده لبعض ألوان الجناس التى وقع فيها شاعر الصوفية عمر ابن الفارض — رحمه الله — « والجناس وإن كان من أنواع البديع لكن بعض صوره مستثقل . كقول ابن الفارض من قصيدة .

أمالك عن صد أمالك عن صد   لظلمك ظلما فيه ميل لعطفة
فرحن بحزن جازعات بعيدما   فرحن بحزن الجزع بى لشقوتى

فانظر إلى استثقال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف فى صدوصد الأولى من الصدود ، والثانى أى عطشان ، وفى ظلم وظلم . الأول الظلم الفتح وهو الريق ، والثانى بالضم وهو الجور مع التقديم والتأخير الذى يحتاج إلى إقليدس حتى يستخرج ترتيبه على خط مستقيم ، والتقدير فيه : أمالك ميل لعطفة عن صد ، أمالك ظلما منك عن صد لظلمك ، فأمالك الأولى مركبة من همزة الإستفهام ، وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب ، وأمالك الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة وكاف الخطاب، وأما البيت الثانى ففيه فرحن: مرتين الأولى الفاء للعطف ، ورحن فعل ماض من الروح لجماعة الإناث ، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الإناث أيضا ، والزاء فى الأولى مضمومة وفى الثانية مكسورة ، وفيه « الحزن » مرتين الأولى بضم الحاء ضد الفرح ، والثانية بفتح الحاء من الأرض ضد السهل ، ولهذه الالفاظ التى عقدها عقد الهزان لأجل الجناس صار كلامه وحشيا من العوام ، بل من بعض الخواص

(١) الصفدى : خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى ، الغيث المسجم ج ١ ص ٢٧١ الطبعة الأولى المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٥ هـ .

الذين لم يتمهروا فى الأدب ، وهذه الأشياء لايخفى على ذى الذوق السليم مافيها من الاستثقال .

ثم يقول : « ولم أقل هذا الكلام جهلا بمقدار الشيخ شرف الدين بن الفارض — رحمه الله — وأنه لم يكن من الفصحاء ، ألا ترى قصائده التى أخلاها من الجناس مثل الميميتين ، والجيميتين واللامية المهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها »(١) .

ولا ينسى الصفدى أن ينبه الشعراء إلى استخدام الألفاظ الموحية التى أصبحت حقائق عرفية بعد أن نقلها الشعراء من معانيها الأصلية فيقول : « واعلم أن للشعراء ألفاظا صارت بينهم حقائق عرفية ، وإن كانت فى الأصل مجازا لكثرة دورانها فى كلامهم ، وتعاطيهم استعمالها ؛ لأنهم ألفوا ذلك من تداولها ، وتكرارها على مسامعهم : من ذلك الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام ، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الردف ، والورد إذا أطلقوه فهم منه الريق ، والنرجس إذا أطلقوه فهم منــه العيون ، وكذلك السيف والسهم والسحر ، وإذا أطلقوا الآس أو البنفسج أو الريحان فهم منه العذار ، فكل هذه الأشياء انتقلت عن وضعها الأصلى وصارت حقائق عرفية نقلها الاصطلاح إلى هذه الأشياء »(٢) .

وينبه الصفدى الشعراء إلى السرقات الشعرية ، ويقرر حقائق هامة فى ذلك هى أن المعانى لاسرقة فيها ، فالمعانى المألوفة ، والعبارات الشائعة التى تعود الناس سماعها ، وأصبحت بمثابة الأمثال السائرة هذه المعانى لاسرقة فيها ، فقد أصبحت ملكا للجميع ، ولايجوز لأحد أن يدعى اختراعها

---

(١) الصفدى : الغيث المسجم ج ٢ص٢٧ المصدر السابق .
(٢) « « « « ج ١ص٢٦٦ « « .

وابتكارها ، وأن المعنى لمن يجيد أداءه ، ويحسن إخراجه والتعبير عنه ، ولا يعيب على أحد استعمال معانى الآخرين، ولكنه يعيب على من يأخذ معانى الآخرين ويدعى اختراعها ، وأنه لم يسبق إليها .

هذه النظريات وردت فى كتابه الغيث المسجم(١) فى شرح لامية العجم ، فهو بين ثنايا الشرح يعرج دائما على هذه النظريات ، ويلقى الأضواء على أثرها بين المشتغلين بصناعة الشعر أو الكتابة .

وهو لا يقصر شرحه على لامية العجم فقط كما يفعل شراح النصوص ، وإنما يضيف إليها معلومات تدل على ذوق أصيل ، وعلى ثروة أدبية رائعة .

يعرض مثلا لقول ابن سناء الملك :

لها ناظر ياحيرة الظبى إذ رنا　　به كحل ناداه ياخجلة الكحل

يعلق عليه بقوله : « لو كان لى فى هذا البيت حكم لقلت « لها ناظر ياحيرة الظبى عنده » ، وخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاة »(٢) .

أما كتاب نصرة(٣) الثائر على المثل السائر فقد كتبه الصفدى لمناصرة ابن أبى الحديد الذى تتبع كتاب المثل السائر بالنقد فى كتابه . الفلك الدائر على المثل السائر ...

ويبدو أن الصفدى كان متأثرا بطريقة القاضى الفاضل فى الكتابة ، بل إنه كان معجبا بها ، ومن أجل ذلك جعلها من المثل العليا التى يجب على الأديب،

---

(١) الصفدى : الغيث المسجم . انظر ج١ص١٥٨ وغيرها المصدر السابق

(٢) 　»　»　»　ج١ص٢٤٣　»　»　.

(٣) مازال هذا الكتاب مخطوطا يحتوى على مائة ورقة وورقة ، ومنه نسخة بمكتبة الأزهر .

أو الشاعر أن يحفظها، ويترسم خطاها، فالكاتب أو الأديب عموما — فى نظره — لابد أن يحفظ القرآن الكريم أولا، ثم يعكف على مقامات الحريرى ثانيا بالنظر والدراسة، ثم رسائل القاضى الفاضل ثالثا.

وقد عبر عن ذلك فى مواطن كثيرة من الكتاب، ومعنى ذلك أنه أراد بكتابه هذا أن يبطل آراء ابن الأثير فى أدب القاضى الفاضل، وكأن رسائل القاضى الفاضل أكبر من النقد فى نظره، أو بالأحرى أكبر من أن يدعى رجل مثل ابن الأثير أنه يستطيع أن يكتب رسائل أعظم منها.

وقد اعتمد الصفدى فى كتابه نصرة الثائر — كما يقول(١) مؤلف النقد فى القرن الثامن الهجرى — على أسس ثابتة نجملها فيما يلى:

١ — الأساس التأثرى، وذلك باستعراض النصوص وفهمها، وإبداء رأيه فيها أو اقتراح صيغة أخرى تناسب ذوقه كما فعل ذلك عندما عرض لنص فى وصف الأسود الذى علق عليه بأنه أزعج السامعين، وكادوا يفرون هربا منه ومن وصفه.

٢ — الأساس الدينى، وهذا الأساس سار عليه كثير من النقاد المسلمين الذين جعلوا الأدب خاضعا لمقاييسهم الدينية، وهو فى نظرهم لا يجب أن يخرج عن رسالته السامية، وقد نعى الصفدى على ابن الأثير عدم بدئه كتابه بحمد الله (٢) والثناء عليه، وكان يجب عليه ذلك، ثم لما ورد فى مقدمة

---

(١) هو محمد على سلطانى. النقد فى القرن الثامن الهجرى: منشورات دار الحكمة — دمشق.

(٢) قال: «قال ابن الأثير — سامحه الله تعالى —: نسأل الله أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله ... أقول: قال رسول الله — ﷺ — كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذع، فلو قال: الحمد لله لكان أفضل، وربما عيب ذلك على الزمخشرى فى أول المفصل كونه قال: الله أحمد ... الخ ...
نصرة الثائر ورقة رقم ٥ المصدر السابق

كتابه من مقارنته بكتاب الله تعالى ، وهل يستطيع عاقل أن يقارن ما يكتبه البشر بما يكتبه الله سبحانه وتعالى .

٣ — الأساس الاجتماعى : وذلك بمراعاة أحوال المخاطبين ، فالبلاغة تعنى أن يكون لكل مقام مقال .

وهناك الأساس الثقافى ، والأساس الفنى ، وهو بذلك يستطيع أن يرتفع إلى درجة عليا فى النقد .

فكتاب نصرة الثائر من الكتب النادرة خلال فترة طويلة من الزمن ، وهو من أبرز الكتب فى النقد التطبيقى فى عصر طغت فيه مقاييس البلاغة ونظرياتها ، والتفنن فى الزيادة عليها ، فجاء كتاب الصفدى بالتطبيق المطلق ، ليرفع لواء الذوق ، ويقيم لتأثر المتلقى وتفاعله مع النص وجودا ، ثم ليكون الحكم ناجما عن الموازنة بين النصوص من حيث وفاؤها بالمعنى (١)

يقول الصفدى فى الغيث المسجم عند شرح بيت الطغرائى :

فيم الإقامة بالزوراء لاسكنى بها ، ولا ناقتى فيها ولا جملى

« وما أعرف أحدا ضمن هذا المثل — أعنى – (لا ناقة لى فى هذا ولا جمل) أمكن ولا أحسن من قول الشهاب محمود ، أنشدنى لنفسه إجازة من قصيدة :

استغفر الله أين الغيث منفصلا من بره وهو طول الدهر متصل
من حاتم ؟ عدّ عنه وأطرح فيه فى الجود لا بسوه يضرب المثل
لو مثل الجود سرجاً قال حاتمهم لا ناقة لى فى هذا ولا جمل

أنظر إلى قلقه فى بيت الطغرائى ، لأنه عطف الناقة والجمل على السكن ولو

(١) محمد على سلطانى ، النقد الأدبى فى القرن الثامن ص ٣٣٥ المصدر السابق .

عطف ما يناسب ذلك من أهل وولد لكان أحسن وأوقع فى النفس ، وانظر إلى دوره فى أبيات الشهاب محمود ، فإنه جاء فى مكان منسجم التركيب ثابتا فى معناه ، حتى كأنه ما برز إلى الوجود إلا فى هذا المكان ، ولا ظهر إلا فى هذا القالب ، ولست أنكر أن الناس قد ضمنوه كثيرا فى أغراض مختلفة طلبا للتمرؤ مما ينتفى الإنسان عنه ، ولكن كلما كان الكلام أكثر ارتباطا ، وتعلقا فى أجزائه كان أحسن »(١)

وهكذا يأخذ الصفدى فى الموازنة بين النصوص ، وإظهار ما يتحلى به كل نص ، ثم إبداء رأيه المعتمد على ذوق فنى راق ، وعلى مقدرة فائقة على التحليل والتوجيه دون النظر إلى عصر معين ، أو قائل بذاته .

ابن حجة الحموى

ونختم جولتنا السريعة هذه بناقد آخر ختمت به الدراسات النقدية بهاءها وجمالها ، ذلكم هو تقى الدين أبو بكر على المعروف بابن حجة الحموى صاحب كتاب « خزانة الأدب وغاية الأرب » المولود فى حماة سنة سبع وستين وسبعمائة ، والمتوفى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة هجرية »(٢)

وكتاب خزانة الأدب ألفه ابن حجة الحموى شارحا به بديعيته (٣) التى جمع فيها كل ألوان البديع على عادة عصره ، ولا نريد هنا التعريف بالبديعيات ،

---

(١) الصفدى . الغيث المسجم ١٥٨/١ . المصدر السابق .

(٢) مقدمة خزانة الأدب . ط المطبعة العامرية ١٢٩٠ هـ القاهرة

(٣) البديعيات لون من النظم نشأ فى العصور المتأخرة له هدفان : هدف دينى ، وآخر تعليمى ، أما الهدف الدينى فهو مدح رسول الله — ﷺ — بأبيات شعرية ، وأما الهدف التعليمى فهو حصر جميع ألوان البديع وذلك بذكر لون بديعى فى كل بيت من أبيات البديعية .

وسبب إنشائها وتأثرها وتأثيرها — فذلك له جولة خاصة وبحث مستقل نعرض له إن شاء الله .

ولكننى أريد الإلمام بمنهج ابن حجة فى النقد ، والذى جاء من خلال شرحه لبديعيته التى جمعت نحوا من اثنين وأربعين ومائة نوع من البديع ، والتى التزم فيها منهجا خاصا هو أن يعرض للنوع البديعى الذى ضمنه بيتا من البديعية وأشار إلى اسمه فيه فيعرفه تعريفا بلاغيا ، معتمدا فى ذلك على أمهات كتب البلاغيين ، ولا يقتصر فى أحيان كثيرة على تعريف واحد ، بل يورد أكثر من تعريف توضيحا للنوع ، ويوازن أحيانا بين التعاريف ويرجح ويعلل كل هذا فى أسلوب الأديب السمح الذى نحى عنه خشونة العلم وصلابة التعاريف مع تزويده بلطائف الذوق الناقد »(١)

ثم يسوق ابن حجة أمثلة على النوع تطبيقية ، ويسجل بيت بديعيته ، وما يقابله من غيرها ، وقد استكثر من الأمثلة الشعرية فى بعض الأبواب حتى تحولت إلى دواوين فى بابها ، نرى ذلك فى باب براعة الاستهلال وباب الجناس ، وباب السجع والتورية والإبداع ، ويعلن عند إيراد المثال عن رأيه مستجيدا ، أو مستقبحا ، وكثيرا ما يعلل لذوقه هذا ، غير أنه تشوبه أحيانا المبالغة فى المدح عند الاستجادة ، والمبالغة فى القدح عند الاستقباح .

وكثرة الأمثلة فى خزانة الأدب من أهم مميزاتها التى تسمو بها على كثير من كتب النقد والبلاغة التى وقفت عند أمثلة بعينها .

وبهذه الكثرة من الشواهد ، وبهذه النزعة من النقد ، وبهذا الحسن فى العرض نستطيع أن نقول : إن خزانة الأدب « مرحلة هامة من مراحل النقد

---

(١) محمود رزق سليم . تقى الدين ابن حجة الحموى ص ٩٢ ط دار المعارف ١٩٦٢ . سلسلة نوابغ الفكر العربى

الأدبى وعلم البلاغة ، ولكن أغفلها كثير من المحدثين، وفى الكتاب خصوصية ليست فى سواه ، وهى عناية المؤلف بالإكثار من الأمثلة والشواهد من شعر شعراء مصر والشام ، وبخاصة شعراء العصر المملوكى ، والشعراء المعاصرين للمؤلف ومن شعره ، فأصبح كتابه سجلا حافلا بنصوص أدبية قد لا تظفر بها فى سواه ، وهو بذلك يعين على تصور الحياة الأدبية فى عصر المؤلف ،

وللمؤلف لازمة يندر أن تفارقه ، وهى التقديم أو الاستطراد عند تسجيل الشواهد ، فيمهد لها ، أو يعقب عليها بأخبار تاريخية ونوادر أدبية تتصل بها عظيمة القيمة فى تاريخ الأدب ، وبخاصة تاريخه المعاصر للمؤلف مما يعتبر جديداً فى بابه (١)

ويعتبر هذا السفر الضخم أهم كتاب ألفه ابن حجة ، وخاتمة كتب البلاغة والنقد التى أعادت إليها بشاشة الأدب ، حتى نهض النقد فى العصر الحديث ، وقد فرغ المؤلف منه فى ذى الحجة عام ستة وعشرين وثمانمائة هجرية .(٢)

أما نظرة ابن حجة إلى الشعر فى عصر الأيوبيين والمماليك فإنه كثيرا ما يعجب بالبهاء زهير ومن سار على دربه ، أما مدرسة القاضى الفاضل فإنه وقف منها موقفين متناقضين — أيضا — كما ذكرت ذلك عند الصفدى.

ذلك أنه نظر إلى الجناس الذى سيطر على كثير من شعراء هذه المدرسة نظرة كلها رفض لمثل هذا اللون من تشقيق الكلام وعقادته فقال : « أما الجناس فإنه غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ،

---

(١) محمود رزق سليم — تقى الدين ابن حجة الحموى ص. ٤ المصدر السابق
(٢) » » » » » » » » ٤١ » » »

وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ فإن كلا منهما يؤدى إلى العقادة والتعقيد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة »(١)

ويقول معرضا ومنددا بمن أغرموا بالجناس ، واصفا لهم بأنهم عاجزون عن اختراع المعانى ، ومن أجل ذلك لجئوا إلى هذا اللون من التجنيس : « ولم يحتج إليه — أى الجناس — بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعانى التى هى كالنجوم الزاهرة فى أفق الألفاظ ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من مكان المعانى نزلت منزلة الأطلال البالية (٢)

ولكن هذه النظرة تتغير تغيرا تاما عندما يتحدث عن التورية ، فنجده يتيه بها عجبا ، ويتطاول بها على المتقدمين ، بل يرميهم بالقصور فيها ، وأنها عندما تأتى فى كلام أحدهم فإنما هى رمية من غير رام ، وكأنه يحث شعراء عصره وكتابه على أن يعملوا فيها تفكيرهم ، وأن يتفكهوا فى أدواح الأدب بثمراتها ، فهو يقول : « إن التورية عند علماء الفن بمنزلة الإنسان من العين وسموها فى البلاغة سمو الذهب على العين ، وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة ، وأفكارهم لا تقصد مظانها ، وإن كانت سليمة صحيحة ، ولكنها ربما وقعت لهم عفوا من غير مرام . فنقول إنها رمية من غير رام ، وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها ، والمتفكهون فى أدواح الأدب بثمراتها »(٣)

لقد استطاع ابن حجة الحموى — فعلا — أن يجعلنا نعيش فى دوحته الفينانة نقطف ثمارها ، ونشم عبقها ، ونتنقل بين أزهارها ورياحينها .

---

(١) ابن حجة الحموى خزانة الأدب ص ٢٥ المصدر السابق
(٢) ابن حجة الحموى خزانة الأدب ص ٢٦ المصدر السابق
(٣) ابن حجة الحموى خزانة الأدب ص ٢٩٨ المصدر السابق

ولقد كان ابن حجة [illegible] فى عصره – لا يقل أثراً عن النقد فى عصور القوة التى جذبت النقاد المحدثين فأهملوا ما عداها ، ولم ينظروا فى سواها . فحكموا حكما جائرا على فترة زمنية كان النقد فيها له أثره الواضح ونهجه القويم .

وبعد فهذه نظرة سريعة ألقيت فيها الضوء على الدراسات النقدية التى قامت إثر ظهور القاضى الفاضل ، وما ابتكره من طرق فنية جذبت إليها الكتاب والشعراء ، ولكن البحث العلمى المتريث يحتاج إلى إفراد كل علم من أعلام هذا البحث بدراسة مستقلة نعرض فيها إلى ما كتبه ، ونميط اللثام عن جهده فى مجال الدراسات النقدية وسيكون البحث المقبل خاصا بابن الأثير وكتابه « المثل السائر » .

هذا وبالله التوفيق .

د. عبد المنعم أحمد يونس
مدرس الأدب والنقد بالكلية

ابن الأثير وجهوده في الدراسات النقدية

٢

بقلم الدكتور / عبد المنعم احمد يونس
قسم الأدب والنقد

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على عبـــاده الذين اصطفى ... وبعد فقد عرضت في بحث سابق بعنوان « الطريقة الفاضلية وأثرها في بحث الدراسات النقدية » الى دور النقـــد الادبى بعد القرن الخامس الهجرى عرضا مجملا جعلته تمهيدا لما أردت تفصيله في بحوث وقفتها على أعلام النقـــاد بعـــد عبد القاهر الجرجانى .

ولعل القارىء للبحث الذى نشرته في العدد الثانى من مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية يتبين له أن جهود النقاد لم تتوقف بعد عبد القاهر ، وانما واصلت المسيرة ، وأسهمت في توجيـــه التيارات الأدبية شعرية أو نثرية توجيهـــا يدفعها الى الاجـــادة والتهذيب ، وهذه رسالة النقد التى يدين بها كل ناقد ، ويؤمن بها كل من يتصدى للتوجيه والتقويم .

ونحن بدورنا يجب علينا أن لا نغمط هؤلاء النقاد حقهم ، أو نحط من مجهـــوداتهم التى ناسبت عصرهم وذوقهم ، بل يجب علينا أن ننظر الى هذا التراث الذى خلفوه لنا نظرة اجلال واكبار محاولين فهمه ، ومعرفة جوانبه ، فجحود المـــاضي ، أو الغض من قيمته لا يلجأ اليهما الا غر جاهل ، أو ضعيف مخدوع ببهرته تلك الافكار البراقة التى دندن بها نقاد الغرب ، والتى أملتهـــا ،

عليهم ظروف أدبائهم ومفكريهم ، فاذا بأقوام منا - معاشر العرب - يتيهون بها عجبا ، ويرقصون لها طربا ، وكأن تراثهم التليد ، ومجدهم الغابر أصبح نسيا منسيا ، أو كأنه لم يمثل عصره تمام التمثيل ، أو كأنه لم يكن السبب في قيام نهضة أدبية وفكرية رادها البارودى ، وأرسي دعائها شوقى وحافظ .

لذلك نرى لزما علينا أن نقف جهدنا - من خلال هذه البحوث - على ذلك التراث الذى خلفه لنا أولئك الاعلام، وخاصة في مجال النقد الادبى ، ولن أقف عند هذا الدور الذى قام به أعلام النقاد أمثال ابن قتيبة ، أو الآمدى ، أو القاضي الجرجانى ، أو زعيمهم عبد القاهر ، فهذا الدور يعرفه القاصي والدانى ، ولن يمارى فيه الا من ران الجهل على بصره وبصيرته ، وانما سأقف عند الدور الذى أداه النقد الادبى بعد عبد القاهر الجرجانى ، لان بعض الباحثين المحدثين لا يرون في هذه العصور الا عصور عقم أدبى وفكرى ، وكأنهم يستطيعون بذلك أن يطمسوا الحقيقة ، أو يصرفوا عنها عيون طالبيها .

ولن أنظر الى تلك اللمحات النقدية التى قام بها كتاب التراجم من أمثال العماد الاصبهانى « صاحب الخريدة » ، أو ابن خلكان « صاحب وفيات الاعيان » ، أو السبكى في طبقاته ، وانما سأنفذمن هؤلاء الى من جعلوا النقد شغلهم الشاغل ، فقدموا لنا كتبا وقفوها على ابراز نظرياتهم وآرائهم في أدب عصرهم شعره ونثره ، فكانت هذه الكتب بمثابة المشاعل التى اهتدى بها السارون ، وما زالت ترسل قبسها فيستضىء به كل من أراد الضرب على وترهم ، والسير على نهجهم وسنتهم .

وأول فرسان هذه الحلبة - أشرق نجمه ، ولمع كوكبه - بعد عبد القاهر - كان ابن الاثير الذى أصبح بمثله السائر ذائع الصيت ، ذا شهرة فائقة في مجال الدراسات النقدية والبلاغية

وهو أحد ثلاثة اخـــوة نجباء وعتهم كتب التاريخ ، وخلدتهم آثارهم التى خدموا بها الانسانية فلم يكن جهدهم منصبا نحو لون واحد من ألوان المعرفة ، وانما اختلفت اتجاهاتهم وتباينت معارفهم ، فكانوا بحق شموسا أشرقت في ســـماء الانسانية فأضاءت كثيرا من جوانبها ، وبددت الظلمات عن كثـــير من منحنياتها ، وأرسلت أشعتها ليهتدى بها كثير من محبيها ٠

أحد هؤلاء الثلاثة أبو السعادات (مجد الدين) المبارك بن محمد الذى جمع علم العربية والقرآن والحديث ، ومعرفة شيوخه وصحته وسقمه والفقه ، وصنف في كل ذلك تصانيف مشهورة ، وهو معدود في أعلام المحدثين ، ومن آثاره الكبرى ، جامع الاصول في أحاديث الرسول ، والنهاية في غريب الحديث والاثر ٠ (توفى سـنة ٦٠٦هـ) ٠

وثانى هؤلاء الثلاثة هو : أبو الحسن (عز الدين) على بن محمد المؤرخ الشهير صاحب الكامل في التاريخ ، الذى يعـــرف بتاريخ ابن الاثير ، وهو أشهر كتب التاريخ المتـــداولة ، ومن أوثق المصادر التاريخية الاسلامية ، وأوضحها وأوعـــاها ، وله « أسد الغابة في معرفة الصحابة » و « اللباب في مختصر الانساب للسمعانى » و « ترجمة الدولة الاتابيكية في الموصـــل » (توفى سنة ٦٣٠ هـ) (١) ٠

وثالث الثلاثة صاحبنا الذى نفرد له هذا البحث ترجمـــة وتعريفا بكتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر وهو الكتاب الذى خلد به ذكر ابن الاثير ، وكان بسببه أحد أعلام النقـــد الادبى ، والبلاغة العربية التى لم تتأثر بجمود القواعد ، وكثرة التقاسـيم ٠

---

(١) الدكتور بدوى طبانة ٠ مقال بعنوان : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٠ مجلة تراث الانسانية ٠ المجلد الثـانى العدد الثانى ٠ ص ١٠٣ ط ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ٠

ولقد جاء ذكر الاخوة الثلاثة في دائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان « ابن الاثير » فقالت : يطلق هذا الاسم على ثلاثة اخوة من جزيرة ابن عمر يعدون من أشهر علماء العرب ومؤلفيهم.

١ ـ أكبرهم مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ، ولد عام ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م وتوفي بالموصل عام ٦٠٦هـ ـ ١٢١٠ م ، وانصرف بخاصة الى القرآن الكريم والحديث والنحو . وقد ذكر ابن خلكان مؤلفاته في الوفيات .

٢ ـ وولد الاخ الثانى عز الدين أبو الحسن على بن محمد عام ٥٥٥ هـ ـ ١١٦٠ م في الجزيرة ، وتوفي في الموصل عام ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٤ م وهو صاحب الكتاب المشهور « الكامل في التاريخ الذى يستشهد به كثيرا في هذه الدائرة » .

٣ ـ وولد الاخ الثالث : ضياء الدين أبو الفتح نصر الله . عام ٥٥٨ هـ ـ ١١٦٣ م في الجزيرة وتوفي عام ٦٣٧ هـ ـ ١٤٣٩ م ببغداد ، وترجع شهرته على الاخص الى أنه كان من أصحاب الاساليب ، أما كتابه في البلاغة ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، فيعد من أهم المراجع في العالم الاسلامى (١) .

ولقد أوردت دائرة المعارف الاسلامية بعض كتبه وأشارت الى أن كارل (بروكلمان) قد ذكر كثيرا من مؤلفاته ، وكذلك ابن خلكان الذى ترجم لابن الاثير فقال :

« أبو الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشأبانى المعروف بابن الاثير الجزرى الملقب ضياء

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية . المجلد الاول ص ٢٠٧ مادة ابن الاثير . ط كتاب الشعب .

الدين ، كان مولده بجزيرة ابن عمر ، ونشأ بها ، وانتقل والده الى الموصل ، وبها اشتغل وحصل العلوم ، وحفظ كتاب الله الكريم ، وكثيرا من الاحادث النبوية ، وطرفا صالحا من النحو واللغة وعلم البيان ، وشيئا كثيرا من الاشعار » .

ويواصل ابن خلكان الحديث فيقول : » قال في كتابه الذى سماه « الوشي المرقوم مأمثاله » وكنت حفظت من الاشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين : حبيب بن أوس – يعنى أبا تام ، وأبى عبادة البحترى ، وشعر أبى الطيب المتنبى ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها بالدروس مدة سنين ، حتى تمكنت من صوغ المعانى ، وصار الادمان لى خلقا وطبعا » .

ويعقب ابن خلكان على كلام ابن الاثير السابق فيقول : «وانما ذكرت هذا الفصل في معرض أن المنشيء ينبغى أن يجعل دأبه في الترسل حل المنظوم ، ويعتمد عليه في هذه الصناعة»(٢)

وهكذا تستكمل لابن الاثير عدة الكتابة ، وآلات البيان التى وصلت عنده لدرجة الادمان ، والطبع في حفظ كثير من الشعر الذى يجعله متحكما من ناصية البيان ، متمكنا من السيطرة على أزمة الفصاحة وطلاقة اللسان .

وكانت دواوين السلاطين – في العصور السالفة – لا تحوى بين جنباتها الا من كملت له وسائل هذه الصناعة – أى صناعة

«١» ينقل الدكتور بدوى طبانة عن ياقوت أن مولد ابن الاثير كان في ٢٠ شعبان شنة ٥٥٨ هـ – ١١٦٣ م ، وأن جزيرة ابن عمر فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ، وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة شبه الهلال « مجلة تراث الانسانية المجلد الثانى ، العدد الثانى ، ص ١٠٣ المرجع السابق .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٥ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . ط مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٩ م

(٣ – ٨ م)

الكتابة – التى كان من شروطها أن يكون المتقدم لها حافظــا للقرآن الكريم ، وللكثير من الاحاديث النبوية ؛ والغـــزير من الاخبار والاشعار ، ولمـا كملت لضياء الدين المذكور الادوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين – تغمده الله برحمته – في شهر ربيع الاول سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فوصله القـــاضي الفاضل بخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من الســنة ، وقام عنده الى شوال من السنة ، ثم طلبه ولده الملك الافضـــل نور الدين من والده فخيره صلاح الدين بين الاقامة في خدمته والانتقال الى ولده ، ويبقى المعلوم الذى قرر له باقيا عليه ، فاختار ولده ، فمضي اليه ، وكان يومئذ شابا فاستوزره الملك الافضل نور الدين على المقدم ذكره – رحمه الله – وحسنت حاله عنده (١) .

وهكذا تمكن ابن الاثير – بفضل ما أوتيه من علم وحب لهذا العلم ، وملكة حافظة واعية – من أن ينال شهرة فائقة في الكتابة ، وأن يجعل الكثير من الحكام يقربه ويدنيه ، فقد تنقل – كمـا قال ابن خلكان – بين كثير من الملوك والامراء ، ثم عـــاد الى الموصل ، واتخذها دار اقامته ومستقره ، وكتب الانشاء لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نــور الدين أرسلان شاه – وذلك في سنة ثمانى عشرة وستمائة (٢) حتى ابن خلكان كان يود الاجتماع به ، ليأخذ عنه شيئا ، ولكنه لم يوفق الى ذلك (٣) .

ومؤلفات ابن الاثير تدور كلها حول علم البيان ، وصـناعة الانشاء ، فقد آمن الرجل بقاعدة التخصص في مجـال البحث والتأليف ، وسنراه فيما بعد ينعى على من يدعى الاشـــتغال بالكتابة دون أن يكون أهلا لها ، ويطلب من الجميع العــلم بأن

---

(١) ابن خلكان وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٥ المصدر السابق .
(٢) ابن خلكـان . وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٦ المصدر السابق .
(٣) ابن خلكـان . وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٦ المصدر السابق .

الكتابة كسائر العلوم لابد لها من وسائل يحصلها المتعـض لها ·

ويذكر الدكتور بدوى طبانه لابن الاثير سبعة عشر مؤلفا (١) تدور كلها حول علم البيان غير أن أكثر هذه المؤلفات لم يثبتها ابن خلكان عند ترجمته لابن الاثير ، وهناك بعض المؤلفات التى ذكرها الدكتور بدوى طبانة وردت ضمن كتابه المثل السائر ، فكتاب المعانى المخترعة جاء الحديث عنه في المثل السائر فقد أفرد ابن الاثير بابا خاصا في كتابه المثل السائر ذكر فيه المعانى، وأخذت حيزاً كبيرا من الكتاب (الجزء الثانى) ، وكتاب السرقات الشعرية ، جاء الحديث عنه مفصلا في المثل السائر (الجزء الثالث) ·

ولعل ابن خلكان نظر الى ذلك عندما حصر مؤلفات ابن الاثير في قوله : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله، وتحقيق نبله » كتابه « الذى سماه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئا يتعلق بفن الكتابة الا ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه » ·

وله كتاب : الوشي المرقوم في حل المنظوم ، وهـو - مـع وجازته - في غاية الحسن والافادة ·

وله كتاب : المعانى المخترعة في صناعة الانشاء ، وهو أيضا نهاية في بابه ، وله مجموع اختار فيه شعر أبى تمام والبحترى، وديك الجن ، والمتنبى ، وهو في مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد، وقال أبو البركات بن المستوفي في تاريخ اربل ، نقلت من خطه في آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله :

تمتع به علقا نفيسا فانه اختيار بصير بالامور حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى
الى الشعر من نهج اليه قويم

---

(١) د· بدوى طبانة · تراث الانسانية · مجلد ٢ عدد ٢ ص ١٠٤ ، ١١٥ المرجع السابق ·

وله أيضا ديوان ترسل في عدة مجلدات ، والمختـــار منه في مجلد واحد (١) .

ولقد قدمت في مقالى السابق أن ابن الاثير على الرغم من علمه وفضله كان كثيرا ما يغمط الناس حقوقهم، ويتباهى عليهم بمعانيه المخترعة ، وفرائده المبتكرة ، حتى القاضي الفاضل الذى أسدى اليه معروفا ، وقدمه الى صـــلاح الدين - كما يقول ابن خلكان - لم يسلم من غمزه ولمزه ، بل ان الهدف الذى حدا به لتأليف كتابه المثل السائر كان الرد على القاضي الفاضل الـذى أكثر من الجناس والتورية في كتابته ، وكان كثيرا ما يشير عند كتابة رسائله أنه لم يستطع أحد أن يأتى بمثل ما أتى به (٢) ، فهو يقول من رسالة له أوردها ابن خلكان ورد عليها ، ونحن هنا نثبت الرسالة والرد حتى تتكشف لنا بعض الحقائق يقـــول ابن خـلكان :

« ومن رسائل ضياء الدين ما كتبه عن مخدومه الى الديوان العزيز من جملة رسالة هى :

« ودولته هى الضاحكة وان كان نسبها الى العباس ، فهى خير دولة أخرجت للزن ، كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس، ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بأنها لا تهـــرم ، وأنها لا تزال محبوة من أبكار السعادة بالحب الذى لا يسلى ، والوصل الذى لا يصرم ، وهذا معنى اخترعه الخــــادم للدولة وشعارها ، وهو مما لا تخطه الاقلام في صحفها ولا أجالته الخواطر في أفـكارها » (٣) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٧ : ٢٨ المصدر السـابق .

(٢) سيأتى كثير من هذا النقد الموجه لابن الاثير في مقالنا التالى الذى نفرده للحديث عن ابن أبى الحديد والصفدى .

(٣) ابن خلكان - وفيات الاعيان جـ ٥ ص٢٩ المصدر السابق

ثم يرد ابن خلكان على ابن الاثير الذي ادعى أن هذا المعنى الذي أتى به مخترع لم يسبق اليه ، فيقول « أقول لعمري ما أنصف ضياء الدين في دعواه الاختراع لهذا المعنى ، وقد سبقه اليه ابن التعاويذي أيضا في قصيدته السينية التي مدح بها الامام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد أول يوم جلس في دست الخلافة ، ويوم الاحد مستهل ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وأول القصيدة :

طاف يسعى بها على الجلاس كقضيب الاراكة المياس

ومنها عند المخلص وهو المقصود بالذكر هنا :

يا بهار المشيب من لي وهيها ت بليل الشبيبة الديماس
حال بيني وبين لهوي وأطرا بي (١) دهر أحال صبغة رأسي
ورأى الغانيات شيبي فأعرضن وقلن السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد وقد أضحى شعارا على بني العباس

ثم يقول ابن خلكان : « ولا شك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب ، وأوضح السبيل فسهل على ضياء الدين سلوكه » (٢) .

وعلى الرغم من ذلك فان ابن خلكان لا ينكر على ابن الاثير دوره البارز في صناعة الترسل ، بل انه يقول عنه : « وله كل معنى مليح في الترسل ، وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله فاذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها » (٣) .

---

(١) قال في لسان العرب : الطرب : الشوق ، والجمع من ذلك أطراب ، قال ذو الرمة : —

استحدث الركب عن أشياعهم خبرا
أم راجع القلب من أطرابه طرب ؟

(٢) ابن خلكان — وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٣٠ ، المصدر السابق
(٣) ابن خلكان — وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٣١ ، المصدر السابق

ويستمر ابن الاثير في عطائه الجم ، وأدائه الرائد يسجل كل خطراته ، ويدون كل ما يصل اليه فكره ، حتى يعم نفعه ، ويبقى أثره الى أن حان أجله ففارق هذه الدنيا التى مازال تراثه لم يفارقها في أحد الجمادين - كما يقول ابن خلكان - سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد التى توجه اليها رسولا من جهة صاحب الموصل ، وصلى عليه من الغد بجامع القصر ، ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربى بمشهد موسي بن جعفر - رضي الله عنهما - ، ولكن البغدادى في تاريخ بغداد ينص على أنه توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة ، وابن خلكان يؤيد هذا الرأى بقوله عن البغدادى • وهو أخبر ، لانه صاحب هذا الفن ، وقد مات عندهم « (٢) •

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :

وابن الاثير الذى أثبت له الباحثون سبعة عشر مصنفا تدور كلها - كما أسلفت - حول صناعة الانشاء وفن الترسل ، والمختار من الشعر والاخبار النبوية - يكاد يجمع كل هذه المصنفات في كتابه الفذ ، المثل السائر ، وكما قيل •• كل الصيد في جوف الفرا • كان المثل السائر جوف الفرا فقد جمع كثيرا من موضوعات هذه المصنفات ، وخاصة تلك التى تدور في فلك صناعته التى خصص لها كثيرا من جهده ووقته ، فكتابه في المعانى المخترعة ، وكتابه الوشي المرقوم في حل المنظوم ،وكتابه الجامع الكبير في صناعة من الكلام المنثور ، وكتاب البرهان في علم البيان ، وكتب المختارات - كلها تدور حول تلك الابواب التى جاءت في كتابه المثل السائر ، بل ان ابن الاثير ضمن كتابه كثيرا من آراء النقاد السابقين عليه ، وظهر كل ذلك في ثنايا كتابه •

(٢) بان خلكان - وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٣٢ ، المصدر السابق

وابن الاثير مؤلف بارع ، وكاتب حصيف ، يقدم لكتابه بما يجعله بين الهدف ، واضح الغاية ، عميق التأثير ، وكأن ابن الاثيرقد وقفعلى مناهجالبحث الادبى – كماوضعها المحدثون – أو هدى الى ما يجب على المؤلف أن يقوم به تجاه ما يكتب ، حتى لا يفجأ القارىء بأمر لم يمهد اليه أو بقضية خفية من مقدماتها ، فتتزلزل أركانها ، ويتخلخل بنيانها .

واذا كان الهدف من الكتاب تعليم الناشئة فن الكتابة ، وارشادهم الى ما يجب عليهم نحوها فان علم البيان من أسس العلوم التى تكون لديهم تلك الملكة ، وتغرس في نفوسهم حبها ، وليس المقصود بعلم البيان ما تعورف عليه – فيما بعد – من تشبيه واستعارة وكناية ، وانما المقصود به جميع الوسائل التى تجعل المنشيء قادرا على تملك نواصي الانشاء فيدخل في ذلك حل المنظوم ، وحفظ ما يمكن حفظه ، بل ان ابن الاثير ينص على ذلك فيقول : « وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان في أن النحوى ينظر في دلالة الالفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والاعراب ، ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ، ويعلم مواقع اعرابه ، ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة » (١) .

ثم يضرب مثلا بما حوته كتب الادب من شعر ونثر وأخبار مثل كتاب « سرا الفصاحة » وكتاب الموازنة فيقول : « وبعد فان علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للاحكام ،

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ج ١ ص ٣٩ – ٤٠ تحقيق أحمد الحوفي ، بدوى طبانه ط دار نهضة مصر ١٩٠٩ م

وأدلة الاحكام ، وقد ألف الناس فيه كتبا ، وجلبوا ذهبا وخطبا ثم يقول : فلم أجد ما ينتفع به في ذلك الا كتاب « الموازنة » لابى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب سر الفصاحة لابى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا ، وكتاب سر الفصاحة ، وان نبه فيه على نكت مثيرة فانه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الاصوات والحروف ، والكلام عليهما ، ومن الكلام على اللفظة المفردة ، وصفاتها مما لا حاجة الى أكثره ، ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها » (١) .

ولا ينسي ابن الاثير أن يثبت في هذه المقدمة ما يجعل هذين الكتابين فيهما من القصور ما يدفع البحث العلمى الى مواصلة المسيرة ، واكمال هذا القصور ، وسد الثغرات التى ندت عنهما ، فقد قال « على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوبا ، ولربما ذكرا في بعض المواضع قشورا وتركا لبابا » (٢) .

ويزيد القارىء تفصيلا فيذكر أنه عثر على بعض الالوان التى حفل بها علم البيان لم يتنبه اليها العلماء السابقون ، ولم ينبه اليها من كتب عن هذا الفن ، وهو بذلك يدعى الاضافة التى يجب أن يقوم بها كل عالم أريب ، وأديب لبيب ، فيقول : « وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه (أى من علم البيان) في غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أمرا ممن نقد حتى تعرض لكل شيء منها ، وهى اذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره ، واذا نظر الى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وقد أوردتها ها هنا وشفعتها بضروب أخر مدونة في الكتب المتقدمة ، بعد أن حذفت منها ما حذفته وأضفت اليها ما أضفته ، وهدانى الله لابتدع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة ، ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة ، وانما هى متبعة ، وكل ذلك يظهر

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر جـ ١ ص ٣٦ المصدر السابق
(٢) ابن الاثير : المثل السائر جـ١ ص ٣٦ المصدر السابق

عند الوقوف على كتابى هذا ، وعلى غيره من الكتب » (١) ·

وابن الاثير باحث مدقق ، يريد من قارىء كتابه أن يتبين منهجه فيه ، وخطة سيره ، فيقول عن كتابه « وقد بنيته على مقدمة ومقالتين : فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعه · فالاولى في الصناعة اللفظية، والثانية في الصناعة المعنوية · ثم بين قيمة ما كتب ، مباهيا جميع السابقين ، معلنا تفرده في بابه يقول : « ولا أدعى فيما ألفته من ذلك فضيلة الاحسان ، ولا السلامة من سبق اللسان ، فان الفاضل من تعد سقطاته وتحصي غلطاته، ويسيء بالاحسان ظنا ، لا كمن هو بابنه وشعره مفتون » ثم يقول « واذا تركت الهوى قلت : ان هذا الكتاب بديع في اغرابه ، وليس له صاحب في الكتب فيقال : انه متفرد بين أصحابه من أخدانه ، أو من أترابه » (٢) ·

ابن الاثير يضع الاسس لنقده :

وابن الاثير ناقد بصير ، بل هو من النقادالذين بنوا نقدهم على كثير من الاسس التى تمكنهم من ريادة هذا الفن ، وولوج بابه ، فهو لا يكتفى بدراسة النظريات النقدية ، ووضعها في أطرها المنمقة ، أو الحديث عنها حديثا جامدا دون تطبيق لها ، بل ان النقد التطبيقى كان من أبرز ملامح المثل السائر ·

ولقد حفل الكتاب أيضا بالموازنات الادبية ، حتى يميز الخبيث من الطيب – في نظره – ، بل انه قبل أن يبدأ رحلته مع كتابه نراه يقرر أن الكاتب الفذ ، والاديب النابه ، والناقد الخبير لا بد له من آلات كثيرة هو في مسيس الحاجة اليها · ساق ذلك في معرض الكتابة التى جعلها هدفه الاسمى ،وغايتهالنبيلة فقال « اعلم أن صناعة الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر جـ ١ ص ٣٧ المصدر السابق

(٢) ابن الاثير : المثل السائر جـ ١ ص ٣٧ المصدر السابق

آلات كثيرة ، وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه : فيقال فلان النحوي ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقال فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر اليه من الخواض في كل فن » (١) .

وهكذا يعطينا ابن الاثير من خلال حديثه عن الكتابة تصورا - لما يجب أن يكون عليه الكاتب الاديب والناقد البصير من تعلم جميع العلوم والفنون ، والوقوف على جلبها وخفيها ، وظاهرها العلوم والفنون ، والوقوف على جلبها وخفيها ، وظاهرها ومضمرها ، حتى تكتمل لديه عدته ، وتستكمل عنده رسالته .

لذلك نراه ينص على بعض ألوان المعارف التي يحتاج اليها الكاتب فيقول : « ومن أجل ذلك قيل شيئان لا نهاية لهما البيان والجمال ، وعلى هذا فاذا ركب الله تعالى في الانسان طبعا قابلا لهذا الفن فانه يفتقر حينئذ الى ثمانية أنواع من الآلات :

النوع الاول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

النوع الثاني : معرفة ما يحتاج اليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ، ولا المستكره المعيب .

النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام فان ذلك جرى مجرى الامثال أيضا .

النوع الرابع : الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعات المنظومة منه والمنثورة والتحفظ للكثير منه .

النوع الخامس : معرفة الاحكام السلطانية في الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك .

النوع السادس : حفظ القرآن الكريم ، والتدريب على استعماله ، وادراجه في مطاوي كلامه .

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ج١ ص ٤٠ المصدر السابق

النوع السابع : حفظ ما يحتاج اليه من الاخبار الواردة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - والسلوك مسلك القرآن الكريم في الاستعمال .

النوع الثامن : وهو مختص بالناظم دون الناثر ، وذلك علم العروض والقوافي الذى يقام به ميزان الشعر » (١) .

وهكذا يضع ابن الاثير امام المشتغلين بالكتابة أسسا يجب عليهم احكامها : حتى يستطيعوا اقامة بناء لا تتزلزل أركانه ، أو يضطرب بناؤه .

وابن الاثير ناقد ذواقه لا يقف أمام القواعد الجافة ، والنظريات الجامدة ، والمقاييس الجمالية التى لا تفرق بين الجمال والجلال أو بين الحلاوة والملاحة كما قيل ، وانما يجب على الناقد أن يكون ذا ذوق فنى مرهف يستطيع به أن يفرق بين هندسة الشكل وانسجام التركيب ، وبين نبض الشكل وحيويته فهو يقول :
« واعلم أيها الناظر في كتابى أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب ، وإن كان فيما يلقيه اليك أستاذا ، واذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ، فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعا ، وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول امتانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بادمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن طبع سيفا ، ووضعه في يمنيك ، لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فان حمل النصال غير مباشرة القتال » .

وانما بلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال (٢)

والذوق عند ابن الاثير ذوق فنى يعتمد أولا على الدراسة المتأنية ، والعكوف على ما كتبه السابقون ثم التمرن الدائم

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر جـ١ ص ٤٣ المصدر السابق
(٢) ابن الاثير : المثل السائر جـ٨ ص ٣٨ المصدر السابق

والدؤوب على استخدام ذوقه في كل ما يعن له من مشكلات ، أو يعرض له من نصوص وأخبار يقول في » عكس الظاهر « » وهو نفى لصفة موصوف ، وهو نفى للموصوف أصلا ، فما جاء منه قول على بن أبى طالب ـ رضي الله عنه ـ في وصف مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تنثى فلتـــاته » (١) ، أى لا تذاع سقطاته ، فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثم فلتات ، غير أنها لا تذاع ، وليس المراد ذلك ، بل أراد أنه لم يكن ثم فلتـــات فتنثى ، وهذا من أغرب ما توسعت فيه اللغة العربية ، وقد ورد في الشعر كقول بعضهم :

« ولا ترى الضب بها ينجمر » (٢)

فان ظاهر المعنى أنه كان هناك ضب ، ولكنه غير متجحر ، وليس كذلك ، بل المعنى أنه لم يكن هناك ضب أصلا ، وهـــذا النوع من الكلام قليل الاســـتعمال ، وسبب ذلك أن الفهم يكاد يأباه ، ولا يقبله الا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه ، وما كان عاريا من قرينة فانه لا يفهم منه ما أراد .

« وسأوضح ذلك فأقول : أما قولنا عن مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وســـلم ـ لا تنثى فلتــاته ، فان مفهوم هذا اللفظ أنه كانت هناك فلتات الا أنها تطوى ولا تنشر ، وتكتم ولا تذاع ، ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات الا بقرينـــة خارجة عن اللفظ ، وهى أنه قد ثبت في النفوس ، وتقرر عند العقول أن مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزه عن فلتات تكون به ، وهو أكرم من ذلك وأوفر ، فلما قيل لا تنثى فلتاته فهمنا منه أنه لم يكن هناك فلتات أصلا ، وأما قول القائل

---

(١) في مختار الصحاح : نث الحديث أفشاه ، وبابه رد .

(٢) صدر هذا البيت قوله « لا تفزع الارنب أهوالها » ابن الاثير ج ٢ هامش ص ٢٤٨ .

« ولا ترى الضب بها ينجحر »

فانه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه ما فهم من الاول ، بل المفهوم أنه كان هناك ضب ، ولكنه غير منجحر .

فالمثل السائر : « من كتب النقد التى لم تعمد الى سرد الافكار والنظريات ، وانما كان نقده نقدا عمليا تطبيقيا ، والكتاب يفيض بكثير من الآراء والفكر الحرة في الادب والادباء على هذا النحو من الدرس والتحليل ، ولم يسلم من نقد ابن الاثير كثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الادب العربى بالاجلال والاكبار كامرىء القيس ، وتأبط شرا ، والفرزدق ، وأبى نواس ، وأبى الطيب المتنبى وغيرهم من كبار شعراء العربية » .

وفي هذا النقد نجد كثيرا من مظاهر التمسك بالموضوعية ، وفي كثير من الاحيان أيضا - نرى ابن الاثير لا يكتفى بحكم المعرفة ، ويشجع على تربية هذا الذوق بالاكثار من القراءة ومداومة الاطلاع » (١) .

موقف ابن الاثير من قضية اللفظ والمعنى :

وقضية اللفظ والمعنى من القضايا النقدية التى شغلت فكر النقاد ، وأخذت منهم جهدا كبيرا ، وما ذلك الا لانهم وجدوا بعض الشعراء تقوى ألفاظهم ، وتفخم أساليبهم ، حتى انك تسمع منها قعقعة الرماح ، وصليل السيوف كقول بشار بن برد :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

---

(١) د. بدوى طبانة .. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .. مجلة تراث الانسانية مجلد ٢ عدد ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٨ المرجع السابق .

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة

ذرى منبر صلى علينا وسلما

ووجدوا كذلك كثيرا من الشعراء ترق ألفاظهم ، وتلين عباراتهم ، فترى فيها الماء الجارى الذى بسيل رقة وعذوبة، فوقفوا لذلك مواقف متباينة منهم من ناصر اللفظ على المعنى ، وأعلن أن المدار في الجودة والرداءة ، وفي الحسن والقبح على اللفظ ، فاختيار الالفاظ وحسن نسقها ودقة سبكها هو المقدم عنده ، والمختار لديه ، وفريق آخر وقف الى جانب المعانى يشد من أزرها ، ويقوى عضدها وساعدها .

ومنهم من رأى أن الالفاظ والمعانى بمثابة جسم لا يمكن له أن ينفصل عن روحه ، فالالفاظ في نظره هى الجسم ، والمعانى هى الروح ، فابن رشيق يقول : « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ كالذى يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين الا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل المعنى جملة ، وتلاشى لم يصح له معنى لانا لا نجد روحا في غير جسم البتة » (١) .

---

(١) ابن رشيق القيروانى . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ج ١ ص ١٠٣ ، ١٠٤ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة ط أولى ١٩٣٤ .

أما ابن الاثير فانه ينص على أن المعانى لها جلالها وخطرها ، ولكنها لا تقف مساوية للالفاظ ، ولا يمكن أن تكون قرينة لها ، لان المعانى في نظره قد يحصل عليها أناس لا يستطيعون الباسها اللباس الملائم لها من اختيار الالفاظ واستقامة التعبير .

يقول ابن الاثير : ومع هذا فلا تظن أيها الناظر في كتـــابى أنى أردت بهذا القول اهمال جانب المعانى بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه فانه اذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسنها الا أن صاحبها بليد أبله ، والمراد أن تكون هذه الالفاظ المشار اليها جسما لمعنى شريف .

وهو في هذا يقترب من ابن رشيق في حديثه السابق ، ولكنه ما يلبث أن يقول : « على أن تحصيل المعانى الشريفة على الوجه الذى أشرت اليه أيسر من تحصيل الالفاظ المشار اليها » (١) .

فهو يناصر جانب اللفظ عـــلى جانب المعنى ، ويعلن في صراحة أن العثور على المعانى الشريفة أيسر من العثور عـــلى الالفاظ الجليلة .

ويستطرد ابن الاثير كى يعضد رأيه ويقوى اتجاهه فيقول: ويحكى عن المبرد – رحمه الله – أنه قال : ليس أحد في زمانى الا وهو يسألنى عن مشـــكل من معانى القرآن ، أو مشـــكل من معانى الحديث النبوى ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ، فأنا امام الناس في زمانى هذا ، واذا عرضت لى حاجة الى بعض اخوانى ، وأردت أن أكتب اليه شيئا في أمرها أحجم عن ذلك ، لانى أرتب المعنى في نفسي ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك ، ولقد صدق في قولـــه هذا وأنصـــف غـــاية

---

(١) ابن الاثير ، المثل السائر جـ ١ ص ٢٤٣ .

الانصـــاف » (١) ٠

ويزيد رأيه وضوحا وبيانا فيأتى بما يقابل ذلك من أمثلة لبعض الجهال الذين رآهم وهم يحصلون على المعانى ، ولكن لا يجيدون التعبير عنها فيقول : « ولقد رأيت كثيرا من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم الا من يقع له المعنى الشرف ويظهر من خاطره المعنى الرقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظتين ، فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول » ٠

« وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعانى؛ فانه لا يمنع الجاهل الذى لا يعرف من العلوم أن يكون زكيـــا بالفطرة ، واستخراج المعانى انما هو بالذكاء لا بتعلم العلم» (٢)

ويبدو أن ابن الاثير قد حاول بلورة رأى الجاحظ في انتصاره للمعنى على اللفظ ، ورأى عبدالقاهر الذى أعلنه في دلائل الاعجاز وانتصر فيه - كما يتوهم البعض - للفظ على المعنى عندما قال « المعانى مطروحة في الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والقروى والبدوى ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ ، وســـهولة المخرج ، وصحة الطبع ، وكثرة المـاء ، وجودة السبك ، وانمـا الشعر صياغة وضرب من التصوير » (٣) ٠

وعلى الرغم من ذلك فان ابن الاثير لم يوفق الى ما وفق اليه ابن رشيق ٠ وهو السابق - دون شك - بل لم يوفق الى ما وفق اليه عبد القاهر الجرجانى الذى « استدل على مذهبه في الصياغة بكلام الجاحظ نفسه ، فهو يفره عليه ، ويؤمن بهويؤول موهمه،

---

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ج ١ ص ١٢٣٠
(٢) ابن الاثير ، المثل السائر ج ١ ص ١٢٤ ٠
(٣) عبد القاهر الجرجانى ، دلائل الاعجاز ص ١٩٨ ط المنار

ويؤكد ايمانه به في غير موضع من كتابه مما يدل على أن الرجل كان يرى رأى الجاحظ في صياغة الكلام » ٠

« ذلك أن عبد القاهر قصد الى بيان السر في بلاغة التعبير، وأن ذلك يعود الى ما بين المعانى المدلول عليها بالالفاظ من تآخ وارتباط ، وهو تآخى معانى النحو ، وارتباط بعضها ببعض ، فكلما كان هذا التآخى شديدا ، وكلما كان هذا الارتباط معجبا، وكلما كانت الصلة مؤثرة كان ارتقاء الكلام في درجات البلاغة» (١)

وهكذا يستبين لنا مما سبق أن رأى ابن رشيق في ذلك واضح الدلالة قوى الاثر ، فالالفاظ والمعانى كلاهما يؤدى دوره في تكوين صرح شامخ لموضوع متكامل ٠

المقالة الاولى : في الصناعة اللفظية :

لقد خصص ابن الاثير الجزء الاول من كتابه «المثل السائر» للصناعة اللفظية ، وذكر فيه بعض الاسس والقواعد التى يجب أن يتعلمها كل من أراد السير في فلك علم البيان ، ولكن ابن الاثير نراه لا يعتمد على وضع القواعد الجامدة ، والقوانين العقيمة ، بل نراه اذا عرض لاى لون من ألوان هذه الصناعة يضع القاعدة، ثم يرشدك الى أسلم الطرق التى يمكن أن نسير فيها ، ويضع أمام ناظريك الامثلة المتكررة من كلام السابقين والمعاصرين ، ويقارن بين ذلك وبين ما أتى به هو في هذا الباب ، وبذلك يدفعك الى مواصلة القراءة ، ومتابعة المسيرة حتى وأنت تقرأ قواعد قد تملها عند غيره من الكتاب والمنشئين ٠

---

(١) د٠ أحمد أحمد بدوى ــ عبد القاهر الجرجانى وجهوده في البلاغة العربية ص ١٢٥ ، ١٢٦ ٠
سلسلة أعلام العرب العدد ٨ ٠

رأى ابن الاثير في السجع :

من الملامح الفنية في نقد ابن الاثير أنه لا يقتصر على النظريات المتعارفة في هذا الباب ، وانما يعلن رأيه حتى في مسائل البلاغة التى يرى أنها تشكل جانبا من علم البيان ، وهو لا يقف عندما كتبه السابقون ، وانما يعلن رأيه في أى فن من الفنون ، ويحاول الانتصار له مهما كلفه ذلك من شطط أو اغراب ٠

ولعلنا لا نكون متحاملين على ابن الاثير فيما قررناه ، فنحن نحاول التعرف على الحقيقة أيا كانت ، والحكمة ضالة المؤمن ٠

يقول ابن الاثير في تعريف السجع : « المسجع » وحده أن يقال تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد ٠

وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به ، والا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم ، فانه قد أتى منه الكثير ، حتى انه ليؤتى بالسورة جميعا مسجعة ، كسورة الرحمن ، وسورة البقرة وغيرها ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من الصورة ٠

فمن ذلك قوله تعالى : « ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ٠ خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا » (١) ٠

ثم يذكر ابن الاثير بعض الاحاديث التى ورد فيها - مايسميه سجعا - كحديث الحياء من حفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ٠٠٠ الخ ٠

وابن الاثير بذلك يخالف كثيرا من العلماء الذين تورعوا عن استخدام كلمة « السجع » في القرآن الكريم ، ورأوا أن يستعملوا اصطلاح « الفواصل » ، حتى لا يشبه كلام الله بكلام البشر ،

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ١/٢٧٣ - المصدر السابق ٠
الآيتان : الاحزاب ٦٤ - ٦٥ ٠

فكلام البشر هو الذى يتسم بالقوة والضعف ، والحسن والقبح ، والجودة والرداءة ، أما كلام الله فلا يتصف بذلك ، بل كله حسن ، لان أعلاه مثمر ، وأسفله مغدق .

ولا يفوت ابن الاثير استعمال ذكائه في الرد على العلماء الذين أنكروا على من يصف بعض فواصل القرآن الكريم بالسجع فيقول : « فان قيل : ان النبى – صلى الله عليه وسلم – قال لبعضهم منكرا عليه ، وقد كلمه بكلام مسجوع » أسجعا كسجع الكهان ، ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبى – صلى الله عليه وسلم – .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبى – صلى الله عليه وسلم – السجع مطلقا لقال : أسجعا ؟ ثم سكت ، وكان المعنى يدل على انكار هذا الفعل لم كان ؟ فلما قال : « أسجعا كسجع الكهان » صار المعنى معلقا على أمر وهو انكار الفعل لم كان على هذا الوجه ؟ .

فعلم أنه انما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير ، وانه لم يذم السجع على الاطلاق (١) .

فنحن نرى ان ابن الاثير يستخدم حججا عقلية بعيدة عن الهدف المطروح للمناقشة ، وليس فيها الدواء الشافي للغلة ، والمسلم الغيور على كتاب الله يربأ بنفسه عن ذلك ، فكلام الله لا يخضع لاى مقياس من المقاييس التى يمكن أن يقاس بها كلام البشر ، فللبشر استخداماتهم من سجع لا تكلف فيه ، ولا تشبه فيه بسجع الكهان ، ولكتاب الله منهجه في أسلوبه الذى يعلو عن أساليب البشر ، ويرتفع عن مسمياتهم .

وابن الاثير في رأيه هذا يسير في نفس الخط الذى سار فيه

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ج ١ ص ٢٧٣ المصدر السابق

بعض علماء البلاغة السابقين عليه بل انه يردد نفس العبارات التى رددها أبو هلال العسكرى في الصناعتين عندما قال «وكذلك جميع ما في القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة لما يجرى مجراه من كلام الخلق » وبعد أن يسوق أمثلة من القرآن الكريم ـ يعدها من السجع ، ويذكر نهى النبى لرجل قال له : عندما حكم بدية الجنين ، أندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل ـ فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسجعا كسجع الكهان . بعد أن يذكر أبو هلال ذلك يقول : « لان التكلف في سجعهم فاش ، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال أسجعا ؟ ثم سكت ، وكيف يذمه ويكرهه ، واذا سلم من التكلف، وبرىء من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه »(١)

اذن هى نفس الكلمات التى رددها ابن الاثير ، وحاول التدليل على أحقيتها ، بل انه استطرد استطرادا طويلا يبين لنا فيه الطرق التى يجب أن يسير عليها من يحاول استخدام هذا اللون من الكلام بقوله : « فاذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد ، فان وراء ذلك مطلوبا اخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ فانه يجىء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه . ويكون مثله : كغمد من ذهب على نصل من خشب » (٢) .

راى ابن سنان الخفاجى :

أما ابن سنان الخفاجى فانه يقرر أيضا أن فواصل القرآن الكريم يمكن اطلاق اسم السجع عليها ، ولكنه يفصل بين

---

(١) أبو هلال العسكرى ، الصناعتين ص ٢٨٦ ، تحقيق د. مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية ببيروت .

(٢) ابن الاثير ، المثل السائر ج ١ ص ٢٧٦ .

ما تماثلت حروفه في المقاطع ، وبين ما تقاربت حروفه ، واليك رأى ابن سـنان .

يقول : « ومن المناسبة بين الالفاظ في الصـيغ السـجع والازدواج ، ويحد السجع بأنه تماثل الحروف في مقاطع الفصول ...ثم قال : وبعض الناس يذهب الى كراهة السـجع والازدواج في الكلام ، وبعضهم يستحسنه ، ويقصده كثيرا ، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه فاذهب طلاوة الكلام ، وازال ماءه ، وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الالفاظ يحسـنها ويظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد في كلام الله تعالى ، وكلام النبى - صلى الله عليه وسلم - والفصيح من كلام العرب ، وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه كذلك النثر يحسن تماثل الحروف في فصوله . ثم قال : والمذهب الصحيح أن السجع محمود اذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ، ولا احضره الا صدق معناه دون موافقة لفظه ، ولا يكون الكلام الذى قبله انما بتخيل أنه لاجله ورد . ليصير وصلة اليه . ثم قال : أما الفواصل التى في القرآن فانهم سموها فواصل ، ولم يسموها اسجاعا ، وفرقوا فقال : ان السجع هـو الذى يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل هى التى تتبع المعانى ، ولا تكون مقصودة في أنفسها وقال على بن عيسي الرمانى : ان الفواصل بلاغة والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعانى ، والفواصل تتبع المعانى ، وهـذا غـير صحيح .

« والذى يجب أن يحرر في ذلك أن يقال : ان الاسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه ، والفواصـل على ضربين : ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع ، وضرب لا يكون سجعا وهو ما تقاربت حروفه في المقـاطع ولم

تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من المتماثل والمتقارب من أن يأتى طوعا سهلا ، وتابعا للمعانى ، وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فان كان من القسم الاول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وان كان من الثانى فهو مذموم مرفوض» ثم أشار الى أن ما في القرآن كله انما هو المحمود وساق أمثلة للتماثل ، ثم قال : وهذا جائز أن يسمى سجعا لان فيه معنى السجع ، ولا مانع في الشرع يمنع من ذلك » ٠

ثم قال : « وأظن أن الذى دعا أصحابنا الى تسمية كل ما في القرآن فواصل ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لانه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعا ، وبين مشاركة جميعه في كونه عرضا وصوتا وحروفا وكلاما وعربيا ومؤلفا ، وهذا مما لا يخفى فيحتاج الى زيادة في البيان ، ولا فرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع » (١) ٠

ولقد مال الدكتور أحمد موسى الى رأى من يجيز تسمية فواصل القرآن الكريم سجعا وذلك – لحسن موقعه في السمع ، وتأثيره في النفس ، وخلابته للعقل ، وسهولته في الحفظ (٢) ٠

ثم يعلل لذلك بقوله : « ونرى أن النهى في الحديث منصب على سجع الكهان لا لتكلفه فحسب – كما قال أبو هلال – ، ولا لما تضمنه من حكم – كما قال ابن الاثير – بل انه قد عهد في الكهان

---

(١) ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة نقلا عن الصيغ البديعى في اللغة العربية ص ٤٥ ، ٤٦ ٠

(٢) الدكتور أحمد موسى : الصبغ البديعى في اللغة العربية ص ٤٨ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٩ م ٠

التمويه في أحكامهم ، وانما يقصدون الى السجع مضربين عامدين، لانه يخامر العقول ، ويخدر الاعصاب ، ويؤثر في النفوس تأثير السحر ، ويلعب بالافهام لعب الريح بالهشيم ، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التى تطرب لها الاذن ، وتهش النفس ، فيغفل العقل من تمييز الصحيح من الزائف ، ويلهو الفكر عن تمحيص الحق من الباطل » ٠

« هذا ولا حرج علينا بعد هذا البيان أن نطلق على فواصل القرآن أسجاعا » (١) ٠

ونحن نقول - أيضا - انه لهذا السبب يجب أن ننزه آيات القرآن الكريم ، عن هذه التسمية ، حتى لا تكون هناك أدنى صلة بين آيات القرآن ، وهى التى تؤثر في النفوس ، وتستولى على العقول والقلوب ، وبين سجع الكهان الذى يزيفون به الحقائق ، ويلبسون به الباطل ثوب الحق ، ولذا فاننا نعتد برأى القاضي أبى بكر الباقلانى في اعجاز القرآن ٠

رأى الباقلانى في السجع :

رد القاضي أبو بكر الباقلانى على من يثبت السجع في القرآن الكريم بقوله : « لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لان الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر » ٠

وبعد أن يذكر الباقلانى القصة التى جعلت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : أسجعا كسجع الكهان ٠ يقول :

(١) د٠ احمد موسى : الصبغ البديعي في اللغة العربية ص ٤٨ ، ٤٩ - المرجع السابق ٠

والذى يقدرونه فهو وهم ، لانـه قد يكـون الكـلام على مثـال السجع وان لم يكن سجعا ، لان ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقـدير السجع من القرآن ، لان اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، ثم يتبع ذلك بقوله : « انه لو كان سجعا لعارضوه لقدرتهم على ذلك ، ولما تحيروا فيه فوصفوه بالسحر » .

هكذا يأخذ الباقلانى في دحض حجة من يقول ان فواصـل القرآن الكريم لا مانع من تسميتها سجعا حتى يقول في نهـاية حديثه « أما الامور التى يستريح اليها الكلام فانها تختلف ، فربما كان ذلك يسمى قافية ، وذلك انما يكون في الشعر ، وربما كان ينفصل عنده الكلامان فيسمى مقاطع السجع ، وربما سمى ذلك فواصل ، وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام ولا تناسب » (١) .

ونعود في النهاية – بعد أن عرضنا لآراء العلماء في السجع – الى ابن الاثير الذى يحاول أن يضع قانونا للسجع يتفق وفواصل القرآن الكريم التى تؤدى كل لفظة منه معنى خاصا بها ، وكل فاصلة يختلف معناها عن أختها فيقول « واعلم أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة ، فان عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصـلا .

وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيرى ، وسأبينه هاهنا ، وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم ، وأمثل لك مثالا اذا حذوته أمنت الطاعن والعائب ، وقيل في كلامك : ليبلغ الشاهد الغائب .

(١) القاضي أبو بكر الباقلانى . اعجاز القرآن . ص ٥٧ وما بعدها . تحقيق السيد أحمد صقر . ط دار المعارف .

« والذى أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها ، فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه ؛ لان التطويل انما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها ، فاذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد كانت احداهما كافية في الدلالة عليه ، وجل كلام الناس والمسجوع جار عليه » (١) ٠

ثم يضع ابن الاثير شروطا للسجع تجعله قريبا من فواصل القرآن الكريم وهذه الشروط هى :

١ ـ اختيار مفردات الالفاظ ٠

٢ ـ اختيار التركيب ٠

٣ ـ أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعا للمعنى لا المعنى تابعا للفظ ٠

٤ ـ أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها » (٢) ٠

ولعلك ـ أيها القارىء ـ تدرك مدى الجهد العقلى الذى بذله ابن الاثير ، حتى ينتصر لرأيه في السجع ، بل لرأى بعض علماء البلاغة من قبله الذين فتحوا له هذا المجال ، فصال فيه وجال ٠

تقسيم ابن الاثير للمعانى : وهى المقالة الثانية :

واذا كان الحديث عن الصناعة اللفظية قد شغل الجزء الاول من المثل السائر فان الحديث عن الصناعة المعنوية قد شغل الجزئين الثانى والثالث بل وبعض صفحات الجزء الرابع ٠

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ج ١ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ٠
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٩ ٠

وقد كان ابن الاثير رائعا في تناوله للمعاني مما يؤكد به مقدرته في طرح القضايا والدفاع عنها سواء أكانت قضايا لفظية أم قضايا معنوية ، وسنراه يتحدث عن الاستعارة والتشبيه وكل ضروب المعاني التي ساقها حديثا ينم عن وعي تام وفكر ثاقب.

وابن الاثير يطرق المعاني من ناحيتين : ناحية عامة أوردها في ضربين ، وناحية خاصة ساقها في ثلاثين لونا من ألوان المعاني بدءا بالاستعارة ونهاية بالسرقات الشعرية .

ولا ينسي في بدء حديثه عن المعاني أن يرد على من يزعم أن الحديث عن المعاني مرجعه علماء اليونان الذين مهدوا السبيل أمام علماء العرب ، ويقرر في ذلك أن علماء اليونان وان كانوا أول من تكلموا بها الا أنهم لم يفصلوا القول في ذلك ، ولان هذا التفصيل محال ، فكل أمة لها معانيها التي تناسب حياتها وظروفها ، فهو يقول : « اعلم أن المعاني الخطابية قد حصرت أصولها ، وأول من تكلم في ذلك حكماء اليونان ، غير أن الحصر كلي لا جزئي ، ومحال أن تحصر جزئيات المعاني ، وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها لا جرم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ، ولا يفتقر اليه ، فان البدوي البادي راعي الابل ما كان يمر شيء من ذلك بفهمه ، ولا يخطر بباله ، ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال ، أن قال شعرا أو تكلم نثرا » (١) .

ويستطرد في الحديث عن ذلك ليقرر أن شعراء العصر العباسي الذين ثقفوا فن الشعر ، ولم يكن لهم طبعا ولا سليقة كالعرب القدامى لم يطلعوا على المعاني التي ذكرها حكماء اليونان ، ولم تصل اليهم ، لانهم وجدوا قبل ترجمتها ، ومع ذلك فانهم أتوا برائع القول ، وجليل الشعر » .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣ .

وبعد أن يفرغ ابن الاثير من ذلك يأخذ في تقسيم المعـانى فيقـول :

« أما القسم الاول (وهو القسم الذى أجمل فيه حديثـه عن المعانى) فان المعانى فيه على ضربين : أحـدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وهـذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، ويتنبه له عند الامور الطـارئة » (١) ٠

ويضرب ابن الاثير لذلك مثالا من شعر أبى تمام في وصف مصـلبين :

بكروا وأسروا في متـون ضوامر
قيدت لهم من مربط النجار

لا يبرحـون ومن رآهم خالهم
أبدا على سـفر من الاسـفار

ثم يقول ابن الاثير ـ بعد ذكرهذين البيتين : « وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، والخاطر في مثل هـذا المقام ينساق الى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحـاضرة » (٢) ٠

ثم يقول ابن الاثير : وكذلك قال في هذه القصيدة في صـفة من أحرق بالنار :

ما زال سر الكفر بين ضـلوعه
حتى اصطلى سر الزناد الوارى

نارا يساور جسمه من حرها
لهب كما عصفرت شق ازار

(١) المصدر السابق ٢/٧ ٠
(٢) المصدر السابق ٢/٨ ٠

طارت لها شعل يهدم لفحها
أركانه هدما بغير غبار
فصلن منه كل مجمع مفصل
وفعلن فاقرة بكل فقار
مشبوبة رفعت لاعظم مشرك
ما كان يرفع ضوءها للسارى
صلى لها حيا وكان وقودها
ميتا ويدخلها مع الفجار (٢)

وهكذا يحاول ابن الاثير أن يسوق الامثلة التى توضح فكرته ، وتبين مراده ، ويحاول - أيضا - أن يوازن بين المعنى مناقشا ومدللا ومعللا ، فهو عندما يسوق قصيدة البحترى التى رأى أن فيها معنى مخترعا لشاهد حال حاضرة يقول .. وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود الا أن فيها معنى مأخوذا من شعر مسلم بن الوليد الانصارى ، وهو قوله : -

نصبته حيث ترتاب الرياح به وتحسد الطير فيه أضبع البيد

لكن البحترى زاد في ذلك زيادة حسنة ، وهى قوله : « ... في غير حالة المحسود » .

وأبيات البحترى التى أشار اليها ابن الاثير ووازن بينها وبين بيت مسلم ابن الوليد هى :

كم عزيز أباده فغدا ير
كب عودا مركبا في عود

---

(١) وردت هذه القصيدة كاملة في ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ج ٢ ص ١٩٨ ط دار المعارف .

أسلمته الى الرقاد رجال
لم يكونوا عن وترهم برقود
تحسد الطير فيه ضبع البوادي
وهو في غير حالة المحسود (١)

والبيت الثالث هو الذى جاء فيه المعنى المشار اليه :

وابن الاثير معجب غاية العجب بأبيات المتنبى في وصف الحمى التى يقول فيها :

وزائرتى كأن بها حياء
فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامى
كأن الصبح يطردها فتجرى
مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق
مراقبة المشوق المستهام

وهذه الابيات من قصيدة المتنبى التى قالها في مصر عندما أصيب بمرض الحمى ، يصف فيها حاله في مصر وما لحق به من ألم وعناء ومطلعها قوله :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

ولقد قدمت في مقال سابق حديث ابن الاثير عن أبيات أبى نواس التى جاءت ضمن قصيدته في وصف الخمر والتى بدأها بقوله :

تدار علينا الكأس في عسجدية
حبتها بألوان التصاوير فارس ..

(١) ابن الاثير : المثل السائر جـ ٢ ص ٩ .

قرارتها كسرى وفي جنباتهـا
مها تدريها بالقسي الفوارس
فللراح عازرت عليه جيوبهـا
وللماء ما دارت عليه القلانس

يحمل ابن الاثير على هذه الابيات حملة شعواء ، بل يلـوم على الجاحظ الذى عد هذا الشعر من المعانى المبتدعة فيقول : ويحكى عن الجاحظ أنه قال : « ما زال الشعراء يتناقلون المعنى قديما وحديثا الا هذا المعنى ، فان أبا نواس انفرد بابداعه » .

ولا أعلم أنا ماأقول لهما ، ولأبى نواس سوى أن أقول : قد تجاوز بهم حد الاكثار ، ومن الامثال السائرة بدون هذا يباع الحمار .

وفصاحة هذا الشعر عندى هى الموصوفة ، لا هذا المعنى فانه لا كبير كلفة فيه ، لان أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره (١) .

وابن الاثير يذكر في هذا المجال كثيرا من الامثلة النثرية التى اخترعها من بنات أفكاره ، ودبجتها يراعـــة أسـطاره فيقول مثـــلا :

« فمن ذلك ما ذكرته في وصف نساء حسان وهو :

« أقبلت ربائب الكنائس في مختصر اللباس ، فقيل انما يختزن الخضرة من الالوان ، ليصح تشبيههم بالاغصان » .

وهذا معنى غريب ، وربما يكون قد سبقت اليه الا أنه لم يبلغنى بل ابتدعته ابتداعا » (٢) .

وأما الضرب الثانى من المعانى « التى تستخرج من غـير شاهد حال متصورة فانها أصعب متالا مما يستخرج بشـــاهد

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٨ .

الحال ، ولامر ما كان لابكارها سر لا يهجم على مكامنه الا جنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه الا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم ، وللهجوم على ذاري المغاني المحمية يحجب البواتر أيسر من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر ، وما ذلك مما يلقيه اليك الاستاذ ، وليس يقوم به الا الفذ ، ولا أقول الافذاذ ، وأين الذى ينشيء فيحسن فيها الانشاء : ويبرز فيها صورا يركبها كيف يشاء ؟ » (١) ٠

ويسوق ابن الاثير أمثلة كثيرة من الشعر يدلل بها على دعواه ، ويحاول – أيضا – أن يبرز موهبته الفنية ، وقدرته البلاغية على الاتيان بهذه المعاني ٠

فمن هذه الامثلة قول أبى نواس هاجيا :

شرابك في السراب اذا عطشنا
وخبزك عند منقطع التراب
وما روحتنا لتذب عنا
ولكن خفت مرزئة الذباب

فالبيت الثانى من هذين البيتين هو المشار اليه بأنه معنى مخترع ٠

ويحكى عن الرشيد هارون – رحمه الله – أنه قال : لم يهج باد ولا حاضر بمثل هذا الهجاء » (٢) ٠

وهذا الهجاء غريب في معناه ، فالمهجو في أبغض حالات البخل ، حتى انه لا يقوم بالترويح على ضيوفه الا رغبة منه أن يطرد الذباب ، حتى لا ينال من داره شيئا ، والابيات في غاية الروعة ، ونهاية البيان ٠

---

(١) المصدر السابق : ج ٢ ص ٢١ ٠
(٢) المصدر السابق ٠ ج ٢ ص ٢٢ ٠

وابن الاثير يسوق أيضا مثالا من شعر أبى تمام في اختراع المعانى التى قيلت دون شاهد حال حاضرة ، ولكنه يزهو باختراعه ، ويتعالى بابتداعه فيقول : « وقد قيل ان أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى ، وقد عدت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى .

« وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وما هذا من مثل أبى تمام بكبير ، فانى أنا عددت معانى المبتدعة التى وردت في مكاتباتى فوجدتها أكثر من هذه العدة ، وهى مما لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه » (٢) .

ثم يسوق أمثلة كثيرة من شعر أبى تمام من ذلك قوله :

يأيها الملك النائى برؤيته
وجوده لمراعى جوده كثب

ليس الحجاب بمقص عنك الى أملا
ان السماء ترجى حين تحتجب

وقوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

وبعد أن يذكر ابن الاثير كثيرا من الامثلة الشعرية والنثرية له ولغيره من الشعراء يحاول التعظيم من هذه المعانى ، والتنويه الى أنها لا تتأتى لكل كاتب أو شاعر ، وانما لا يرتقى اليها الا كل من وهبه الله ملكة أدبية وفنية فهو يقول :

---

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٣ .

« وبعد هذا فسأقول لك في هذا الموضع قولا لم يقله أحد غيري ؛ وهو أن المعاني المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك اذا وردت عليك مسألة المجهولات تأخذها ، وتقلبها ظهرا لبطن ، وتنظر الى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها وعند ذلك تخرج بك الفكرة الى معلوم ، فكذلك اذا ورد عليك معنى من المعاني ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية » (١) .

ويختم ابن الاثير حديثه عن المعاني العامة ، أو عن الضربين اللذين ذكرهما بتوجيه اللوم لكتاب زمانه ، واحتقار جهودهم التي قصرت عن الاختراع فيقول : « واذا نظر الى كتاب زماننا وجدوا كذلك ، فقاتل الله القلم الذي يمشي في أيدي الجهال الاغمار ، ولا يعلم أنه كجواد يمشي تحت حمار » .

« ولو أنه لا يتطاول اليه لا أهله لبان الفاضل من الناقص على أنه كالرمح الذي اذا اعتقله حامله بين الصفين بان به المقدم من الناقص ، وقد أصبح اليوم في يد قوم هم أحوج من صبيان المكاتب الى التعليم ، وقد قيل ان الجهل بالجهل داء لا ينتهى اليه سقم السقيم » (٢) .

ولعل القارىء لهذا المنهج الذي سلكه ابن الاثير في تقسيم المعاني يرى أنه لم يسبق اليه ، ولكن البحث الدقيق ، والنظر الثاقب يرى أن ابن الاثير مسبوق بهذا الحديث ، وذلك التقسيم فأبو هلال في الصناعتين يقول : « والمعاني على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له امام يقتدي به فيه ، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها ،

وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له

(١) ابن الاثير : المثل السائر جـ ٢ ص ٣٦ .
(٢) ابن الاثير : المثل السائر جـ ٢ ص ٦٤ .

(١٠ — جـ ٤ م)

عند الامور النازلة الطارئة ، والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط » (١) ٠

لكن أبا هلال العسكرى لم يذكر الا نوعين فقط من المعانى أما ابن الاثير فقد أضاف نوعا ثالثا ، وهو النوع الذى يبتدعه صاحبه من غير شاهد حال مصورة ، أما النوع الذى أشار اليه أبو هلال العسكرى ، وهو الذى يحتذيه على مثال ورسم فرط ، فهو الذى أشار اليه ابن الاثير بأنه الذى يستعمله جل أرباب هذه الصناعة « (٢) ٠

أما القسم الثانى الذى تحدث فيه عن المعانى فقد فصل فيه الحديث عن الاستعارة ، والفرق بينها وبين التشبيه ، والحديث عن القرينة ، ورأى ابن جنى في المجاز والرد عليه ، وتحدث كذلك عن التشبيه وأقسامه ، وعن التجريد والالتفات ، وتوكيد الضميرين ، وعطف المظهر على ضميره ، والافصاح به بعده ، والتفسير بعد الايهام ، والفرق بينه وبين عطف المظهر على ضميره ، واستعمال العام في النفى ، والخاص في الاثبات ، والتقديم والتأخير والحروف العاطفة والجارة ، والخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما ، وقوة اللفظ لقوة المعنى ، وعكس الظاهر ، والاستدراج ، والايجاز ـ والاطناب ، والتكرير والاعتراض والكناية ، والتعريض ، والمغالطات المعنوية ، والاحاجى ، والمبادىء والافتتاحيات ، والتخلص والاقتضاب ، والتناسب بين المعانى والاقتصاد والتفريط والافراط ، والاشتقاق والتضمين والارصاد ، والتوشيح ، والسرقات الشعرية ٠

وفي كل ذلك لا يكتفى ابن الاثير بالتعريفات وذكر القواعد ،

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص ٦٩ ٠
(٢) ابن الاثير : المثل السائر جـ ٢ ص ٥٨ ٠

وانما يشفعها بأمثلة توضيحية تطبيقية ، محللا معللا شارحا ناقدا مبينا دوره في السير على هذا المنهج السنيم والمنهج القويم ٠ « لقد طاف ابن الاثير في دراسة هذه الفنون بأسرار الفن الادبى ووقف على مواضع الاجادة ، وبلغ مناط الابداع في درس عميق ، وموازنات فريدة ، وأحكام صائبة ، وكل ذلك يرفعه الى درجة كبار الباحثين العارفين بأصول الادب وأسراره في الاثارة والتأثير ، ويرفع كتابه الى رتبة النماذج الرفيعة للدرس المستفيض ، والبحث المستوعب في أصول الفن ، لولا مسحة من التعالى ، واثارة من الغرور والخيلاء التى نفض من قدر العالم العارف تكاد تكدر هذا الخضم الزاخر بالدراسة الممتعة ، وثمرات القريحة المواتية ، والذهن المتوقد والذوق المرهف » (١) ٠

ابن الاثير والسرقات الشعرية :

وها نحن نصل الى نهاية البحوث القيمة التى ختم بها ابن الاثير كتابه ٠ وهى السرقات الشعرية التى يعد بها ابن الاثير ناقدا له دوره في مجال هذا الفن ٠

ولقد كان ابن الاثير دقيقا في طرحه لهذه القضية التى عالجها غيره من النقاد السابقين عليه ، فقد عقد القاضي عبد العزيز الجرجانى بحثا خاصا بالسرقات الشعرية في كتابه القيم « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وعقد - أيضا - ابن رشيق القيروانى مبحثا في كتابه ، « العمدة في محاسن الشعر وآدابه » سماه الاشتراك ، ومبحثا آخر سماه « التغاير » وكلا الناقدين أدى دوره في ميدان السرقات الشعرية » ٠

أما ابن الاثير فانه قبل أن يطرح القضايا التى عالجها في كتابه بين الفائدة من ذكر السرقات الشعرية ٠ فقال « واعلم أن

---

(١) د٠ بدوى طبانة : تراث الانسانة مجلد٢ عدد٢ ص١١٠

الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك في أخذ المعانى اذ لا يستغنى الآخر عن الاستعارة من الاول ، لكن لا ينبغى لك أن تعجل في سبك اللفظ على المعنى المسروق ، فتنادى على نفسك بالسرقة ، فكثيرا ما رأينا من عجل في ذلك ، فعثر ، وتعاطى فيه البديهة فعقر » .

« والاصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والاختفاء - بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب ، وأطراف من عنقاء مغرب في الاغراب » (١) .

ولعل القارىء لهذا الكلام يدرك رأى ابن الاثير في سرقة المعانى التى لا يلجأ اليها الا من أوتى فكرا حصيفا ، وعقلا راجحا ، ونظرة ثاقبة ، حتى يستطيع أن يأخذ المعنى من السابق دون أن يعلم به أحد ، أو يتطرق الى ذهن قارىء ، ولكنه على الرغم من ذلك يضع قوانين صارمة للسرقات الشعرية تجعل الكاتب الذى يلزم السير على ضوئها متجنبا لكل لون من ألوانها .

وقبل أن يطرح ابن الاثير قضايا السرقة الشعرية وألوانها يرد على من يدعى أن المعانى المبتكرة قد انتهت ، وأن الناس جميعا ما هم الا مكررون لما قيل آخذون ما سبقهم اليه أسلافهم وهم بذلك يقولون ما قاله الاول :

ما أرانا نقول الا معادا من قولنا مكرورا

« فاذا قيل ان المعانى المبتدعة سبق اليها ، ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته » .

« والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح الى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر ، وهى قاذفة بما لانهاية له ، الا أن من المعانى ما يتساوى الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ج ٣ ص ٢١٨ .

باسم الابتداع لاول قبل آخر ، لان الخواطر تأتى به من غير حاجة الى اتباع الآخر الاول » (١) ٠

وابن الاثير يزيد رأيه – في أن باب اختراع المعانى مفتوح – وضوحا وجلاء عندما ينتصر للمتأخرين من الشعراء الذين رموا بأن معانيهم مطروقة ، وأنهم مقلدون لغيرهم ممن سبقهم فيقول : « وقد ذهب طائفة من العلماء الى أنه ليس لقائل أن يقول : ان لاحد من المتأخرين معنى مبتدعا ، فان قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية ، وانه لم يبق معنى من المعانى الا وقد طرق مرارا » ٠

« وهذا القول ، وان دخل في حيز الامكان الا أنه لا يلتفت اليه ، لان الشعر من الامور المتناقلة ، والذى نقلته الاخبار ، وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الابيات فيما يعن لها من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة الى عهد امرىء القيس ، وهو قبل الاسلام بمائة سنة زائدا فناقصا ، فقصد القصائد ، وهو أول من قصد ، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قصد القصائد لكان ذلك كفاية ، وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة » (٢) ٠

« ثم تتابع المقصدون ، واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب في التقصيد ، وكثرت المعانى المقولة بسببه ، ولم يزل الامر ينمى ويزيد ، ويؤتى بالمعانى الغريبة ، واستمر ذلك الى عهد الدولة العباسية وما بعدها الى الدولة الحمدانية ، فعظم الشعر ، وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه ، وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين : « أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى ، وأبو الطيب المتنبى » (٢) ٠

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر : جـ ٣ ص ٢١٩ ٠

(٢) المصدر ذاته : جـ ٣ ص ٢١٩ ٠

ولقد كان الجدير بابن الاثير أن لا يقفل باب اختراع المعانى على هؤلاء الثلاثة المتأخرين وأن يتركه مفتوحا ، حتى يسير مع رأيه الذى قرره في أول حديثه ، ولكنه رغبة منه في الغض من جهود معاصريه ، جعلهم تابعين لمن سبقهم من الشعراء السابقين عليهم ، وأوصد الباب في وجوههم ٠

ما لا سرقة فيـه :

وابن الاثير في طرح هذه القضية يسير في نفس الاتجاه الذى سار فيه القاضي الجرجانى ، وابن رشيق اللذان قررا أن المعانى الشائعة والتعبيرات المألوفة لا سرقة فيها ، وكأنها أصبحت قوالب عامة يمكن للجميع السير على نسقها يقول ٠ القـاضي الجرجانى : « فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطىء بالحجر والحمار والشجاع الماضي بالسيف والنار ، والصب المستهام بالمخبول في حيرته ، والسليم في سهره والسقيم في أنينـه وتألمه ٠ أمور متقررة في النفوس ، متصورة للعقول ، يشترك فيها النـاطق والابكم ، والفصيح والاعجم ، والشـاعر والمفحم حكمت بأن السرقة عنها منتفية ، والاخذ بالاتباع مستحيل ممتنع » (١) ٠

وابن رشيق أيضا يشترك معه في ذلك ، وان لم ينص على معنى السرقة ، ولكنه تخفف فأطلق عليها اسم الاشتراك فقال « والنوع الثانى (يقصد من أنواع المشترك) عـلى ضربين : أحدهما ما يوجد في الطباع من تشبيه الجاهل بالثور والحمار ، والحسـن بالشمس والقمـر ، والشجاع بالاسـد ٠ وما شابهه ، والسخى بالغيث والبحر ، والعزيمة بالسيف والسيل ، ونحو ذلك

---

(١) القاضي على بن عبد العزيز الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٨٣ مطبعة عيسي البابى الحلبى ٠

لان الناس كلهم الفصيح والاعجم ، والناطق والابكم فيه سواء لانا نجده مركبا في الخليقة أولا » .

« والآخر ضرب كان مخترعا ، ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخرا عن أول نحو قولهم في صفة الخد . كالورد » وفي القد « كالغصن » وفي العين « كعين المهاة من الوحش » وفي العنق « كعنق الظبى وكابريق الفضة أو الذهب » فهذا النوع وما ناسبه قد كان مخترعا ، ثم تساوى الناس فيه الا أن يولد منهم فيه زيادة ، أو يخصه بقرينة فيستوجب بها الانفراد من بينهم » (١) .

فابن رشيق قد زاد المعنى وضوحا ، وأتى بلون آخر وهو اللون الذى كان مخترعا ، ثم كثر استعماله فأصبح الجميع فيه سواء الا أن يضيف أحدهم اليه اضافة تجعله متفردا به .

ولقد تابعهما في ذلك ابن الاثير أيضا عندما قال : « وكقولهم ان الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وان الشيء لو علم بمزار الطيف لساءه ، وكقولهم في المديح ان عطاءه كالبحر وكالسحاب، وانه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ، وانه يجود ابتداء من غير مسألة وأشباه ذلك ، وكقولهم في المراثى ان هذا الرزء أول حادث، وانه استوى فيه الاباعد والاقارب ، وان الذاهب لم يكن واحدا ، وانما كان قبيلة ، وانه بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب » .

ثم يقول : « وكذلك يجرى الامر في غير ما أشرت اليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوى في ايرادها ، ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الاول وانما يطلق اسم السرقة في معنى الخصوص » كقول أبى تمام :

---

(١) ابن رشيق القيروانى : العمدة في محاسن الشعر وآدابه جـ ٢ ص ٩٥ ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس (١)

فابن الاثير يسير في بحثه للسرقات سيرا قريبا من مسار سابقيه ، بل انه يشير الى جهود العلماء بقوله : « واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثروا » (٢) ٠

واذا كان ابن الاثير قد سلك مسلك سابقيه ، وعرض لبعض الانواع التى لا سرقة فيها فانه أتى فيها برائع القول ، وجميل الحديث ، وكان له بعد ذلك فضل الجمع والترتيب ، وحسن التقسيم ، حتى ان الدكتور بدوى طبانة يعتبر بحثه في السرقات من أمتع ما كتب فيها فيقول : « وبحث ابن الاثير في السرقات الشعرية من أمتع مباحث المثل السائر وأوفاها ، فقد درسها دراسة علمية منظمة ، وجعل اثارة الادباء من سابقيهم أقساما معروفة ، وأنواعا متميزة ، واستدل لكل قسم منها بالامثلة الكافية الموضحة التى تدل على سعة المعرفة وكثرة المحفوظ ، والقدرة على لمح الافادة ، وان دقت على النظر » (٣) ٠

وابن الاثير يقسم السرقات تقسيما يدل على عقلية فاهمة، وذهن صاف ، فهى عنده اما نسخ ، واما سلخ واما مسخ ٠

« أما النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب » ٠

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر جـ ٣ ص ٢٢١ ٠
(٢) ابن الاثير : المثل السائر جـ ٣ ص ٢٢٢ ٠
(٣) د٠ بدوى طبانة : مجلة تراث الانسانية ، مجلد ٢ ، عدد ٢ ص ١١٢ المرجع السابق ٠

« وأما السلخ فهو أخذ بعض المعنى مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ » .

« وأما المسخ فهو احالة المعنى الى ما دونه مأخوذا ، ذلك من مسخ الآدميين قردة » .

ثم يقول ابن الاثير « وهاهنا قسمان آخران أخللت بذكرهما في الكتاب الذى ألفته ، فأحدهما أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى الى ضده ، وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ » (١) .

ويبدو أن ابن الاثير متأثر في ذلك بالقاضي الجرجانى في الوساطة ، فهو الذى وفي هذا الموضوع حقه ، وأتى فيه بفصل الخطاب (٢) ، وذلك لان ابن الاثير قبل أن يفصل القول في تلك الاقسام التى ذكرها بطرح قضية التفضيل بين الشعراء المحدثين : أبى تمام والبحترى ، والمتنبى ، سيرا على نظام القاضي الجرجانى الذى ألحق بحثه في السرقات بحثه الخاص بشعر أبى تمام ، وأبى نواس والبحترى ، يقول ابن الاثير في الحديث عن الشعراء الثلاثة « أما أبو تمام فانه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، ولم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذى زاد فيه على الاضراب » ثم يقول عن البحترى « وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون في شظف نجد اذ تشبث بريف العراق »

ثم يذكر رأى المتنبى عندما سئل عنه وعن أبى تمام فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى » .

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، جـ ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) القاضي الجرجانى ، الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص ١٨٣ - ٢٠٨ .

فقال : « فان أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقصود من الصخرة الصماء في اللفظ المصنوع من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه الى الافهام ، وما أقول الا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى في ديباجة لفظه الى الدرجة العالية » .

ويقول عن أبى الطيب المتنبى : « وأما أبو الطيب المتنبى فانه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر ما أعطاه ، لكنه حظى في شعره بالحكم والامثال ، واختص بالابداع في وصف مواقف القتال » . ثم يقول : « وهو وان انفرد بطريق صار أبا عذره فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء » (١) .

واذا كان ابن الاثير قد وافق جل النقاد في شعر المحدثين الثلاثة فانه أتى برأى جديد خالف فيه كثيرا من النقاد في شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والاعشي ، حيث فضل عليهم شعر الفرزدق وجرير والاخطل عندما قال : « والمذهب عندى في تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريرا والاخطل أشعر العرب أولا وآخرا ، ومن وقف على الاشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت اليه » .

« ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والاعشي ، فان كلا من أولئك أجاد في معنى اختص به حتى قيل في وصفهم امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشي اذا شرب ، وأما الفرزدق وجرير والاخطل فانهم أجادوا في كل ما أتوا به من المعانى المختلفة ، وأشعر منهم عندى

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، جـ ٣ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

الثلاثة المتأخرون ، وهم : أبو تمام وأبو عبادة البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ، فان هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء » (١) .

وهكذا يعلن ابن الاثير رأيه في تفضيل الشعراء محاولا التعليل له ، والتماس الحجة التى يستطيع بها اقناع القارىء بما يرى .

وابن الاثير في بحثه يضع القضايا في صورة مجملة ، ثم يحاول بعد ذلك تقسيمها وتبويبها وترتيبها ، فنحن نراه يعود مرة أخرى الى تقسيم النسخ والسلخ والمسخ ، فهو يقسم النسخ قسمين : فاما أن يؤخذ المعنى واللفظ جميعا ، واما أن يؤخذ المعنى وأكثر اللفظ ، فمثال الاول قول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم　　　يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة :

وقوفا بها صحبى على مطيهم　　　يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ومثال الثانى وهو الذى يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ قول بعض المتقدمين يمدح معيدا صاحب الغناء :

أجاد طويس والشريحى بعده　　　وما قصبات السبق الا لمعبد

ثم قال أبو تمام :

محاسن أصناف المغنين جمة　　　وما قصبات السبق الا لمعبد

ثم يقسم السلخ الى اثنى عشر ضربا ، ويأخذ في ذكرها مرتبة مبوبة يستطيع القارىء للجزء الثالث أن يقف عليها دون كد أو عناء » (٢) .

ثم يقسم المسخ قسمين أيضا ، ويختم هذه التقسيمات بقوله : « وهذه السرقات ، وهى ستة عشر نوعا لا يكاد يخرج

---

(١) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٢٧٥ .
(٢) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٢٣٣ .

عنها شيء ، واذا أنصف الناظر في الذى أتيت به هاهنا علم أنى قد ذكرت ما لم يذكره غيرى ، وأنا أسأل الله التوفيق لان أكـون لفضله مشكورا ، والا أكون مختالا فخورا » (١) .

« والواقع أن أكثر ما ذكر ضياء الدين من أصول فن الادب ، وما يسمو به وما ينحط لم يكن من أثر النظر ، وضروب التخيـل لمثل الفن الادبى ، كما كان ذلك شأن أكثر الآراء التى أثرت عن الذين قننوا لهذا الفن ، ووضعوا قواعده ، وقد كان جهد أكثرهم أهمية وأجدرهم بالاعتبار الموازنة بين الاعمال الادبية ، واستخلاص مظاهر القوة والجمال التى تمتاز بها بعض تلك الاعمـــال على بعض وكان أكثر تلك الاعمال من صـنع غيرهم عـلى حين أن ابن الاثير كانت صفته الاساسية البارزة اشتغاله بالادب ، واحترافه فن الكتابة الذى عد علما من أعلامه ، ولذلك كانت آراؤه في الادب والنقد صادرة عن الفن الذى أعد نفسه له ، وعن التجربة التى عاش حياته فيها ، ولذلك قرأ آثار الكتاب الذين ذاع صيتهم ، وحلق نجمهم في سماء صناعة الكتابة ، ليقف عـلى مناهجهم فيها ، وينقد منها ما لا يراه مجاريا المقـاييس التى يرتضيها وهى المقاييس التى رأى أنها أكثر دلالة على اتقان الصـنعة ، والتمكن منها ، ولم يقف في سبيل ذلك عند آثار القدماء من فحول هذه الصناعة ، بل انه نقد معاصريه منهم وهم الذين يشار اليهم في عصره في تلك الصناعة بالبنان » (٢) .

والدكتور بدوى طبانة يشير بذلك الى موقف ابن الاثير من القاضي الفاضل الذى كان زعيم صناعة الكتابة وكان معـاصرا لابن الاثير ، بل انه كما أسلفت هو الذى قدمه لصلاح الدين الايوبى وكان السبب في تقريبه منه ، وعلى الرغم من ذلك فان ابن الاثير أنكر على القاضي الفاضل طريقته في الكتابة ، وكان يقارن بين

(١) المصدر السابق . ج ٤ ص ٤ .
(٢) د/ بدوى طبانة . تراث الانسانية مجلد ٢ عدد ٢ ص ١١٣

طريقه القاضي الفاضل وبين طريقته هو في الكتابة ، ويخرج من هذه المقارنة بتحسين ما كتب وتهجين ما كتبه القاضي الفاضل .

لكن تبقى هناك حقيقة لا بد من الاشارة اليها وهى أن كتاب المثل السائر من الكتب الادبية التى جمعت فأوعت ، وقـــدمت للقارىء وجبات شهية في كثير من أصنافها دسامة ونضج ، فهو يجعلك تتنقل بين تلك الاصناف ، لا تشبع من تناولها ، ولا تمل تعاطيها ، ولو أنصفت جامعتنا العريقة لقررته على طـلابها ، فسيجدون فيه طلبتهم ، وسيقفون من خلاله على كثير من النظريات النقدية ، واللمحات البيانية ، والموازنات الادبية ، وسيتعرفون على منهج كاتب كان كل همه امتاع قارئيه ، واسعاد محبيه .

حقيقة أن اعتزازه بنفسه ، واعتداده بفنه جعله يتعـــالى على السابقين ، ويتباهى بما هدى اليه من علم ومعـرفة ، وهى ناحية قد يشفع لها هذا الجهد المبذول ، وقد نغتفرها له ان نحن قرأنا كتابه ، وسعدنا بكثير مما نحن في حاجة اليه .

والله ولى التـــوفيق .

د . عبد المنعم أحمد يونس
قسم الادب والنقد

« للبحث بقيـــة »

أبو النجم العجلي

الراجز الشاعر

دكتور/ عبد المنعم أحمد يونس

الحمد لله واجب الثناء ، مجزل العطاء ، يهب الحكمة لمن يشـــاء ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد امام البلغاء ، وسيد الفصحاء ، وخير من نطق فأبان ، وأدب بادب السماء ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم باحسان ، وبعد ٠

فهذا بحث قصدت به اماطة اللثام عن شخصية أحد الرجاز الظرفاء ، والشعراء الندماء الذين وهبوا ظرف الحديث ، وجميل النادرة ، وأصـيل الكلمة ، فكان لهم أثر كبير في خدمة اللغة ورفعة الأدب ٠

وليس عجيبا أن اتجه تلك الوجهة التى تستنطق التراث ، وتستلهم الماضى وتعيش بين ربوعه وفيا فيه ، ووديانه وصحاريه ، لأن عبق الماضى وأريج زهوره مازالا يلهمان السارين ، ويأخذان بيد الدارسين والباحثين ، فـكثير من الباحثين المحدثين تخلبهم تلك العنـاوين البراقة ، والنظريات المستحدثة ظنا منهم أن صدى هذه العناوين سيجد آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، ولكنهم لو عــكفوا على تراث أمتهم ، وأمعنوا النظر فيه لخرجوا بنتائج لاتقل أهمية عن تلك النظريات الوافدة ، ولرأوا الأصـالة فى كل سطر كتب بأقلام السلف ، وكل فكرة جادت بها قرائح القدماء ٠

ولقد دفعنى الى ذلك ــ أيضا ــ قلة الكتابات التى تـكتب عن اولئك الرجاز ، وغض الطرف عنهم فىالوقت الذىتجول فيه أقلام الكتابفىشعر

الأعلام المرموقين ، ولو أننا سلطنا الأضواء على ذلك الفن الذى كان له أعلامه ومحبوه ورواده ومؤيدوه لخرجنا من ذلك بآيات بينات ، وصور باهرات يحتاجها الدارسون ، ومن باعدت الشقة بينهم ، وبين تراث أمتهم ، أن هؤلاء وأولئك بحاجة الى تجلية ذلك التراث ، وبيان قيمه وأصالته : حتى لاتجرفهم تلك الأفكار الوافدة ، والنظريت الدخيلة ، فيظنوا أن الخير كل الخير فى هذه الآراء التى شبهها - بعض العلماء - بالنباتات الشيطانية ، ليس لها جذور ضاربة فى الأرومة تشد من أزرها ، أو أصـالة من تراث تتكىء عليها ·

ولعلنا نوفق فى طرح بعض الأفكار التى تهم القارىء من خلال عرضنا لتلك الشخصية التى وضعناها عنوانا للبحث ، والتى جاءت مجلية فى حلبة الشعر والرجز ·

من أبو النجم العجلى ؟

أبو النجم العجلى « المفضل » كما يقول أبو عمرو الشيبانى ، أو كما يقول ابن الأعرابى : اسمه الفضل ابن قدامة بن عبيد الله بن عبد الله بن الحارث بن عبدة بن الحارث بن الياس بن عوف بن ربيعة بن مالك بن ربيعة ابن عجل بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن وهب ابن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار (١) ·

وأبو النجم العجلى هو أحد الرجاز الذين جمعوا بين الرجز والتصيد ، يقول ابن سلام الجمحى ،« وكان أبو النجم ربما قصـــد فاجاد ، ولم يكن

. . . . .

(١) أبو الفرج الأصبهاني · الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ ط المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة والطباعة والنشر « تراثنا » ·

كغيره من الرجاز الذين لم يحســـنوا أن يقصدوا ، وكان صـــاحب فخر وبذخ » (١) .

ويقول المرزباني « ولم يكن أبو النجم كغيره من الرجــاز الذين لم يحسنوا أن يقصدوا ، لأنه ربما يقصد فيجيد قال معاوية يوما لجلسائه : أى أبيات العرب فى الضيافة أحسن وأكثر ؟ قالوا : ليقل أمير المؤمنين . فقال : قاتل الله أبا النجم حيث يقول :

لقــــد علمت عرسى قـــلاية أننى طويل ســنا نادى بعيد خمـــودها
اذا حل ضـــيفى بالفــــلاة فلم أجد سوى منبت الأطناب شب وقودها(١)

ولم يكن أبو النجم شاعرا فحسب ، ولا رجازا فقط ، بل انه كان يجمع الى جانب شعره ورجزه روحا مرحة ولسانا فكها ، لقد أوتى ظرف الحديث ، وجميل النادرة ، وسرعة البديهة ، وقوة الحجة ، وقل أن تجتمع هذه الصفات فى شخص ، واذا اجتمعت تهافت عليه الناس ، واعجبوا به ، وتمنوا صحبته والقرب منه ، ورفعوا مؤونة التحفظ فيما بينه وبينهم فقد قيل : كان هشام بن عبد الملك يقول : « ما بقى شىء من لذات الدنيا الا وقد نلته الا شيئا واحدا أخا أرفع مؤونة التحفظ فيما بينى وبينه » يقول ابن سلام : « وكانه قد نال ما اشتهى ، فرفع مؤونة التحفظ فيما بينه وبين أبى النجم العجلى الذى دخل عليه ذات يوم فقال : كيف رأيك يا أبا النجم فى النساء ؟ قال : ماأبين عندى خير . وما أنظر اليهن الا شـــزرا ولا ينظرن الى خزرا (٣) ، قال : فما ظنك بأمير المؤمنين ؟ قــــال : ظنى بنفسى : قال :

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ٢ ص ٧٤٩ ت محمود محمد شاكر . مطبعة المدنى ـ القاهرة ب ـ ت

(٢) المرزبانى . معجم الشعراء ص ١٨٠ تحقيق عبد الســـتار احمد فراج . ط عيسى البابى الحلبى وشركاه القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) نظر اليه شزرا : نظر اليه بمؤخر عينه وهو نظر الغضـــبان ، والخزر انكسار العين وضيقها وهو نظر المتجاهل للانسان رأبك فى النساء حاجتك وأربك .

لا علم لك يا أبا النجم ، ثم أرسل الى جوار له فسألهن عما ظن أبو النجم ، فقلن : يا أمير المؤمنين ، وما علم هذا ؟ ثم أقبلن على أبى النجم فقلن له : يا أعرابى أتقول هذا لأمير المؤمنين ، وليس منا امرأة تصلى الا بغسل منه ؟ فقال هشام يا أبا النجم دونك هذه الجارية ـ لواحدة منهن ـ فأخذ بيدها ، ثم أمره أن يغدو عليه بخبرها ، فغدا عليه ولم يصنع شيئا ، فلما رآه قال : ما صنعت يا أباالنجم ؟ قال : ما صنعت شيئا ، ولقد قلت فى ذلك شعرا ، قال : ماهو ؟ قال : قلت :

نظرت فأعجبها الذى فى درعها   من حسنه ونظرت فى سرباليا

وأخذ أبو النجم يصف ليلته مع الجارية « وأن كبر سنه جعله لا يستطيع التمتع بها • قال : فضحك هشام وأمر له بجائزة » (١) •

وهذه القصة والشعر الذى قيل فيها واردان فى الأغانى ، وفى الشعر والشعراء ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ ، فضلا عن عرض ابن سلام الجمحى لها فى طبقاته عرضا مفصلا ، ومنها نتبين أن أبا النجم لم يكن رجازا فحسب بل كان شاعر أيضا ، وشاعرا فكها ظريفا ، ومنها نتبين ـ أيضا ـ مدى رفع الكلفة بين هشام بن عبد الملك ، وبين أبى النجم العجلى الذى اتخذه نديما يسمر معه ويسرى عنه بقصصه وفكاهاته •

وكان أبو النجم العجلى من الشخصيات التى عملت على انتشار فن الرجز وجعل الناس يعترفون بقوته وأصالته ، بل انه أسهم مع أقرانه من الرجاز فى جعل الشعراء يعترفون بفنيتهم فقد أسند صاحب الأغانى رواية عن أبى عبيدة قال : مازالت الشعراء تغلب حتى قال أبو النجم :

الحمد لله الوهوب المجزل

وقال العجاج :

قد جبر الدين الاله فجبر

---

(١) ابن سلام الجمحى • طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٤٧ ـ ٧٤٨

وقال رؤبة :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق

فانتصفوا منهم » (١) .

واذا كان العرب فى الجاهلية قد قصدوا القصيد ، وقالوا روائع نتاجهم الشعرى ، فانهم لم يقولوا من الرجز الا أبياتا قليلة فى الحرب والفخر ـ كما سيأتى » وان أصحاب القصيد ما كانوا ليعتدوا بالرجاز ، ويحفلوا بالرجز ، حتى نبغ الأغلب العجلى على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطوله ، وجعله كالقصيد شيئا كبيرا ، ثم أتى العجاج ورؤبة وأبو النجم ، وهم أمراء الرجز ، فافتنوا فيه ، وذهبوا به كل مذهب ، حتى رفعوا من شأنه ، وشغفوا الناس به حبا » (٢) .

وقد وضع ابن سلام الجمحى الرجاز فى الطبقة التاسعة من طبقات الاسلاميين ، وعد أبا النجم ثانى طبقته بعد الأغلب العجلى » (٣) أما صاحب الأغانى فقد قال عنه : انه من رجاز الاسلام الفحول المقدمين وفى الطبقة الأولى منهم » (٤)

وكانت بديهة أبى النجم تسعفه فى أمور كثيرة ، وكان أبلغ فى النعت من العجاج ـ كما يقول عنه أبو عمرو بن العلاء ـ رواية الأغانى ، وكان أسرع الشعراء والرجاز بديهة . قال الأصمعى : أخبرنى عمى ، وأخبرنى ببعض هذا الحديث ابن بنت أبى النجم أن أبا النجم قال .

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى . الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ المصدر السابق

(٢ مجلة المجمع العلمى بدمشق . من بحث بعنوان لامية أبى النجم العجلى ج ٧ مجلد ٨ . دمشق . تموز يوليه ١٩٢٨ م . .

(٣)محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٣٧ المصدر السابق .

(٤)أبو الفرج الأصبهانى . الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ المصدر السابق

الحمد لله الوهوب المجزل

فى قدر ما يمشى الإنسان من مسجد الأشياخ الى جـــائم الجزار ، ومقدار ما بينهما غلوة أو نحوها ، قال : وكان أسرع الناس بديهة » (١)

ويبدو أن ظروف أبى النجم ، وحسن حديثه جعلا الناس يستحسنون رجزه ، ويستجيدون فنه ويعجبون به أكثر من أقرانه من الرجاز ، فقـــد سئل الأصمعى أى الرجز أحسن ؟ فقال : رجز أبى النجم (٢) ولا تبعـد رواية الأغانى عن الأصمعى عن هذا المعنى .

وشهرة أبى النجم ترجع ألى أراجيزه الكثيرة ، وخاصة تلك الأرجوزة اللامية التى سنعود الى عرضها فى نهاية البحث الا أنه كان من شـــعراء البديهة والارتجال ، « وقد نظم أبو النجم عدة قصائد الا أن شهرته ترجع الى أراجيزه التى يتناول فيها الموضوعات البدوية (وصـــف الجمال والخيل والفهود) ، ويمدح الأمويين : عبد الملك وهشاما وعبد الملك بن بشر والوالى الحجاج ويسلكه النقاد فى زمرة الأربعة السباقين فى الرجز ، وهم الأغلب من بنى قبيلته ، وتميميا بالبصرة ، والعجـــاج وابنـــه رؤبة ويقولون انه يفضلهم فى النعت ، كما أنه أسبق منهم بديهة . ومهما يكن من أمر فان رؤبة هو الذى قال فى أرجوزة طويلة لأبى النجم أنشـــدها هشاما هذه أم الرجز » (٣) .

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى الأغانى ج ١٠ ص ١٥٧ المصدر السابق .

(٢) [illegible]ـــمعى : فحولة الشـــعراء . شرح وتحقيـــق د . محمد عبد المنعم خفاجى ـ طه الزينى . المطبعة المنبرية بالازهر .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى ص ٤٠٣ النسخة [illegible] اعداد . ابراهيم زكى خورشـــيد . أحمد الشـــنتناوى د . عبد الحميد يونس . ط الشعب .

وعند حديث بروكلمان عن فن الرجز يقـول : « ولكن ازدهار فن الرجز وانماره تم على يدى شاعرين نبغا بعد الاغلب · الاول سليل قبيلته – أى قبيلة الأغلب – أبو النجم الفضل بن قدامة العجلى ، الذى كان يجيد أيضا نظم القصائد ، وكان ينزل بسواد الكوفة فى موضع يقال له : الفرك أقطعه اياه هشام بن عبد الملك ، وتوفى فى أواخر عصر بنى امية (١) »

وينقل صاحب خزانة الأدب كلام الأصبهانى فى الأغانى ، وكلام ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ويقول : وهو أحد رجاز الاسلام المتقدمين فى الطبقة الأولى · قال أبو عمرو بن العلاء : هو أبلغ من العجاج فى النعت ، وقال ابن قتيبة فى طبقات الشعراء : كان أبو النجم ينزل سواد الكوفة (٢)

عصره :

وعصر أبى النجم هو العصر الأموى بكل ما فيه من ترف عقلى ، وحب لذلك اللون من الحياة التى عمت المجتمع الاسلامى بعد عصر الخلفاء الراشدين ، فقد عاش الأمويون حياة البذخ والنعيم الذى وصل اليهم من تلك الخيرات الكثيرة التى جاءتهم من شرق البلاد الاسلامية وغربها ، والتى جعلتهم ينعمون بسعة العيش ، ويسخرون تلك الأموال لتثبيت ملكهم ، وتوطيد سلطانهم ، وكان لا بد لهم ومرتع الحياة خصب ، ونعيمها موفور – من أن يغدقوا على الشعراء والمادحين سحائب كرمهم – وجزيل عطاياهم ، وأن يجعلوا المجتمع العربى يحس حيـــاة اللين والتنعم بعيدا فترات التقشف التى نادى بها الاســـلام ، وحرص عليها الرســـول ، وخلفاؤه الراشدون من بعده ·

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٢٦٢ الطبعة الرابعة دار المعارف نقله الى العربية د · عبد الحليم النجار ·

(٢) عبد القـــادر البغـــدادى · خزانة الأدب ، ولب لباب العرب تحقيق عبد السلام هارون جـ ١ ص ١٠٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ولعله يقصد بقوله : « طبقات الشعراء كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ·

(٧ – م)

ومن أجل ذلك نشأت فى هذا المجتمع تلك النزعات التى تواكب هذه الحياة ، وتساير تلك الأحداث ، وتمثل ذلك فى مجال الشعر والغناء، فقد استقطبت دور الغناء وأماكن اللهو التى نشأت فى حواضر البلاد الاسلامية شباب العرب الذين هرعوا اليها لقضاء أوقاتهم ، ولسد فراغهم ، وقد نشأ ــ أيضا ــ لون من الشعر يلبى حاجة المغنين ، ويتفق وتلك الألحان التى تخلب عقول الرادة ، ومحبى ذلك اللون الجديد من الحياة ، وكان لا بد أن تقوم نزعات مضادة تقاوم ذلك اللون من الحياة ، وتحث الناس على الزهد فيها ، والعودة الى ما قرره الاسلام من مبادىء ، ولم يحدث ذلك فقط بل وجدنا تيارا آخر معاكسا للتيار العابث اللاهى وقد تمثل ذلك فى شعر الغزلين العذريين من أمثال كثير وجميل ، هذه التيارات أذكت روح النقد ، وأحدثت صراعات بين الشعراء والنقاد زخرت بها المجالس الأدبية ، وتبلورت من خلالها بعض الآراء التى حرصت على تقويم ذلك الفن والنهوض به ٠

ان العصر الأموى حافل بتلك الصراعات المحتدمة ، والموجات المضطرمة التى جعلت المجتمع يعيش حياة فنية فيها كل ما يريد الانسان معرفته والوقوف عليه ، فيها اللهو وفيها الزهد فيها المجون وفيها العفاف فيها الفوضى وفيها الاستقامة ، وان المتتبع لتلك اللمحات الفنية التى كانت تعج بها المجالس الأدبية فى عصر بنى أمية يتبين له مدى ما أضفاه المشتغلون بالشعر والحريصون على نقده وتقويمه من تهذيب تقويم ٠

واذا كانت كتب الأدب قد سجلت كثيرا من الآراء ، وأطلعتنا على دور النقاد فى عصر بنى أمية فى توجيه الشعراء الوجهة الصالحة ، وبيان ما قد يكون الشاعر جانبه الصواب فى ذلك كما حدث عندما انشد عبد الله بن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان قصيدته التى يقول فيها :

ان الحوادث بالمدينة قد ... أوجعتنى وقرعن مروتيه
وجببتنى جب السنام ولم ... يتركن ريشا فى مناكبيه

فقال له عبد الملك أحسنت ، ولكنك خنثت فى « قوافيه » يريد استخدامه لقافيته التى أتى بها ، ولكن الشاعر يدافع عن وجهة نظره بقوله ماعدوت كتاب الله فقد قال الله تعالى « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانية » ولكن – الفرق جسيم بين أواخر هذه الفواصل فى النغم وفى الروح ، وبين قوافى ابن الرقيات ، وهو ان أراد أن يحتذى القرآن الا أنه لم يكن موفقا فى ذلك الاحتذاء » (١)

اذا كانوا قد صنعوا ذلك مع الشعراء فانهم أيضا كانوا يتتبعون الرجاز ، ويأخذون عليهم ما أخطاوا فيه ، ولقد صنعوا ذلك مع أبى النجم العجلى الذى عاش فى هذا الجو الحافل بالآراء النقدية ، والذى يعج بمجموعات هائلة من الشعراء فى كل الاتجاهات ، ومختلف الأغراض وقد كان أبو النجم يشارك الشعراء شعرهم ، ويتصدر مجموعة الرجاز الذين أوجدوا لهم مكانا بين الشعراء ، بل ويزحمونهم بمناكبهم ٠

الرجز والقصيد :

بدأ كارل بروكلمان حديثه عن الرجاز بقوله : « كان شعراء الجاهلية انما يستعملون الرجز فى أحوال البديهة والارتجال فحسب ، ولكن الرجز لقى فى العصر الأموى عناية خاصة عند كثير من الشعراء ، فأخذوا يذهبون به مذهب القصائد ، وعمدوا الى تخفيف ما تتركه بساطة العروض ، وسذاجته فى النفس من ملل بحلية فنية من الألفاظ الغريبة ، والعبارات البعيدة المآخذ ، بل ربما كان هناك وجه من الحق فى اتهام الراجزين الكبيرين اللذين يمثلان هذا المذهب الشعرى بأنهما عملا على زيادة ثروة المعجم العربى بما أضافا اليه من وضع صيغ جديدة ، وممن ذكروا أن الرجاز

---

(١) طه أحمد ابراهيم : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٣٧ ط دار الحكمة بيروت – لبنان ٠

كانوا يخترعون الفاظا جديدة فخر الدين الرازى فى كتابة « المحصـــول » كما نقله السيوطى فى المزهر » (١) .

وكلام بروكلمان يتطلب منا الوقـــوف عنـد كثير من عباراتـه التى اوردها ، فالرجز لم يستعمله جميع شعراء الجاهلية ، وانما اســتعمله بعضهم فقط ممن غلبت عليه البديهة والارتجـــال كامرىء القيس وطرفة ولبيد ، أما أولئك الشعراء الذين نقحوا شعرهم ، وقوموه فانهم لم يقولوا رجزا ، أو أن الرجز كان يمثل المرحلة التالية للسجع ، والسابقة للشعر ، فلم يقله فى العصر الجـــاهلى الا أولئك الشـــعراء المتقدمون . « ويرى الباحثون أن الشعر والموسيقى صنوان من اصل واحد نشأ معا ، ونميا معا ثم استقل الشعر عن الموسيقى ، وظلت الموسيقى محتاجة الى الشـعر فى الغناء ، غير أنهم قد اختلفوا فى نشأة اوزانه وقوافيه ، وأقرب ما يسوغ من آرائهم فى العقل أن العرب بدأوا بالنثر المرسل ، وتوصلوا منه الى السجع ومن السجع الى الرجز ، ومنه الى القصيد » (٢) .

فقد استعمل الرجز أولئك الشعراء الذى عاصروا نشـأة الشـــعر وتكوينه أما أولئك الشـــعراء الذين جاءوا بعدهم ، أو الذين غلبت عليهم نزعة التنقيح والتهذيب فانهم لم يقولوا رجزا ، فشعراء العصر الجاهلى لم يكونوا — جميعا — رجازا ، وكذلك شعراء العصر الأموى — أيضـــا — لم يكونوا جميعا ، أو لم يكن أكثرهم ممن يجيد فن الرجز ، كما نص عـلى ذلك أبو عمرو بن العلاء ، فقد قال الجاحظ : « وزعم أبو عمرو بن العـلاء أن الشعر فتح بامرىء القيس ، وختم بذى الرمة ، ومن الشعراء من يحكم القريض ، ولا يحسن من الرجز شيئا . ففى الجاهلية منهم زهير والنابغة

---

(١) كارل بروكلمان تاريـــخ الأدب العــــربى ج ١ ص ٢٢٥ ترجمـة عبد الحليم النجار ط دار المعارف « الطبعة الرابعة » .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ج ٧ مجلد ٨ ص ٣٨٦ المرجع السابق

والأعشى ، وأما من يجمعهما فامرؤ القيس ، وله شيء من الرجز ، وطرفة ، وله كمثل ذلك ، ولبيد وقد أكثر ، ومن الاسلاميين من لايقدر على الرجز ، وهو فى ذلك يجيد القريض كالفرزدق وجرير ، ومن يجمعهما كأبى النجم وحميد الأرقط والعمانى وبشار بن برد ، وأقل من هؤلاء من يحكم القصيد والأرجاز والخطب ، وكان الكميت والبعيث والطرماح شعراء خطباء ، وكان البعيث أخطبهم » (١) •

وأما قوله : « ان الرجاز عمدوا الى تخفيف ما تتركه بساطة العروض وســــذاجته فى النفس من ملل بحلية فنية من الألفاظ الغريبة » فهـذا ــ أيضا ــ فيه تهجم كبير على الفن الأول الذى عده العرب ديوان مفاخرهم وسجل مآثرهم ، ومحط انظارهم ، والمصور لآلامهم وآمالهم بل هو المعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، وما سمى الشعر بذلك الا لصــلته بالشــــعور والخيال « وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، صنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصــنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحســابهم ، وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون الا بغــــلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج » (٢) •

وكان العرب ولا يزالون يطربون للشعر الموزون المقفى ، ولم تستطع تلك النزعات التى تحاول التحرر من الوزن والقافية أن تطيح بالشــــعر العمودى ، أو تنزله من عرشه ، وتبعده عن الصدارة التى سيستمر محتلا اياها ما دام وجدان الشاعر ينبض بأحاسيس مجتمعه ، ويعبر عن آمال وآلام قومه •

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ • البيان والتبيين ج ٣ ص ١٢٧ ط دار الكتب العلمية ــ بيروت لبنان •
(٢) ابن رشيق القيروانى • العمدة ج ١ ص ٤٩ المصدر السابق •

ولقد استطاع الفحول من الشعراء أن يعبروا عن قضايا مجتمعهم بتلك الأوزان التى هزت مشاعر الجمهور ، ودفعته الى تشجيع أولئك الشعراء لمزيد من الاجادة والعطاء ، وقد أعطى الشعراء كثيرا فى شتى مناحى الحياة ليسعدوا مجتمعاتهم ، ويقدموا للانسان نغمات جميلة ، وأنغاما ممتعة ، ولم يحدث أن أصيب انسان بملل ساعة سماعه للشعر أو قراءته ٠

وهكذا يصدق قول ابن سلام الجمحى عن امرىء القيس انه لم يقل مالم يقله الشعراء ولكنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعه فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء ، والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى » (١) ٠

وبرو كلمان يرمى الرجاز بأنهم حاولوا أن يصرفوا الناس عن الشعر باستخدام الحلية الفنية التى تعتمد على الألفاظ الغريبة ٠ وهو كلام غريب حقا ، لأن المتتبع للرجاز لم يجد ذلك الحكم غالبا عليهم ٠ قد يكون هناك أراجيز كثيرة لاتمثل ٠ ذلك الحكم فاذا قرأنا أرجوزة أبى النجم العجلى التى يصف فيها فهود عبد الملك بن بشر بن مروان فاننا نرى فيها أصالة اللغة ، وقربها من الأفهام ، وبعدها عن الغريب من الكلام :

يقول أبو النجم :

جاء مطيع بمطاوعات	علمن أو قد كن معلمات
فهى ضوار من مضريات	تريك آماقا مخططات
سودا على الأشداق سائلات	تلوى بأذناب موقفات

---

(١) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٥٥ المصدر السابق ٠

حتى اذا كن على المجيـــرات	حيث تظـن الوحش آخـذات
قال : السـتن بنــازلات	فسكر الطرق بمطرقات (١)
ثم حدون الوحش مقبـلات	فـواثبتهن مشـمرات
فلو ترى التيوس مضـجعات	علمت أن ليس بســالمات
أقول اذا جئن مذبحـات	على الأكافين معـدلات (٢)

ما أقرب الموت من الحياة

لعل القارىء لهذه الأبيات يرى أن أبا النجم لم يستجلب لها كلمات غريبة ، وانما جاء وصفه للفهود رائقا ، وجميلا ، فقد جيء بهن الى ساحة الصيد مدربات عليه أو كن من قبل معلمات وتصـويره لمنظر الفهود الضارية ومنظر عيونها ولعابها السائل على أشداقها وحركة أذنابهـا التى تحركها استعدادا للانقضاض ويستمر أبو النجم في وصفه للفهود : حتى يأتى منظر التيوس المضجعات بعد الصيد ، والتى أوحت اليه بهذه الحقيقة التى يعلمها الجميع ، ما أقرب الموت من الحياة ٠٠

اذا قرأنا ذلك وتدبرناه أدركنا أن الرجز لا يعتمد دائما على استعمال الكلمات الغريبة ، وانما هو لون من التغيير فى الصـياغة تألفه النفس ، ويستريح له القلب ، ولذلك فان النقاد القدامى لم يعرضـوا للرجز الا على أنه قسيم الشعر ، ولون من ألوان التعبير نبغ فيـه بعض الشعراء ، وتناوله بعضهم تناولا محدودا ٠

وكانت العرب تطلق على ما عدا الرجز من الأوزان كلمة القصيد يدل على ذلك قول الأغلب العجلى ، وقد استنشده المغيرة بن شـعبة فقال له الأغلب :

---

(١) سكر الطرق : سدها ، وكل شيء سكر فقد سد ٠

(٢) « الاكافان » مثنى اكاف بضم الهمزة وكسرها وهو شبه الرحال والأقتاب ٠

أرجـــزا تريد أم قصـــيدا   لقد طلبت هينـا موجـــودا

ولقد فرق ابن رشيق بين الأرجوزة والقصـــيدة ، فالأرجوزة عنده تسمى قصيدة طالت أبياتها أو قصرت ، ولا تسمى القصيدة أرجوزة الا أن تكون من أحد أنواع الرجز التى ذكرت ، ولو كانت مصرعة الشطور كالذى قدمته ، فالقصيد يطلق على كل الرجز ، وليس الرجز مطلقا على كل قصيد أشبه الرجز فى الشطر (١) ٠

وأنواع الرجز التى ذكرها ابن رشيق هى :

١ ـ ما جا على مثال أرجوزة عبدة بن الطبيب :

باكرنى بســـحرة عـواذلى   وعذلهن خبـل من الخبل
يلمننى فى حاجة ذكرتها   فى عصر أزمان ودهر قد نسل

٢ ـ ما جاء على مثال قول الآخر :

القلب منها مستريح ســالم   والقلب منى جاهـد مجهـــود

٣ ـ والنوع الثالث ما جاء على مثال قول القائل :

قد هــاج قلبى منــزل   من أم عمـــرو مقفـــر

ثم يقول ابن رشيق بعد الكلام المتقدم :

« فهذه داخله فى القصيدة وليس يمتنع أيضا أن يســـمى ما كثرت بيوته من مشطور الرجز ومنهوكه قصيدة ، لأن اشـــتقاق القصـــيد من قصدت الى الشىء ، كان الشاعر قصد الى عملها على تلك الهيئة ، والرجز مقصود أيضا الى عمله كذلك » (٢) ٠

---

(١) ابن رشيق ٠ العمدة ج ١ ص ١٥٩ ـ المصدر السابق ٠
(٢) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٥٨ المصدر السابق ٠

ويستطرد ابن رشيق فى التدليل على ان الرجز لا يطلق على أى نوع صرعت جميع أبياته بل لابد أن يأتى على مثال الأنواع الثـــلاثة المتقدمة فيقول : « ومن المقصد ما ليس برجز وهم يســـمونه رجزا لتصريع جميع أبياته . وذلك هو مشطور السريع ، نحو قول الشاعر :

هل تعـــرف الدار بأعلى ذى القور
غيرها نـأج الريـــاح والمـــور
ودرست غـــير رماد مكفـــور
مكتئب اللـون مريح ممطـــور
وغير نؤى كبقـــايا الدعثـــور
أزمـان عينـــاء سرور المسرور
عيناء حـــوراء من العين الحـــور

يقول ابن رشيق « ان هذا على قول الجوهرى من الرجز فقد جعـل الجزء الآخر « مستفع لن » مفروق فيـــه الوتد ، فأسكن اللام ، لأن آخـر البيت لا يكون متحركا ، فخلفه مفعولات » (١) •

وينقل ابن رشـــيق قول ابن النحاس : « القريض عند أهـل اللغة العربية الشعر الذى ليس برجز ، يكون مشـــتقا من قرض الشىء أى القطع والتفرقة بين الأشياء ، كأنه ترك الرجز وقطعه من شـــعره ، ثم يقول ابن رشيق : « وكان أقصر ما صنعه القـــدماء من الرجز ما كان على جزئين نحو قول دريد بن الصمة يوم هوازن •

يا ليتنى فيهـــا جـذع أخب فيهـــا وأضـــع

حتى صنع بعض المتقدمين ــ أظنه ــ على بن يحيى ، أو يحيى بن على المنجم أرجوزة على جزء واحد وهى :

---

(١) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٥٨ ــ ١٥٩ المصدر السابق •

طيف ألم · بذي سلم   بعد العتم · يطوى الأكم
جاد بفم · وملتزم   فيه هضم · اذا يضم

ثم يقول ابن رشيق : « ان أول من ابتدع ذلك سلم الخاسر يقول فى قصيدة مدح بها موسى الهادى :

موسى المطر · غيث بكر   ثم انهمر · ألوى المرر
كم اعتسر · ثم ايتسر   وكم قدر · ثم غفر
عدل السير · باقى الأثر   خير وشر · نفع وضر
خير البشر · فرع مضر   بدر بدر · والمفتخر
لمن غبر

ثم يقول ابن رشيق · والجوهرى يسمى هذا النوع « المقطع » (١) ·

ويختتم ابن رشيق بحثه بالفرق بين الراجز والمقصد فيقول : «والراجز قل ما يقصد ، فان جمعهما كان نهاية نحو أبى النجم فانه كان يقصد »(٢)

هذه بعض صور للأراجيز التى استعملها العرب فى العصر الجاهلى والأموى والعصور التالية ، وكان الغرض من الأراجيز فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام الفخر ، « فقد كثرت الأراجيز فى المعارك الاسلامية الأولى · وفى وصف الفتوحات والحروب ، وكانت الأراجيز فى صدر الاسلام تقال فى الثناء على الله بما أبلى من ذلك ، ثم فى رثاء الشهداء ومدح الأفذاذ من المجاهدين ، ثم كثرت فى الشوق الى خوض المعارك الاسلامية ذيادا عن المجد والدين الى ما هو من لوازم العربى من الشوق والحنين الى الأحباب والأوطان » (٣) ·

---

(١) ابن رشيق العمدة ج ١ ص ١٦٠ المصدر السابق ·
(٢) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٦١ المصدر السابق ·
(٣) د· محمد عبد المنعم خفاجى · البناء الفنى للقصيدة العربية ص ٨٤ دار الطباعة المحمدية بالأزهر الشريف · القاهرة ·

الرجز واثراء اللغة :

ونقف ـ أيضا ـ عند ما أثير فى كلام بروكلمان من أن الرجز كان الهدف منه وضع صيغ جديدة لزيادة ثروة المعجم العربى · وكان هذه الكلمات التى جاءت على ألسنة الرجاز لم تكن مستعملة عند العرب فى عصر صدر الاسلام أو العصر الجاهلى ، فوضعها الرجاز فى العصر الاموى ، لاثراء المعجم اللغوى العربى ، واذا كان الأمر كذلك فلماذا استخدمها علما اللغة شواهد على قواعدها ، حقيقة أن العصر الأموى ، وأوائل العصر العباسى من العصور التى جعلها العلماء عصورا يستشهد بها على أصالة اللغة الا أنه يشتم من كلام بروكلمان رمى علماء اللغة بالوضع والتحريف ، أو بالزيادة والنقصان فى لغة العرب · ونحن ان آمنا بذلك فان علينا أن نحذف كل كلام قيل بعد العصر الجاهلى ، أو علينا أن نحذف من معجمنا اللغوى كل الألفاظ التى نطقها الرجاز ، لأنهم لا يؤمنون على سلامة اللغة والحفاظ على استعمال مفرداتها ومعنى ذلك ـ أيضا ـ أن الشواهد الكثيرة التى وردت فى كتب اللغة والنحو يجب حذفها ، لأنها وردت على ألسنة الرجاز ، أو قيلت فى عصر بنى أمية ، ونحن نعلم أن واضعى النحو ، وعلم اللغة كانوا من الأمانة بمكان بحيث لا يتطرق اليهم الشك مطلقا ، ولا يستطيع عاقل أن يطعن فى أمانتهم على اللغة ، وحرصهم على سلامتها الأمر الذى يجعلنا نرفض كل هذه الآراء المسمومة ، والأفكار المضللة ·

قد يكون هؤلاء الرجاز قاموا بحشد هائل لمفردات اللغة فى مقطعاتهم حتى يجعلوا الناس ـ جميعا ـ يعيشون مفردات لغتهم ، ولا ينفصلون عنها ، فهم يخشون على لغتهم من الضياع ، وعلى مفرداتها من الاندثار ، وعلى سامعيهم من البعد عن أصالة اللغة ، ونسيان أصولها ، ومن أجل ذلك استخدموا كثيرا من المفردات التى قد يظن البعض أنها غريبة ، أو أنها غريبة ، ولكنها مفهومة للسامعين فى عصرهم ، ولذلك فان السامعين للرجاز فى العصر الأموى لم ينفروا عن سماع هذه الأراجيز ، بل انهم كانوا

يستجيدونها ، ويطربون لسماعها ، واذا كان هذا شأن العامة من الناس فما بالك بالخاصة منهم ، فقد وجدنا المتخصصين فى اللغة وروايتها لا يحسون بغرابة لغة الرجاز ، ولو أحسوا بذلك لوقفوا فى وجوههم ، وجعلوهم يستخدمون مفردات يعرفها الجميع ، وسيأتى الحديث عن لامية أبى النجم العجلى التى قالها فى حضرة جمع عند هشام بن عبد الملك ، وهو يصفق بيديه استحسانا له ، واعجابا بوصفه على الرغم مما تعج به اللامية من مفردات لا مناص من اعترافنا فى عصرنا هذا بغرابتها ، وتحتاج الى استخدام المعاجم اللغوية فى بيان معناها ، وهذه قضية الشعر العربى فى العصور الأولى ، لأن هؤلاء الشعراء كانوا يستخدموا الفاظا يعبرون بها عن بيئتهم البدوية ، ويصفون باستخدامها ماعون بيتهم كما قال ابن الرومى عندما قيل له لماذا لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ، ونحن فى عصرنا هذا لن نستطيع العودة الى بيئة هؤلاء الشعراء والرجاز ، لنفهم ما قالوه دون عناء ، أو كد للفكر ، أو رجوع الى المعاجم اللغوية ، لنقف على أسرارها ، الا أن أولئك الذين أوتوا سعة فى علم ، وجانبا كبيرا من فهم لا يجدون عناء كبيرا فى التعرف على مفردات هذا الشعر ، وفهم معجمه ٠

ولعل ذلك هو الذى دفع الدكتور شوقى ضيف للخروج بنتيجة تقرر أن هذه الأراجيز كان الهدف منها تعليميا ، فقد قال : « قد بلغت هذه المتون صورتها المثالية عند رؤبة ، فهو النمو الأخير لهذا العمل التعليمى الذى أرادته المدرسة اللغوية من جهة ، والذى استجاب له الشعراء ، وخاصة الرجاز من جهة أخرى » (١) ٠

ثم يقول : « نحن اذن بازاء متون تؤلف لا بازاء أشعار تصاغ ، ويعبر بها أصحابها عن حاجتهم الوجدانية أو العقلية ، فقد تطور الشعر

---

(١) د٠ شوقى ضيف ٠ التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٣١٧ ط٠ دار المعارف ـ الطبعة السابقة ٠

العربى ، وأصبحت الارجوزة منذ حصه تولف من أجل حاجة المدرسة اللغوية ، وما تريده من الشواهد والأمثال ، ثم يقول أيضا : « والأرجوزة الأموية من هذه الناحية تعد أول شـعر تعليمى ظهر فى اللغة ، ولعل فى هذا ما يدل على المكان الذى ينبغى أن توضـع فيه ، أو الذى وضعت فيه فعلا ، فمكانها صحف العلماء من مثل يونس وأبى عمرو بن العـلاء يتعلمونها ويعلمونها الناس ، وينقلونها الى أذهانهم ، وينقشـونها فى عقولهم ، ليدلوا بها على مدى علمهم فى اللغة ، ومعرفتهم بألفاظها المستعملة والمهملة ، وهذا هو معنى أنها شعر تعليمى ، وهى ليسـت فى « الأعمال والأيام » كما صنع شاعر اليونان القديم « هزيود » ولا فى أحكام الصوم كما صنع أبان بن عبد الحميد فى العصر العباسى ، ولا فى النحـو كما صـنع ابن مالك الاندلسى فى ألفيته ، وانما هى فى اللغـة من حيث هى لغة » (١) ٠

وكلام الدكتور شوقى ضيف يجرد الرجز من العاطفة تماما ، ويسلكه فى سلك الشـعر التعليمى وهو كلام جد خطـير ، لأنه لا يلقى بالا لكل الأراجيز التى قيلت ، وعبر بها قائلوها عن عاطفتهم وأحاسيسهم ، ولعله من الأمور المقررة أن الانسان عندما يصيغ شعره أو رجزه فى أسـلوب تعليمى فانما يصيغة فى جو عادىء ، وبأفكار منظمة ، وقد يرجع اليه فى كثير من الأحيان بالتنقيح والتهذيب ، ولكننـا رأينا الرجاز ينشـدون رجزهم ارتجالا ، ويصـيغون عباراتهم لساعتها ، واذا كنا قد قدمنا أن الرجز كان يستخدم كثيرا فى مجال الفخر ، والانتصارات الحربيـة كما قال دريد بن الصمة :

ليتنى فيهـا جـذع أخب فيهـا وأضـع

فان الأمر يقتضينا أن نتحفظ كثيرا أمام تلك النتائج الخطيرة التى

---

(١) د٠ شوقى ضيف ــ التطور والتجديد فى الشعر الاموى ص ٣١٩ ــ ٣٢٠ المرجع السابق ٠

خرج بها، الدكتور شوقى ضيف عند عرضـــه لقضية الرجز فى العصر الأموى ، ولعل النماذج التى سنعرض لها فى رجز أبى النجم العجلى تجلى لنا عاطفته عند انشادها ، وخاصة تلك التى قيلت فى مجال الفخر ، أو التى حدثت بينه وبين العجاج ، والتى كانت تنشد لساعتها ٠

ولعل ذلك ــ أيضا ــ يجعلنا نسلم بما قيل من أن الأراجيز : « وهى تكاد تكون لازمة من اوازم العربى فى الجاهلية والاسلام ، فخرا ببطولة واقدام ، أو ترويعا لخصم ومقاتل ، أو تثبيتا لردئه ومظاهره ، الى ما تمثله بوزنها الخاص من ركضات الخيــــل ، وضربات السيوف ، واختلاجات الرماح ، وحفزات الهمم الا وأن يكون لها السبق دائما على الشعر فى هذه المقامات الى ما تتسم به من قصرها وقربها من البديهة والارتجال ، ولأنها تمثل دفعات شعورية قوية وبسيطة فى آن ، ولانحصار أغراضــــها فيما تثيره الحرب عند اشتعالها والاصطلاء بها انحصارا اشد ، والمتـــأمل فى خصائص ما صح من هذه الأراجيز يجد أنها تتسم أحيـانا بالاناقه اللفظية من الجناس كقول خالد رضى الله عنه فى وقعة مرج الروم :

نحن قتلنا نوذرا وشـــوذرا وقبله ما قـد قتلنـــا حيـدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا (١)

بعد هذه الجولة التى جلناها بين الرجز والقصيدة وما أثير خـلالها من قضايا حول اثراء الرجز للمعجم الشعرى . وما أبديناه ملاحظات حول هذه القضايا نعود الى أبى النجم العجلى نتتبع أخباره ، ونقف عندها، كى نتبين من خلالها ملامح شخصيته ٠

---

(١) د٠ محمد عبد المنعم خفاجى ٠ البناء الفنى للقصيدة العربيـــة ص ٧٢ ــ ٧٣ المرجع السابق ٠

بين أبي النجم وهشام بن عبد الملك :

يكاد المتحدثون عن أبي النجم يجمعون على أنه كان محظيا لدى هشام ابن عبد الملك ، وكان هشام يحب السماع الى أراجيزه ، وفكاهاته ، بل انه كان محببا الى قلب والده عبد الملك بن مروان حسب ما جاء في رواية الأغاني ، فقد ذكر أن أبا النجم كان عند عبد الملك بن مروان يوما ،وعنده جماعة من الشعراء فيهم الفرزدق ، وجارية واقفة على رأس عبد الملك تذب عنه ، فقال : من صبحني بقصيدة يفتخر فيهـــا وصدق فخره فله هـذه الجارية ، فقـــامُوا مِن ذلك ، ثم قالوا : ان أبا النجم يغلبنـــا بمقطعاته (يعنون الرجز) قال فاني لا أقول الا قصيدة ، فقال من ليلته قصيدته التي فخر فيها وهي :

علق الهوى بحبائل الشعثاء

ثم أصبح ، ودخل عليه ومعه الشعراء فأنشده حتى بلغ الى قوله :

منا الذي ربع (١) الجيوش لظهره   عشرون وهو يعـــد في الأحيـــاء

فقال له عبد الملك : قف . ان كنت صدقت في هذا البيت فلا نريد ما وراءه ، فقال الفرزدق وأنا أعرف منهم ستة عشر ، ومن ولد ولده أربعة كلهم قد ربع ، فقال عبد الملك ، أو سليمان : ولد ولده هم ولده . ادفع إليه الجارية يا غلام ، قال : فغلبهم يومئذ » (٢) .

ورواية ابن سلام الجمحي تذكر جزءا من القصيدة الســـابقة ، ثم تنسب الواقعة بين أبي النجم وسليمان بن عبد الملك ، وليس عبـد الملك ابن مروان . يقول ابن سلام : وكان أبو النجم ربما قصد فأجاد ، ولم يكن

---

(١) ربع القائد الجيش يربعهم أخذ ربع الغنيمة ، ويقال له أيضا المرباع وهو ما يأخذه الرئيس من المغنم كما جاء في مختار الصحاح .

(٢) أبو الفرج الأصبهاني : الاغاني ج ١٠ ص ١٥٣ ، ١٥٤ ــ المصدر السابق .

كفر [illegible]

[illegible]

[illegible] [illegible] بحد[illegible] [illegible]ـناء

والموت بعض حبـائل الأهـــواء

ليت الحسان اذا أصبن قلوبنـا

بالداء جدن بنعمـــة وشـــفاء

لشم عنـــدى بهجـــة وملاحة

وأحب بعض ملامحـــة الزلفــاء

وأرى البياض على النساء جهارة

والعتـــق تعـــرفه على الأدمـاء

والقلب فيـــه لكلهـــن مـــودة

الا لـــــكل دميــــــة زلاء

وبعد أن ينتهى أبو النجم من هــذه المقدمة الغزلية الرائقة التى ذكر فيها مدى تأثير الهوى على أصحابه وأنه يكون من بعض الأسباب التى [illegible] بالانسان ، وما ذكره من تمن للنعمة والشفاء من قبل الحسان بعد أن القلوب بداء الهوى ، ثم أخذ يصف ما تتمتع به البيضاء والسمراء من [illegible] وجمال ، وأن قلبه يحمل مودة لكلتيهما بعد هذه المقدمة قال مفتخرا :

فلئن فخـرت بوائل لقد ابتنت

يوم المـكارم فوق كل بنـــاء

ولئـــن خصصت بنى لجيم اننى

لأخص مكرمة وأهـــل غنـــاء

قوم اذا نزل القطيـــع تحملـوا

حسن الثنـاء وأعظم الأعبـــاء

ليســـت مجالســـنا تقر لقـــائل

زيغ الحديث ، ولا نثا الفحشـاء

ثم يقول ابن سلام : « وحدثنى أبى سلام ببعض هذا الحديث قال : اجتمع شعراء العرب عند سليمان بن عبد الملك ، فأمرهم أن يقول كل رجل

منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب ، ثم جعل لمن برز منهم جارية (سولدة) فأنشده وأنشده أبو النجم حتى أتى على قوله :

عدوا كمن ربع الجيوش لصلبه ... حرون ، وهو يعد في الأحياء

فقال سليمان : أشهد ان كنت صادقا انك لصاحب الجارية ، فقال أبو النجم سل الملأ عن ذلك يا أمير المؤمنين · قال الفرزدق أما أنا فأعرف منهم ستة عشر ، ومن ولد ولده أربعة كلهم قد ربع ، فقال سليمان : ولد ولده هم ولده · ادفع له الجارية » (١) ·

أما أخبار أبي النجم مع هشام بن عبد الملك فكثيرة من أرقها واندرها ذلك الخبر الذى تناقلته كتب الأدب ، وذكره كثير من الذين عنوا بأخبار أبي النجم ، فقد ذكره الأغاني بسنده قال : ورد أبو النجم على هشام بن عبدالملك في الشعراء ، فقال لهم هشام : صفوا لي ابلا فقطروها وأوردوها وأصدروها حتى كأنني أنظر اليها ، فأنشدوه ، وأنشده ابو النجم :

« الحمد لله الوهوب المجزل »

حتى بلغ الى ذكر الشمس فقال :

وهي على الأفق كعين

وأراد أن يقول : « الأحول » ثم ذكر حولة هشام فلم يتم البيت . وأرتج عليه ، فقال هشام : أجز البيت ، فقال : « كعين الأحول ، وأتم القصيدة ، فأمر هشام فوجىء عنقه ، وأخرج من الرضافة ، وقال لصاحب شرطته : ياربيع اياك وأن أرى هذا ! » (٢)

---

(١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٤٩ ــ ٧٥١ . المصدر السابق ·

(٢) أبو الفرج الاصبهاني · الاغاني ج ١٠ ص ١٥٥ ــ المصدر السابق .

(٨ ــ م)

ولكن هشاما [illegible] غضب على أبى النجم ، وأخرجه من مجلسه ، لأنه أساء التعبير عندما ذكر كلمة « الأحول » التى جاءت فى وصفه للشمس ، وهو يعلم أن هشاما به حول ما يلبث هشـــام أن يعطف عليه ، ويطرب لنادرته ، ويثيبه على رجزه ، فقد ذكر صـاحب الأغانى أن أبا النجم عندما خرج من مجلس هشام · كلم وجوه الناس صاحب الشرطة أن يقره ففعل فكان – أى أبو النجم – يصيب من فضـول أطعمــة الناس ، ويأوى الى المساجد · يقول صاحب الأغانى : وقال الزبير فى خبره قال أبو النجم : ولم يكن أحد بالرصافة يضيف الا سليم بن كيســان الكلبى وعمرو بن بسطام التغلبى ، فكنت اتى سليما ، فأتغدى عنده ، وآتى عمرا ، فأتعشى عنده ، وآتى المسجد فأبيت فيه · قال : فاهتم هشـام ليلة ، وأمسى لقس النفس ، وأراد محدثا يحدثه ، فقال لخادم له : أبغنى محدثا أعرابيا أهوج شاعرا يروى الشعر ، فخرج الخادم الى المســجد فاذا هو بأبى النجم ، فضربه برجله ، وقال له : قم أجب أمير المؤمنين · قال : انى رجل أعرابى غريب · قال : اياك أبغى ، فهل تروى الشعر ؟ قال : نعم وأقوله · فاقبل به حتى ادخله القصر ، وأغلق البـاب ، قال : فايقن بالشر ، ثم مضى به فادخله على هشام فى بيت صغير ، بينه وبين نسائه ستر رقيق ، والشمع بين يديه تزهر ، فلما دخل قال له هشام : أبو النجم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين · طريدك ، قال : اجلس فسأله وقال له : أين كنت تأوى ، ومن كان ينزلك ؟ فأخبره الخبر قال : وكيف اجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدى عند هذا ، وأتعشى عند هذا · قال وأين كنت تبيت ؟ قال : فى المسجد حيث وجدنى رسولك · قال : وما لك من الولد والمال ؟ قال : أما المال فلا مال لى ، وأما الولد فلى ثلاث بنات ، وبنى يقال له شيبان ، فقـــال : هل زوجت من بناتك أحدا ؟ قال : نعم · زوجت اثنتين ، وبقيت واحـــدة تجمز فى أبياتنا كأنها نعـــامة ، قال : وما وصيت به الأولى ؟ وكانت تســـمى برة – بالراء – فقال :

أوصـــيت من برة قلبـا حرا … بالكلب خيرا والحمـــاة شرا

لا تسامى ضربا لها وجرا حتى ترى حلــو الحيــــاة مرا
وان كستك ذهبــــا ودرا والحى عميهــم بشر طـــرا

فضحك هشام ، وقال : فما قلت للأخرى ؟ قال قلت :

سبى الحماة وابهتى عليها وان دنت فازدلفى اليهــــــا
وأوجعى بالفهــر ركبتيها ومرفقيهـــا واضربى جنبيهـــا
وظاهرى النذر لها عليهـا لا تخبــرى الدهر به ابنتيهــا

قال فضحك هشام حتى بدت نواجذه ، وسقط على قفاه ، فقال : ويحك ! ما هذه وصية يعقوب ولده ! فقال : وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين قال : فما قلت للثالثة ؟ قال : قلت :

أوصيك ياابنتى فانى ذاهب أوصــيك أن تحمــدك القرائب
والجاروالضيف الكريمالساغب لا يرجع المسكين وهو خائب
ولاتنى أظفـــارك الســلاعب منهن فى وجــه الحماة كاتب
والزوج ان الزوج بئس الصاحب

قال : فكيف قلت لها هــــذا ولم تتزوج ؟ وأى شىء قلت فى تأخـير تزويجها ؟ قال : قلت فيها :

كأن ظلامة أخت شــيبان يتيمـــة ووالداها حيـــــان
الرأس قمــل كله وصئبان وليس فى الساقين الا خيطـان
تلك التى يفزع منها الشيطان

قال : فضحك هشام حتى ضحك النساء لضحكه ، وقال للخصى : كم بقى من نفقتك ؟ قال ثلاثمائة دينار . قال : أعطه اياها ليجعلها فى رجل ظلامة مكان الخيطين » (١) .

---

(١) أبو الفرج الاصبهانى . الاغانى ج ١٠ ص ١٥٦ ــ ١٥٩ ــ المصدر السابق .

ولعل القارىء لوصايا أبى النجم المتقدمة يدرك أنه ابتكرها لساعتها كى يسرى بها على هشام بن عبد الملك ، فهى لا تعدو أن تكون نوادر لطيفة وأقوالا تساق فى مجالس التفكهة ، وحب الاضحاك ، ولقد اتخذ من بناته الثلاث مجالا لنوادره ، لأن أمير المؤمنين سأله عنهن وأراد معرفة أخبارهن ، ولعل هذه الوصايا تطلعنا على لون من الرجز لم يستخدم لحشد عدد من الألفاظ الغريبة ، أو الكلمات المعجمية ، وانما أتى عفو الخاطر دون تكلف أو تعمل ٠

وهكذا يأخذ أبو النجم مكانه مرة أخرى فى مجلس هشام بن عبدالملك ليسرى عنه ،وينال عطفه ورفده ، قالأبو عمرو الشيبانى قال ابن كناسة :

« قال هشام بن عبد الملك لأبى النجم : يا أبا النجم حدثنى ٠ قال : عنى أو عن غيرى ؟ قال لا بل عنك ٠ قال : انى لما كبرت عرض لى البول ، فوضعت عند رجلى شيئا أبول فيه ، فقمت من الليـــل أبول ، فخرج منى صوت ، فتشددت ، ثم عدت فخرج منى صوت آخر ، فأويت الى فراشى فقلت يا أم الخيار : هل سمعت شيئا ؟ فقالت : لا والله ولا واحدة منهما : فضحك ــ قال : وأم الخيار التى يعنى بقوله :

قد أصبحت أم الخيــار تدعى   على ذنبــا كله لم أصـــنع

وهى أرجوزة طويلة » (١) ٠

فهل ترى رفعا للكلفة بينه وبين هشام بن عبد الملك أكثر من ذلك ؟ ولم يكن أبو النجم فكها فقط ولا مادحا لهشام فحسب ، بل انه كان يجيد الوصف ، وكانت بديهته السريعة تسعفه فى كل وقت ٠ يروى ابن قتيبة فيقول : « وحدثنى عبد الرحمن عن عمه قال : « كان هشام بن عبد الملك مسبقا لا يكاد يسبق ، فسبق (ذات يوم) على فرس له أنثى ، وصلى على

---

(١) أبو الفرج الاصبهانى : الاغانى جـ ١٠ ص ١٥٩ ــ المصدر السابق

إبنها ، ففرح ، وقال : على بالمسر. قال يو النجم فدعينا ، فقيل لنا : قولوا فى هذه الفرس السابقة وفى ابنها ، فقال أصحاب القصيد : أنظرنا حتى نقول ، وقلت فى مقامى ذلك هل لك فى رجل ينقذك اذ استنسؤوك؟ قال : هاته فقلت من ساعتى :

أشاع للغراء فينا ذكرها
قوائم عوج أطعن أمرها
وما نسينا بالطريق مهرها
حين نقيس قدره وقدرها
وصبره اذ أوعثا وصبرها
والماء يعلو نحره ونحرها
ملبونة شد المليك أسرها
أسفلها وبطنها وظهرها
قد كاد هاديها يكون شطرها
لاتأخذ الحلبة الا سؤرها (٢)

فانت ترى أن أبا النجم يضرب فى كل ميدان ، ويتنقل بشعره ورجزه فى كل مكان ، تشد أزره ذاكرة قوية ، وبديهة سريعة ، ولغة تسعفه ، وملكة تتحفه ، واعتداد بنفسه ، وثقة بفنه ، يضعانه فى درجة عالية ، ليقدم الرجاز ، ويعترف له بالسبق الشعراء ٠

بين أبى النجم والعجاج :

لقد كان العجاج من الرجاز الذين أوتوا قدرة فائقة على الرجز حتى ان المؤرخين يضعونه — أحيانا — سابقا على أبى النجم ، ويقولون انه وأبا

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٠٩ — ٦١٠ تحقيق وشرح احمد شاكر ط٠ دار التراث العربى ٠

النجم والأغلب العجلى انتصفا للرجاز من الشعراء ، والعجاج : « عبد بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حنى بن ربيعة سعد بن مالك ابن زيد مناة بن تميم » (١) ٠

وكان العجاج معاصرا لأبى النجم العجلى ، وكانا يتلاحيان أحيانا ، ولكن العجاج كان يعترف لأبى النجم بالسبق والفضل ، وكان رؤبة يقول عن أبى النجم ، انه رجاز العرب ، فقد قال فتيان من عجل لأبى النجم : « هذا رؤبة بالمربد يجلس فيسمع شعره ، وينشد الناس ، ويجتمع اليه فتيان من بنى تميم، فما يمنعك من ذلك ؟ قال : أو تحبون هذا ؟ قالوا : نعم ٠ قال : فأتونى بعس من نبيد فأتوه به فشربه ، ثم نهض وقال :

اذا اصطحبت أربعا عرفتنى ثم تجشمت الذى جشمتنى

فلما رآه رؤبة أعظمه ، وقام له عن مكانه ، وقال : هذا رجاز العرب وسألوه أن ينشدهم فأنشدهم :

الحمد لله الوهوب المجزل

وكان اذا أنشد أزبد ووحش بثيابه (أى رمى بها) ، وكان من أحسن الناس انشادا فلما فرغ منها قال رؤبة : هذه أم الرجز ، ثم قال : يا أبا النجم قد قربت مرعاها اذ جعلتها بين رجل وابنه ، يرهم عليه رؤبة حيث قال :

تبقلت من أول التبقل بين رماحى مالك ونهشل

أنه يريد نهشل بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، فقال له أبو النجم : هيهات : الكمر تشابه ٠ أى انى انما اريد مالك بن ضبيعة

---

(١) ابن سلام الجمحى ٠ طبقات فحول الشعراء جـ ٢ ص ٧٣٨ المصدر السابق ٠

ابن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر وائل ، ونهشل قبيلة من ربيعة » (١) .

واذا كان رؤبة قد اعترف لأبي النجم بالسبق ، وانه رجاز العرب فما ذلك الا أنه كان يبذهم في الرجز ، ويتغلب عليهم في الانشاد ، وكان ذكيا في اختيار المواقف التي تجعله يكسب الجولة من الجميع ، وقد كان العجاج وابو النجم يحدث بينهما تهاج ، وكان العجاج لا يستطيع الثبات أمام أبي النجم ، فقد روى صاحب الأغاني من ذلك أخبـــارا منها قوله منسوبا : « خرج العجاج متحفلا عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد ، والناس يجتمعون فانشدهم قوله :

قد جبر الدين الاله فجبر

فذكر فيها ربيعة ، وهجاهم ، فجاء رجل من بكر وائل الى أبي النجم وهو في بيته فقال له : أنت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس !! قال : صف لي حاله وزيه الذي هو فيه ، فوصف له ، فقال أبغني جملاطحانا قد أكثر عليه من الهناء (أى القطران) فجاء بالجمل اليه ، فاخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها واتزر بالأخرى ، وركب الجمل ، ودفع خطامه الى من يقوده ، فانطلق حتى أتى المربد ، فلما دنا من العجاج قال : اخلع خطامه فخلعه وأنشد :

تذكر القلب وجهلا ما ذكر

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها ، ويتباعد عنه العجـــاج لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران حتى اذا بلغ الى قوله :

شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني الأغاني ج ١٠ ص ١٥١ المصدر السابق

تعلق الناس هذا البيت ، وهرب العجاج عنه ، (١)

ويروى ابن قتيبه هذا الخبر – أيضا – دون تلك الزيادات الكثيرة التى أوردها الأصبهانى فيقول : « وراجز العجاج فخرج العجـاج على ناقة له (كوماء) وعليه ثياب حسـان ، وخرج أبو النجم على جمـل مهنوء ، وعليه عباءة ، فأنشد العجاج :

قد جبر الدين الا له فجبر

ثم أنشد أبو النجم :

تذكر القلب وجهلا ما ذكر

حتى بلغ الى قوله :

انى وكل شـــاعر من البشر	شـيطانه أنثى وشيطانى ذكر
فما سآنى شـاعر الا استتر	فعل نجوم الليل عاين القمر
عشى تميم ، واصغرى فيمن صغر	وحاورى الذل وأعطى من عشر
أمـرى الأنثى عليـك واذكر	فانما يشرب من ذل السـؤر

وارضى باحلابة وطب قد حزر

فلما فرغ من انشاده حمل جمله على ناقة العجاج يريدها ، فضحك الناس ، وانصرفوا وهم ينشدون قوله :

شيطانه أنثى وشيطانى ذكر (٢)

وهكذا يتغلب أبو النجم على منافسيه من الشـعراء والرجاز بذكائه وسرعة بديهته .

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى . الأغانى ج ١٠ ص ١٥٢ ، ١٥٣ المصدر السابق .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٠٧ – ٦٠٨ المصـدر السابق .

ما أخذ على أبي النجم :

اذا كان أبو النجم قد برز فى مجالى الشعر والرجز ، وكان صاحب بديهة سريعة أمدته بفيضها فى كثير من الظروف الحرجة ، بل جعلت غيره من الشعراء والجالسين يحنق عليه ويحسده على تلك القريحة الوقادة والحافظة الملهمة فان رجلاهذا شأنه لابد أن يجد منافسوه عنده ما يأخذونه عليه ، فقد جلس هشام بن عبد الملك يوما فى صحن داره ، وفتح بابها ، وأذن للناس اذنا عاما قد خلت العامة فأخذوا مجالسهم من الدار ، وجلس تجاه وجهه أسود مقنع بكسائه ، وأمر أبا النجم أن ينشده ، وكان مشغوفا بشعره فأنشده أرجوزته اللامية حتى اذا بلغ قوله فى وصف الابل بالغزر ذكر ضرعها فقال : « كالسقاء المسمل » فصاح الأسود : أتاك والله بها يا أمير المؤمنين نزرا غير غزر ، قد استجفت ضروعها ، وذهبت ألبانها حين شبهها بالمسمل . قال : فكيف ينبغى أن يقول ؟ قال كما قلت ، وأنشد :

كنا اذا عام ألحت أزمه	وجعل المطحون تغلو قيمه
لا يشبع المرضع منه درهمه	جادت بمطحون لها لا تأجمه
لاينفخ البطن ولا يورمه	تطبخها دروعها وتأدمه

فقال هشام : من أنت ويلك ؟ قال : أنا أبو نعامة مولى بنى سعد »(١)

واذا كان الشعراء والرجاز كانوا له بالمرصاد فان النقاد ـ أيضا ـ لم ينوا فى تتبع سقطاته والتماس هفواته التى قد تكون سرعة البديهة والارتجال لهما أثر كبير فيهما ، ولكنهم على أية حال عابوا عليه أشياء منها :

١ ـ أخذوا عليه وصفه للفرس ، وقد أجراه فى حلبة فقل :

تسبح أخراه ويطفو أوله

(١) المرزبانى ، الموشح ص ٢١٤ .

قال الأصمعي : أخطأ في هذا ، لأنه اذا سبح أخراه كان حمار الكساح أسرع منه ، قال الأصمعي : وحدثني أبي أنه رأى فرسه هذا فقومه بسبعين درهما ، ثم يقول صاحب الأغاني ، وانما بوصف الجواد بانه تسبح أولاه ، وتلحق رجلاه ، قال : « وخير عدو الذكور أن تشرف ، وخير عدو الاناث أن تنبسط وتصغى كعدو الذئب » (١)

٢ ـ وقد اخذ الأصمعي ـ أيضا ـ على أبي النجم وصفه لورود الابل بقوله :

وهي على عذب روى المنهل دحل أبي المرقال خير الأوحل
من نحت عاد في الزمان الأول

قال الأصمعي : الدحل لا تورده الابل انما توردہ الركايا ، (٢) وقد عيب بهذا ، وعيب بقوله في البيت الذي يليه ، : انهذا الرحل من نحت عاد قال : والرحلان لا تحفر ، ولا تنحت ، انما هي خروق وشعاب في الأرض والجبال ، لا تصيبها الشمس ، فتبقى فيها المياه ، وهي هوة في الأرض يضيق فمها ، ثم يتسع فيدخلها ماء السماء » (٣) .

ونقد الأصمعي في الموضعين السابقين يعتمد على فهمه للغة التي يتحدث بها أبو النجم ، ويخاطب سامعيه ، وهذا رد أيضا على من يقول : ان الرجاز اخترعوا ألفاظا وكلمات لم تكن مستعملة أو أنها غريبة على سماع المخاطبين رغبة في اثراء المعجم العربي .

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني . الأغاني ج ١٠ ص ١٦١ المصدر السابق.
وقد ورد ذلك النقد في الشعر والشعراء ـ أيضا .
(٢) الركايا جمع ركية : البئر .
(٣) أبو الفرج الأصبهاني ج ١٠ ص ١٦١ المصدر السابق .

٣ ـ ومما اخذ عليه أيضا قوله يصف بعيرا :

أخنس في مثل الكظام مخطمه

يقول ابن قتيبه والأخنس : القصير المشـافر ، وهذا عيب ، وانمـا توصف المشافر بالسبوطة ـ أى الاستواء ـ والكظام : القنى التى يجـرى فيها الماء ، (١) ٠

٤ ـ واخذ عليه أيضا قوله فى وصف الابل :

جاءت تسامى فى الرعيـل الأول   والظل عن أخفافها لم يفضـل

يقول ابن قتيبة ٠٠ ولم يحسن فى وصف ورود الابل ذكر أنها وردت فى الهاجرة ، والعادة فى هذا أن توصـــف بالورود غلسا ، والماء بارد كقول الآخر :

فوردت قبل الصباح الفاتق

وكقول لبيد :

ان من وردى تغليس النهـــل

وكقول الآخر :

فوردن قبل تبين الألوان (٢)

٥ ـ واخذ عليه قوله فى وصف راعى الابل

صلب العصا جاف عن التغزل

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦١٢ المصدر السابق ٠
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦١٢ ـ ٦١٣ المصـــدر السابق ٠

قال الأصمعي : لا يوصف راعي الابل بصلابة العصا ، والجيد قول الراعي :

ضعيف العصا بادي العـــروق ترى له   عليها اذا ما أمحل الناس اصبعا (١)

وهكذا يسهم النقاد ـ أيضا ـ بجهدهم في تقويم الرجز ، كما أسهموا في تقويم الشعر ، لأن الرجز قسيم الشعر ، فلا بد أن يكون للرجز نصيب في كتبهم وأخبارهم ، فابن سلام الجمحي ، وابن قتيبة ، والأصـــبهاني يفردون جانبا من كتبهم للحديث عن الرجاز الذين كانوا يزحمون الشعراء بمناكبهم ، وكذلك صنع الأصمعي في فحولة الشعراء والمرزباني في الموشح ولم يفت عبد القاهر الجرجاني أن يكتب في طرائفه الأدبية أهم أرجـوزة لأبي النجم العجلي ، وهي اللامية التي أعجب بها هشـــام بن عبد الملك ، وسماها رؤبة بن العجاج أم الرجز .

ولقد كنت أود لو أن الوقت يســـمح أن أعيد ـ في مجلتنا الغراء ـ نشر هذه الأرجوزة والتعليق عليها ، حتى يتعرف القارىء على ما حوته تلك الأرجوز من معان رائقة ، وألفاظ نادرة ولكنني أرشد القارىء الى أن هذه الأرجوزة منشورة بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثامن سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد والمجلة موجودة بقسم الدوريات بدار الكتب المصرية ، وقد قام الأســـتاذ عبد العزيز الميمني بتحقيق « الطرائف الأدبية » ونشرها سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف ، واللامية منشورة ضمن « الطرائف الأدبية » فمن أراد الرجوع اليها فليطلبها من دار الكتب المصرية ـ أيضا ـ

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦١٣ المصدر السابق .

وبعد : فهذه جولة حول شخصية أبى النجم العجلى ، بل حول فن الرجز الذى كان ثروة هائلة أثرت الشعر العربى ، وعقدت آصرة قوية بين لغة الحديث اليومية ، وبين اللغة العربية الأصيلة ، وجعلت الناس لا ينفرون من استخدام ألفاظ قد يظن فى العصور المتأخرة أنها ألفاظ اندثرت ، أو عفى عليها الزمان ، وغطاها النسيان بستار كثيف من الضباب فلا نكاد نتبين معالمها الا بالرجوع الى المعاجم اللغوية ٠

ولعل هذا البحث يكون قد أثار بعض الأفكار التى تهم القارىء ، وتطلعه على شىء هو فى حاجة اليه ، بل لعله يثير حمية بعض اخواننا المشتغلين بعلوم اللغة فيحاولون كشف الجوانب اللغوية التى جاءت فى أراجيز العصر الأموى ، ولم تكن مستعملة فى العصر الجاهلى وبيان مدى التطور اللغوى فى هذا الفن الشعرى الأصيل ٠

ولعل هذا البحث أيضا ـ يدفع بعض اخواننا المشتغلين بالدراسات الأدبية فيحاولون جمع شعر أبى النجم العجلى ورجزه ، ووضع دراسات نقدية حولهما ٠ انهم ان فعلوا ذلك خرجوا بنتاج ممتع ٠

وفقنا الله جميعا لما فيه الخير ، وهدانا سواء السبيل ٠

د ٠ عبد المنعم احمد يونس

مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية

بالمنوفية

وصف الحمى

بين المتنبي وعبد الصمد بن المعذل

دكتور عبد المنعم أحمد يونس

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحابته ، ومن أهتدى بهديهم ، وسلك نهجهم الى يوم الدين .

وبعــد ...

فان فن الوصف نشأ منذ نشأة الشعر . لأن الشعر تعبير عما يجيش به صدر الشاعر من أحاسيس ، ولا يمكن التعبير عن هذه الأحاسيس الا بوصفها ، وتجلية صورتها ، حتى يعايش القارىء أو السامع ما يعتمل فى صدر الشاعر ، وما يدور بخلد الفنان .

لقد حفلت الآداب قديما وحديثا بهذا الفن ، وجعلته فى مقدمة الأغراض التى يتناولها الشاعر أو الأديب : حتى أن أرسطو عد المحاكاة ضرورية فى أجناس الشعر ، لأن المحاكاة عنده « تستلزم أن يكون الشاعر موضوعيا ، وعن طريق تصويره الصادق لمواقف الانسان تعمل المحاكاة عملها » (١) ، فالمحاكاة اذن تعين الشاعر على تصويره الصادق لما يراه من مواقف الانسان ، بل ان أرسطو ينص على أن « أقدر الشعراء على المحاكاة هم أولا من يستطيعون مشاركة أشخاصهم فى مشاعرهم ، والتكيف مع أحوالهم ، ثم هؤلاء

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٥٢ ط دار مطابع الشعب ١٩٦٤ م .

الذين عانوا التجربة الأدبية نفسها ، والحق أن أقدر الشـــعراء تعبيرا عن الايحاء أولئك الذين تملكهم العواطف ، وأقـــدرهم تعبـــيرا عن الغضب من استطاع أن يملأ بالغضب قلبه ، ولهذا فان فن الشـــعر من شأن الموهوبين بطرة « اى الذين يتمثلون المواقف ، ويتكيفون معها » أو من شأن ذوى العواطف الجياشة « أى الـــذين يعبرون عن تجاربهم الذاتية » ، فالأولون أكثر تهيئا للتكيف مع أحـــــوال أشخاصهم ، والآخرون قديرون على الاستسلام لنشوة الجنون الشعرية » (١) .

واذا كان الوصف ضروريا لابراز ما يدور بخلد الشـــاعر ، فان العرب كانوا سباقين الى فن الوصف ، بل ان امرأ القيس عد أمـــير الشعراء الوصافين ، لأنه استطاع رسم صوره وتلوينها تلوينا دقيقا مبدعا ، بل ان زهير بن أبى سلمى يعـــــد اماما فى هذا الفن ، لأنه استخدم اللغة استخداما قادرا ، فقد كان « يعنى بتصويره عناية شديدة ، وكان ما يزال يحتال على احكامه تارة بتفصيله وتارة بتلوينه ، وأخرى باستخدام العبارات التى تعطيه قوة المنظور ، وكأنه كان يعـــرف فى دقة الكلمة التى تلائم وصفه معرفة الصانع المـــاهر الـــذى اطلع على كثير من أسرار فنه ، والأدوات التى يستخدمها فى صناعته » (٢) .

واذا كان الشعراء منذ فتق لهم امرؤ القيس فن الشعر يعنـــون بالوصف ، ويتوسمون دروبه ومنعطفاته ، فقد وصفوا الصحراء والخيل والصيد والطرد والحل والترحال ، ووصفوا الحيـــوان والنبـــات

(١) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٥٤ ط دار مطابع الشعب سنة ١٩٦٤ م .

(٢) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٢٧ ط دار المعارف الطبعة العاشرة .

والانسان ، بل وأظهروا قدرتهم على تفاعلهم مع كل هذه الموصوفات، وما زالوا يحتالون عليها تعاونهم في ذلك لغة قادرة رقيقة شاعرة ، ومقدرة فنية رائدة ، واستمروا كذلك في مختلف العصور ، حتى عصرنا الحديث فانني أقدم اليوم للقارئ لونا من ألوان الوصف ، قد يكون فريدا في نوعه عجيبا في تصويره ، يتمثل ذلك في وصف الحمى بين المتنبى وعبد الصمد بن المعذل ، وهما الشاعران اللذان قدما وصفا دقيقا لهذا اللون من المرض الذى يصيب الانسان ، فينفذ الى عظامه ويجعله يهذو بكلمات لا مدلول لها ، بل ان هذا المرض متقلب الظروف ، لا يثبت على حال بعينها ، فبينما يحس الانسان أنه قد شفى منه ، وبرئ من ألمه اذا به يعاوده فترتعد فرائصه ، وتخور قواه ، وكأنه يصارع فارسا عاتيا ، وعدوا لدودا ، ولن أستطرد في الحديث عن هذا المرض ، لأنني أريد أن أقدم القارئ صورته من خلال ما كتب عنه هذان الشاعران اللذان عاشا التجربة ، وقدماها لعشاق فنهما نتاجا ينم عن تجربة شعورية لكل منهما .

١ — عبد الصمد بن المعذل (١) :

لعل كثيرا من الدارسين لا يعلمون الكثير عن هذه الشخصية التى سبقت المتنبى في وصف الحمى ، على الرغم من أن قصيدة المتنبى يعلم عنها الدارسون الكثير ، فعبد الصمد بن المعذل من شعراء العصر

---

(١) ترجمته في فوات الوفيات جـ ١ / ٥٧٥ ، وفي الأغانى ط التراث جـ ٢٢٦/١٣ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧٦ ط دار المعارف وله خبر في الوساطة ص ١٢١ ط الحلبى ، وديوان المعانى جـ ١ ، ١٥/٢ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ط القدسى القاهرة .

العباسى سبق المتنبى بحوالى مائة عام ، فقد قال عنه صاحب فوات الوفيات : « عبد الصمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم بن البحترى ابن المختار كان شاعرا فصيحا من شعراء الدولة العباسية ، بصرى المولد والمنشأ ، وكان هجاء خبيث اللسان شديد العارضة لايسلم منه من مدحه من الهجو فضلا عن غيره • توفى فى حدود الأربعين ومائتين » (١) •

وقد ذكر صاحب فوات الوفيات أن عبد الصمد كان له أخ يسمى أحمد بن المعذل ، وكانا على طرفى نقيض •

أما صاحب الأغانى فانه يذكر له نسبا مطولا على عادته أوصله به الى بكر بن وائل ، ثم يقول عنه « ويكنى عبد الصمد أبا القاسم ، وأمه أم ولد يقال لها : الزرقاء ، شاعر فصيح من شعراء الدولة العباسية بصرى المولد والمنشأ ، وكان هجاء خبيث اللسان شديد العارضة ، وكان أخوه أحمد أيضا شاعرا الا أنه كان عفيفا ذا مروءة ودين وتقدم فى المعتزلة ، وله جاه واسع فى بلده ، وعند سلطانه لا يقاربه فيه فكان يحسده فيهجوه فيحلم عنه ، وعبد الصمد أشعرهما » (٢) •

لقد اتفق صاحب الأغانى وصاحب فوات الوفيات على أن عبد الصمد كان هجاء خبيث اللسان ، واتفقا أيضا على أن أخاه أحمد

---

(١) محمد بن شاكر الكتبى • فوات الوفيات ج ١ ص ٥٧٥ ط مكتبة النهضة المصرية • تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد •

(٢) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ٢٢٦ ط التر المصورة عن ط دار الكتب المصرية •

كان شاعرا ، فهو اذن من بيئة شاعرة ، حتى أن صاحب الأغانى يقــول « وكان أبو عبد الصمد المعذل » وجده « غيلان » شاعرين ، وقد روى عنهما شىء من الأخبار واللغة والحديث ليس بكثير » ، ثم يقــــول : والمعذل بن غيلان هو الذى يقول :

الى الله أشــكو لا الى الناس اننى
أرى صالح الأعمال لا أســتطيعها
أرى خلة فى أخــوة وأقارب
وذى رحم ما كان مثلى يضــيعها
فلو ســاعدنى فى المكــارم قدرة
لفاض عليهم بالنــوال ربيعهــا

وهو القائل :

ولست بميال الى جانب الغنى
اذا كانت العلياء فى جانب الفقر
وانى لصــــبار على ما ينوبنى
وحسبك أن الله أثنى على الصبر (١)

ومن يقرأ شعر عبد الصمد بن المعذل الذى ورد فى الأغـــانى وغيره يرى أنه يسير فى اتجاهات ثلاثة ، أو يمثل أغراضا ثلاثة يأتى الهجاء فى مقدمتها ، فقد كان هذا الشاعر لا يتـــورع عن هجاء أى انسان حتى انه قد هجا أخاه أحمد بن المعذل على الرغم مما يقــوله الرواة عن فضله وتدينه ، فقد روى أن أحمد بن المعذل قدم من سر من رأى من عند أمير المؤمنين ، فذهب اليه اخوانه وأحبابه يهنئــونه

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٢٢٧ المصدر السابق .

بعودته ، وكان الخليفة قد أكرمه ، وخلع عليه يقول راوى الخبر « فلم أر أخاه عبد الصمد عنده فيمن أراه ، فقلت مالى لا أرى أبا القاسم عندك ؟ فقال : ان أبا القاسم أعزه الله وافتنى هدينه فى هـذه الليلة التى قدمت فيها بما يكون من الأخ البار بأخيه ، فان أحـببتم أريتـكم ذلك : قلنا له : قد أحببنا أضحك الله فمثله من بر ، ومثله من وصـل وأكرم أخاه ، فرفع ثنى وسادته ، وأخرج رقعة ، واذا فيها :

ولمـا أن أتتـه دريهمات
من السلطان باع بهن ربه
وكان يذمهم فى كل يـوم
يشى بالجهل والهذيان خطبه
كسبت أبا الفضول لنا معايا
وعارا قـد شملت به وسبه
ولم نر مالكا أجدي عليه
كما أجدي على النرسى شعبه

ثم قال : هذا بره واكرامه اياى . قلنا : بئس والله ما أهدى ، وقبحنا فعله ، فقال : ان لم يكن مع هذا غيره فنحن بخير . قلنـا : وما عسى أن يكون ؟ فقال : هيهات انا أعرف أبا القاسم أعزه الله»(١)

وقد كان عبد الصمد معاصرا لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، فجمع بينه وبين عبد الصمد بن المعذل مجلس ، وكان عبـد الصمد سريعا فى قول الشعر ، وكان فى أبى تمام ابطاء فأخذ عبد الصـمد القرطاس وكتب فيه :

---

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط دار المعارف .

أنت بين اثنتين تبرز للنا
س ، وكلتاهما بوجـــه مذال
لست تنفك طالبا لوصـــل
من حبيب أو طالبا لنوال
أى ماء لحر وجهك يبقى
بين ذل الهـــوى وذل الســـؤال

قال : فأخذ أبو تمام القرطاس ، وخلا طويلا ، وجاء به وقـــد كتب فيه :

أفى تنظم قول الزور والفنـــد
وأنت أبزر من لاشىء فى العدد
أشرجت قلبك من بغضى على حرق
كأنها حركات الروح فى الجسد(١)

لقد كان عبد الصمد فاحش اللسان لا يسلم أحد من هجائه ــ كما قدمت ، ولعل ذلك كان السبب فى أنه أغفـــل ولم ترد له آثار كثـــيرة فى الكتب التى ترجمت له ، غير أن صاحب الأغانى أفاض فى ذكر أخباره، والذى يقرأ هجاءه يجد أنه قد اعتمد على ذكر بعض الكلمـــات النابية ، والألفاظ الغثة التى يعف اللسان عن ذكرها ، والقلم عن كتابتها .

ويأتى العتاب ــ أيضا ــ فى شعر عبد الصمد متناثرا ، والعتاب من الفنون التى شاعت فى العصر العباسى فقـــد كتب عبد الصـــمد بن المعذل الى بعض الأمراء رقعة فلم يجبه عنها لشىء كان بلغه عنـــه ، فكتب اليه :

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٣ عن طبعة دار الكتب « تراثنا » .

قد كتبت الكتاب ثم مضى اليو
م ولم أدر ما جواب الكتاب
ليت شعرى عن الأمير لماذا
لا يرانى أهلا لرد الجواب
لا تدعنى وأنت رفعت حالى
ذا انخفاض بهجرتى واجتنابى
ان أكن مذنبا فعندى رجوع
وبلاء بالعذر والاعتاب

وأنا الصادق الوفاء وذو العهد الوثيق المؤكد الأسباب (١) .

فقد اختلفت ، صورة شعره عنها فى الهجاء ، فهو يميل الى استعطاف هذا الأمير . ويذكر له أن الكتاب مضى عليه وقت ولما يأته رد عليه ، ثم يذكر له أنه ان كان مذنبا فان عفو الأمير وكرمه خليقان بالعفو عنه .

وحدث أن كان « الصمد بن المعذل » يعاشر عبد الله بن المسيب ، ويألفه ، فبلغه أنه اغتابه يوما وهو سكران ، وعاب شيئا أنشده من شعره ، فقال فيه وكتب بها اليه :

عتبى عليك مقارن العذر
قد زال عند حفيظتى صبرى
لك شافع منى اليك فما
يقضى عليك بهفوة فكرى

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ١٣ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب « تراثنا » .

فلمـــا أتانى ما نطقت به

فى السكر قلت جناية السـكر

حاشا لعبـــد الله يذكرنى

مستعذبا بنقصينى ذكـــرى

ان عاب شعرى أو تحيفه

فليهنه ما عاب من شعرى

يا بن المسيب قد سبقت بما

أصبحت مرتهنا به شكرى

فمتى خمرت فأنت فى سعة

ومتى هفوت فأنت فى عذر

ترك العتاب اذا استحق أخ

منك العتاب ذريعة الهجر (١)

ولعبد الصمد بن المعذل أبيات رقيقة يتغزل فيها يقول :

ان العيون اذا أمكن من رجل

يفعلن بالقلب ما لا يفعل الأسل

وليس بالبطل الماشى الى بطل

فى الحرب يخمد أحيانا ويشتمل

لكنه من له قلب اذا رشـقت

فيه العيون فذاك الفارس البطل

أما الوصف فان عبد الصمد له روائع تضعه فى مصـــاف كبار الشعراء ، وهاهى بعض أبياته فى الوصف تذوب رقة ، وتفيض حسنا وبهاء ، فقد كان لعبد الصمد بستان نظيف عامر — كما يقـــول أبو الفرج — فأنشد فيه عبد الصمد قوله :

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ١٣ ص ٢٤٣ المصدر السابق

اذا لم يزرنى ندمانيـــه
خلوت فنادمت بســـتانيه
فنادمته خضرا مونقـــا
يهيج لى ذكر أشـــجانيه
يقرب مفـــرحة المســـتلذ
ويبعـــد همى وأحـــزانيه
أرى فيه مثل مدارى الظباء
تظل لأطـــلائها حانيـــه
ونور أقاح شتيت النبات
كما ابتسمت عجبا غانيـــه
ونرجسة مثل عين الفتـــاة
الى وجه عاشقها رانية (١)

وقد حاول عبد الصمد أن يترسم هنا خطا القرآن الـكريم فى تلك الفواصل التى جاءت فى سورة الحاقة ، والتى يقول فيها رب العـــزة جل وعلا ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه . الآيات من ٢٥ — ٢٩ من سورة الحاقة .

ولكن هيهات له أن يصل الى ذلك النسق المتفرد ، ولقـــد حاول عبد الله بن قيس الرقيات أن يسلك ذلك النهج من قبله فأخفـــق ولم يصل ، حتى قال له عبد الملك بن مروان : أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيـــه .

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ٢٣٧ المصدر السابق .

وعلى الرغم من أن عبد الله بن قيس دافع عن كلامه بقوله ماعدوت كتاب الله يقصد قوله تعالى « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، لكن الفرق جد كبير بين عده الأبيات ، وبين فواصل القــرآن الكريم .

ويبدو أن عبد الصمد كان مولعا بوصف الرياض ، فقد وردت له مقطوعات كثيرة فى الأغانى منها قوله يصف نزهة كان قد خرج اليها مع أهله فقـــال :

قــد نزلنا بروضة وغدير
وهجرنا القصر المنيف المشيدا
بعريش ترى من الزاد فيه
زكوتى خمرة وصقرا صيودا(١)
وغريرين يطربان النــدامى
كلما قلت أبديا وأعيـــدا
غنيانى مغنيـــانى بلحن
سلس الرجع يصدع الجلمودا
« لا ذعرت السوام فى فلق الـ
صبح مغيرا ولا دعيت يزيدا »
حى ذا الزور وانهه أن يعودا
ان بالباب حارسين قعــودا
من يزرنا يجد شواء حبارى
وقديرا رخصــــا وخمرا عتيدا
وكــراما معدلين وبيضـــا
خلعوا العذر يسحبون البرودا

(١) الزكرة بالضم : اناء للشراب .

ليست عن ذا بمقصر ما جزائي

قربت لي كريمة عنقودا (١)

وقد أورد له أبو هلال العسكري في ديوان المعاني قصيدة يصف فيها الرياض والبساتين ، فقال .. ومن بديع ما قاله محدث في صفة الرياض والبساتين قول عبد الصمد بن المعذل . أنشدنا أبو أحمد وغيره :

معاني من العيش الغرير ومعمر

ومبدى أنيق بالعذيب ومحضر

نما الروض منه في غداة مريعة

لها كوكب يستأنق العين أزهر

ترى لامع الأنوار فيها كأنه

اذ اعترضته العين وشى مدنر

تسابق فيه الأقحوان وحنوة

وساماها رند نضير وعبهر

يمج ثراها فيه عفراء جعدة

كأن نداها ماء ورد وعنبر

أعاد نسيم الريح أنفاس نشره

وخايل فيه أحمر اللون أصفر

بدا الشيح والقيصوم عند فروعه

وشت وطبياق وبان وعرعر

وناضر رمان يرف شكيره

يكاد اذا ما ذرت الشمس يقطر

---

(١) أبو الفرج لأصفهاني : الأغاني جـ ١٣ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ المصدر السابق .

وبانع تفـــاح كأن جنيـــه
نجوم على أغصانه الخضر تزهر
اذا زرته يوما تغـــرد طـــائر
وراناك خبئ بين غصـــنين أحور
فاذ هاج نوح الأيك فى رونق الضحى
تذكر محـــزون أو ارتاح مقصر
تجاوبن بالترجيـــع حتى كأنما
تزنم فى الأغصان صنج ومزهر
مراناة مرموق وترجيع شـــائق
فللقلب ملهاة وللعين منظـــر
وانى الى صحن العذيب لتائق
وانى اليـــه بالمودة أصـــبو
مرعى ولا زالت تصـــيبك ديمة
يجـــود بها جون الغوارب أقمر
أحم الكلى واهى العرى مسبل الجدى
اذا طعنت فيه الصبا يتفجر
كأن ابتسام البروق فى حجرانه
مهندة بيض تشام وتشـــهر (١)

ومما يستجاد له فى التشبيه قوله :

لمـــا رأيت البـــدر فى
أفق الســـماء وقد تعلى

(١) أبو هلال العسكرى : ديوان المعانى ج ٢ ص ١٥ مكتبة القدسى باب الخلق القاهرة ١٣٥٢ هـ .

ورأيت قـــرن الشمس فى
أفق الغـــروب وقد تدلى
شـــبهت ذاك وهـــذه
وأرى شـــبههما أجـــلا
وجـــه الحبيب اذا بدا
وقفـــــا الحبيب اذا تولى

يقول عبد الله بن المعتز « وهذا معنى ما سبقه اليه أحد : تشبيه الوجه مقبلا بالبدر ، وتشبيه القفا موليا بالشمس »(١) .

ابن المعذل ووصف الحمى :

واذا عرض الدارس لجانب الوصف عند عبد الصمد بن المعـــذل فانه يجد نفسه أمام قصيدته التى يصف فيها الحمى ، والتى تعد من أجود ما قاله فى هذا الفن ، ولقد عقدنا هذا البحث لنوازن بينها وبين قصيدة المتنبى فى وصف الحمى ، يقول عبد الصمد :

وبنت المنيـــــة تنتابنى
هـــــدوا وتطرقنى سحره
اذا وردت لم يدع وردها
عن القلب حجب ولا سترة
كأن لهـــا ضرما فى الحشى
وفى كل عضو لها جمـــرة
اذا لم ترح أصلا فى العشى
فأقصى مواعـــــدها بكرة

(١) عبد الله بن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٦٩ المصدر السابق .

لها قدرة فى جسوم الأنام
حباها بها الله ذو القدرة
تغالبت باسم سواها لها
كأن ليس لى باسمها خبرة
فطورا ألقبها سخنة
وطورا ألقبها فترة (١)
أسائل أهلى عن سخنتى
وأمنحهم نظرة نظرة (٢)
فأجزع ان قيل لى حمرة
وأشفق ان قيل لى صفرة (٣)
وصرت اذا جعت يوما ظللت
كأن على كبدى شفرة
ويربو الطحال اذا ما شبعت
فتعلو الترائب والصدرة
فأمسى كأنى من معدتى
لبست الثياب على زكرة
اذا ما رأيت امرأ مطلقا
له الأكل تخنقنى العبرة

---

(١) زاد صاحب ديوان المعانى بعد هذا البيت قوله :
وقد أعقبت خلقى حدة — وأورثنى الفها ضجرة
فللعبد ان غاظنى لطمة — وللحر ان ساءنى زجرة
(٢) روى صاحب ديوان المعانى هذا البيت هكذا :
أسائل أهلى عن سخنتى — وأمنحهم نظرة نظرة
(٣) روى صاحب ديوان المعانى هذا البيت هكذا :
وأجزع ان قيل بى صفرة — وأشفق ان قيل بى حمرة

كأنى فى منزلى مخضبا
ببلقعة جدبة قفرة (١)

قدم لنا عبد الصمد بن المعذل صورة للحمى فى هذه القصيدة نحاول بسطها وبيان جوانبها ، حتى يستطيع القارىء أن يتصور مدى العلاقة بين هذه القصيدة ، وقصيدة المتنبى التى سنتعرض لها فيما بعد فكلاهما قد قدم صورة للحمى ، وكلاهما حاول تلوين صورته بالألوان التى رآها مناسبة لوضع الصورة فى أطارها المناسب .

فالحمى عند عبد الصمد كنى عنها ببنت المنية ، وفى ذلك ايحاء بمدى الرهبة والخوف منها ، وهى تأتيه فى أوقات معينة ، فقد تأتيه فى وقت الأصيل ، وقد تأتى فى الصباح الباكر ، وفى استخدامه للكلمات تنتابنى وتطرقنى ما يوحى بمدى مصاحبة الحمى له ، ولو أنه استخدم لها كل الوسائل التى يمكن أن تحول بينه وبينها ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فالحجب لا تحول بينها وبين الوصول اليه ، بل انها تصل الى قلبه لا يسترها عنه ساتر .

ثم بين ما تحدثه الحمى فى جسم صاحبها ، وهنا يستخدم اداة التشبيه « كأن » كى يستطيع بها بيان ما تحدثه الحمى فى من تلم به ، أو تصيبه بدائها ، فالحمى تشبه النيران المشتعلة تلهب الأحشاء ، بل ان كل عضو يصاب بويلاتها وتلهبه بنارها .

والحمى لها مواعيد منتظمة لا تتخلف عنها ، فهى تأتى فى وقت العشى أو الصباح الباكر ، فاذا تخلفت عن المجىء فى العشى ، فانها

---

(١) القاضى الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٢١ ، ١٢٢ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - على محمد البجاوى ط عيسى البابى الحلبى .

حتما ستأتى فى الصباح الباكر ، ثم هى تنفذ فى جسوم الناس بقدرة فائقة حباها بها الله سبحانه وتعالى .

ثم يصور لنا موقفه مع الحمى ، فهو يدعى أنه غير مصاب بالحمى ، فأحيانا يقول : انه مصاب بمرض السخونة ، وأحيانا يزعم أنه مصاب بمرض البرودة ، وكل ذلك هروب منها وخداع لها ، وهذه الصفات التى يذكرها هى الصفات التى يتصف بها من يصاب بها ، فهى تجعل الانسان ملتهب الأعضاء أحيانا ، وأحيانا أخرى بارد الجسم ، وهى تلون جسمه بألوان مختلفة فعندما تشتد على الانسان يصير لونه أحمر من السخونة ، وعندما تهدأ السخونة يصبح الجسم أصفر من شدة المعاناة والاعياء .

وأخيرا يصور لنا ابن المعذل ما تحدثه الحمى فى شهيته فالجوع يضنيه ، والشبع يشقيه ، لأن الجوع يرهق كبده ، والشبع يتعب طحاله ، وعندما يرى أناسا يتصرفون فى مأكلهم ومشربهم دون التزام منهج خاص فى الأكل أو نظام دقيق يضطرون اليه فانه يبكى لما آل اليه أمره ، وكأنه أصبح فى منزله الملىء بالخيرات غريبا ، أو كأنه أضحى ببلقعة قفرة .

لقد صور لنا ابن المعذل الحمى ، ولكنه لم يكن فكره مرتبا ، أو أبياته متشابكة يأخذ بعضها بحجز بعض ، وانما أتت أبياته تنم عن حالة القلق التى أصابته ، لذا يمكن لنا اعادة ترتيب هذه الأبيات ، فيمكن وضع البيت الرابع بعد البيت الثانى ، والبيت الثالث بعد البيت الخامس وهكذا .

٢ — أبو الطيب المتنبى :

« هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندى ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ فى محلة تسمى « كندة » فنسب اليها لا الى قبيلة كندة

اليمنية ، ويقال : ان والده كان سقاء بالكوفة ، وأنه رحل بابنه الى الشام ، فتعب فيها مولعا بفنون اللغة حريصا على طلبها ، ساعيا الى أهلها فى البادية والحضر ، حتى نال منها أوفر نصيب (١) .

بهذه الكلمات قدم الأستاذ عباس حسن ترجمة المتنبى ، وهى كلمات تعطينا تصورا عاما لهذه الشخصية التى غردت فى أيك الشعر ، وصدحت بموسيقى الألحان ، رقة غناء ، وعذوبة نغم ، حتى أنها جعلت النقاد جميعا فى مختلف العصور يتجهون اليها بالدراسة والتحليل، فمنهم المؤيد المدافع ، ومنهم المعارض المنافح ، ومنهم الواقف وسطا .

شخصية تفردت بامارة الشعر فى القرن الرابع الهجرى ، بل انها تربعت عليها أعصرا ودهورا ، ولا يمكن لشخصية فذة كشخصية المتنبى أن تسير بها الحياة سيرا وئيدا ، لأن أمثال هؤلاء الرجال يثبون وثبات واسعة ، كى يحققوا طموحهم وآمالهم ويصلوا الى ما يريدون .

كان لا بد للمتنبى من أن يتسلح بالعلم ، وأن يأخذ منه حظا وافرا، فقد نشأ فى مجتمع متفتح لا مكان فيه لجاهل أو متعالم ، فالعصر العباسى الثانى جاء بعد نهضة علمية وفكرية أرسى دعائمها الرشيد ، وثبت أركانها المأمون ، ولا بد لمن لا مال له ولا جاه — ان أراد رفعة ورقيا — من أن يسلك طريق العلم ، وأن يأخذ منه زاده وسلاحه .

واللغة هى الوسيلة الأولى لطالب المعرفة ، فلا بد اذن من الحصول عليها من مصادرها الأولى ، ومنابعها الصافية فى الوقت الذى تكدرت فيه الألفاظ ، وطغت على الألسنة لكنة الأعاجم الذين طغوا على كثير من مرافق الحياة .

---

(١) عباس حسن : المتنبى وشوقى وامارة الشعر · دراسة ونقد وموازنة ص ٢٦ ط دار المعارف ·

رحل المتنبى — مع والده الى بادية السماوة ، وهى صحراء واسعة بين العراق والشام ، فمكث فيها فترة طويلة حتى تمرس على فنون الشعر ، وتدرب على موسيقاه ، بعد أن وعت حافظته كثيرا من الألفاظ العربية الفصيحة ، والأساليب الصافية البليغة ، والرواة لا يذكرون شيئا عن حياة المتنبى فى مرحلتها المتقدمة الا عكوفه على دراسة اللغة ، وولوعه بتتبعها فى مصادرها الأصيلة .

واذا كانت الظروف — بعد ذلك — قد جعلت المتنبى يحاول الاتصال ببعض الأمراء — يمدحهم ، ويعيش فى كنفهم ، وتحت رعايتهم فان أهم شخصية — كان لها تأثير كبير فى حياة المتنبى هى شخصية سيف الدولة الحمدانى الذى أغدق على المتنبى سحائب كرمه ، وعظيم تقديره فقلده المتنبى قلائد مدحه .

وقد كان المتنبى شاعرا يعتز بشعره ، ويزهو به ، ويدعى أنه فريد فى نوعه فهو يقول :

وما الدهر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغردا (١)

وهو القائل :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم (٢)

(١) ديوان المتنبى ج ١ ص ٢٨١ — ٢٩٢ بشرح العكبرى تحقيق مصطفى السقا ابراهيم الابيارى عبد الحفيظ شلبى .

(٢) ديوان المتنبى ج ٣ ص ٣٦٢ — ٣٧٤ بشرح العكبرى تحقيق مصطفى السقا ابراهيم الابيارى عبد الحفيظ شلبى

وهو القائل فى سيف الدولة :

ولى فيـــك ما لم يقل قائل
وما لم يسر قمر حيث ســاراً

وعندى لك الشرد الســـــائرا
ت لا يختصصن من الأرض داراً

قوافٍ اذا سرن من مقـــــول
وثبن الجبال ، وخضـــن البحارا (١)

واذا كان المتنبى ظل يمدح سيف الدولة سنوات فى بأبدع الشعر وأروعه ، فيكافئه بأعظم العطايا والمنح ، فقد وقعت بينهما جفـــوة فضت على الشاعر أن يفارقه الى دمشق والرملة فمصر ، وقد دخلها سنة ٣٤٦ هـ ، واتصل بواليها كافور ، ومدحه طمعا فى أن يوليه احدى الامارات ، ولكن « كافورا » خيب ظنه ، حين رأى غطرسته وكبره ، وعرف طموحه وسعة مطامعه ، فحنق المتنبى عليه ، وهجاه أشـــنع هجاء ، وفر غاضبا سنة ٣٥٠ هـ الى « بغداد » مقر الخليفة العباسى ، فلم تطل بها اقامته ، اذ تمالأ عليه حساده ، ومنافسوه من الشـــعراء والأدباء ، وائتمروا به ، فتظاهر أول الأمر باحتقارهم ، وعدم المبـــالاة بهم ، ولكنه لم يجد بدا من أن يؤثر السلامة والهدوء بترك بغــــداد لهم ، وقصد الكوفة ثم أرجان حيث ابن العميد الأديب العالم المشهور وزير ركن الدولة ، فأقام عنده فترة كانت من أطيب حياته ، ولقى من عطفه ورعايته ما أنساه كثيرا من متاعبه .

ثم غادرها الى شيراز قاصدا أميرها الديلمى ، عضـــد الدولة ، ابن بويه ، فأغدق عليه ، وأرضاه بالعطايا الكثـــيرة ، ثم اشـــتاق الى

(١) ديــوان المتنبى جـ ٢ ص ٩٤ ــ ٩٦ بشرح العكبرى تحقيق مصطفى السقا ابراهيم الابيارى عبد الحفيظ شلبى .

بلاده ، فاستأذن فى العودة فأذن له ، فاتجه الى بغداد ، ثم الكوفة ، وفى طريقه اليها قابله رجل يقال له : « فاتك الأسـدى فى جمـاعه من أصحابه ، فخرج عليه وقتله ، وقتل إبنه محمدا وغلامه مفلحا ، وأخذ جميع ما معه ، وفرق أصحابه ، وكان ذلك فى رمضان سـنة ٣٥٤ هـ بالقرب من موضع يقال له « الصافية بالجانب الغربى من بغداد عند دير العاقل » (١) .

هذه لمحة موجزة عن حياة المتنبى ، ومن خلالها يدرك القـارىء ما قام به المتنبى من جولات عمت ربوع الأمة العربية ، فقد شرق فيها وغرب ، وأتهم وأنجد ، فجاب ربوعها ، وجال فى أطرافها ، شـامها ومصرها وعراقها وفارسها ، كل هذه الأماكن سعدت بشـعر المتنبى ، وكان فيها المعجبون به والشانئون له ، الراغبون فيه والراغبون عنه ، وكان لا بد لهؤلاء وأولئك أن يشرعوا أقلامهم ، ويسجلوا آراءهم ، فقد « ركدت ريح الخصومة حول أبى تمام ، أو كادت بظهور المتنبى ، وكاد الذوق العام يصبح أشد ميلا الى الشعر المحدث ، ويقبل أبا تمام مثلما يقبل البحترى ، ولكن الظاهرة الجـديدة ، أعنى ظهـور المتنبى كانت مصدر حيرة للذوق والنقد معا ، فها هو شاعر يجمع بين القـديم والحديث يجىء بالجزالة والقوة والبيان عـلى خـير ما كان يجىء به القدماء ، ويغوص على معانى الحياة الإنسانية غوصا بعيدا ، ويضـمن شعره فلسفة حياة وثقافة تنتمى الى القرن الرابع كذبت المقـاييس : أين ما كان يتحدث به النقاد عن الصراع بين القديم والمحـدث ؟ ، بل أين ما كانوا يتحدثون به من ميل الى أبى تمام ، أو نزوع الى طريقة

---

(١) عباس حسن : المتنبى وشوقى ص ٢٦ ، ٢٧ المرجع السابق .

للبحترى ؟ انهم أمام طريقة جديدة قديمة لا ينفع فيهـا ما إعتمدوه من مقاييس « عمود الشعر » (١) .

الوصف فى شعر المتنبى :

لا نستطيع هنا أن نعطى وصفاً دقيقا لشعر الوصف عند المتنبى، لأن ذلك يتطلب منا أن نتتبع ديوانه ، ونتعرف على قصائده الوصـفية سواء أكانت أوصافا عامة أم أوصافا خصصها لتلك المعـارك التى خاضها سيف الدولة والتى كان المتنبى لسانها النـاطق ، واذا كان الأستاذ عباس حسن فى غمرة الانتصاف لشوقى قد جـرد المتنبى من فنيته فى شعر الوصف الا ما جاء من قصائد قليلة (٢) فان الدكتـور طه حسـين قد أنصفه حين قال بعد أن عرض لقصـيدته التى يصف فيها موقعة دارت بين سيف الدولة وأعدائه ، فانتصر أولا ، ثم دارت الدائرة عليه بعد ذلك — « ولم يكن توفيق المتنبى سـياسيا وعمليا فحسب ، بل كان توفيقا فنيا قبل كل شيء ، فلهجة الشاعر فى القصـيدة صادقة كل الصدق حارة كل الحرارة ، وألفاظه ومعانيه ملائمة أشـد الملاءمة لهذا الصدق الحار لأن المتنبى قد شهد الموقعة ورأى أطوارها كلها ، واستيقن ان الهزيمة لم تأت عن ضعف فى المسـلمين ولا عن تقصير ، انما الحرب سجال يوم لك ويوم عليك ، ولولا أن طبيعـة الموقف تقتضى أن يلوم المنهزمين شيئا ليربط عـلى قلوبهم ، وليحفزهم الى الجهاد لما فكر المتنبى فى لومهم قليلا ولا كثيرا » (٣) .

---

(١) د. احسان عباس : تاريخ النقـد الأدبى عند العرب ص ٢٥٢ ط دار الثقافة — بيروت — لبنان .

(٢) انظر عباس حسن . المتنبى وشوقى وامارة الشعر ص ٢٩ — ٣١ المرجع السابق .

(٣) د. طه حسين — مع المتنبى ص ٢٣٢ ط دار المعارف .

وقد ساق الدكتور طه حسين جانبا من قصيدته التى مطلعها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع
ان قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

ولعل من أروع قصائد المتنبى الوصفية تلك القصيدة التى قالها المتنبى يمدح بها عضد الدولة ويصف فيها شعب بوان ومطلعها :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى
بمنزلة الربيع من الزمان

وفيها يقول فى وصف هذا المكان :

طبت فرساننا والخيل حتى
خشيت — وان كرمن — من الحران
غدونا ننفض الأغصان فيه
على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى
وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها فى ثيابى
دنانيرا ، تفر من البنان
لها ثمر تشير اليك منها
بأشربة وقفن بلا أوانى
وأمواه يصل بها حصاها
صليل الحلى فى أيدى الغوانى (١)

---

(١) ديوان المتنبى جـ ٤ ص ٢٥٠ — ٢٦٢ بشرح العكبرى • تحقيق مصطفى السقا — ابراهيم الابيارى — عبد الحفيظ شلبى ط الحلبى •

ومن يقرأ ديوان المتنبي يجد فيه روائع وصفية تنم عن فنية فائقة ، وقدرة على وصف كل ما تقع عليه عيناه .

أما الأستاذ العقاد فقد لمس جانبا له وجاهته فى فنية المتنبى وتصوير مشاهداته تصويرا متحركا ، فالمتنبى فى نظره شاعر فطرى قد استلهم الأحداث ، وعاونته الملكة الفنية التى صقلت بتعلم اللغة وأدراك أسرارها على الاجادة والتبريز فهو يقول « فالشعر فى ديوان هذا العبقرى المطبوع هو شعر السليقة يعينه التعلم فى ذهن متوقد يتفتح لكل ما حوله من دنيا الناس ، أو دنيا الطبيعة ، أو صور الحياة على السماع تهويلا لها بالأوصاف المتواترة التى لا تدل على شعور صحيح بتلك الصور ، ولا على علم دقيق بما لها من خصائص التكوين وملامح الطباع ، وكذلك كان يجرى ذكر الأسد والنسر فى أقوال الشعراء ، وسائر المتحدثين عنها كأنها « قوى هائلة » لا حدود لها لمبالغات التهويل فيها ، ولكن هذه الصور ، وما عداها من ظواهر الحياة لم ترد قط فى ديوان المتنبى ، الا علمنا من تصويرها أنها مستمدة من وحى المشاهدة ، وشعور السليقة الواعية ، يصفها كأنها معروضة فى درس من دروس التاريخ الطبيعى التى تعرفنا بالأحياء كما تتميز بخصائلها وعاداتها ، وخصائص تكوينها ، فالأسد من حيوانات الليل التى تفترس لنفسها ، ولا تأكل من فرائس غيرها .

ومن تكن الأسد الضوارى جدوده
يكن ليله صبحا ومطعمه غصبا

ثم يقول : والنسر هو النسر ، بغير التباس بينه وبين العقاب ، كما يلتبس كثيرا فى أقوال الشعراء والمتحدثين :

تفـــدى أتم الطير عمرا ســلاحه
نسور الفلا أحداثها والقشـــاعم
وما ضرها خلق بغـــير مخالب
وقد خلقت أســــيافه والقوائم

يقول العقاد : وهذه مراقبة العين البصيرة والطبيعة الواعية لهذا الطائر بجملة عاداته فى صيده وطعامه وفى حداثته وهرمه وفى اجتماعه وافتراقه حول الجثث التى تتخلف له ، ولا يعمل فى ازهاقها بمخلبـــه وطاقة بدنه ..

ولقد كان الشاعر صادقا لفطرته كصدقه لمشاهد الحياة والطبيعة من حوله ، فشعره فى جملته هو شعر الجد والطموح والاقـــدام ، ورياضة النفس على سمت طلاب العظائم ، وعشاق المجد والرياسة (١)

هذا هو رأى الأستاذ العقاد فى شعر المتنبى ، فلم يصنع مثـــل ما صنع الأستاذ عباس حسن الذى جرد المتنبى من فنيته وطبيعتــه الشاعرة الا ما جاء منها نادرا فى رأيه ؛ ولعل الأســـتاذ عباس حسن كان متأثرا بتلك المعارك التى دارت حول المتنبى فى عصره وبعد عصره ، والتى جرد فيها أولئك اللائمون على المتنبى والحاقدون عليه أقلامهم ليرموه بسهام مريشة ، ونبال منقفة ولكنهم لم يكن مثلهم الا كما قال القـــائل :

كنـــاطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قـــرنه الوعل

---

(١) موسوعة تراث الانسانية من مقال للاستاذ العقاد بعنوان «أبو الطيب المتنبى» المجلد الأول ص٦٠٦ ، ٧ ط المؤسسة المصرية العامة للتاليف ..

ولعل القارىء لكلمات الأستاذ العقاد التالية يدرك مدى الشهرة الفائقة التى بلغها المتنبى وشعره ، فبعد أن تحدث عن ألوان شعره ، وكثرة شعر الحكمة لديه ، وشعر الوصف الذى أوفى فيه على الغاية يقول ، وهذه هى مزية الطبع الصادق ، والحكمة الحيوية التى امتاز بها أبو الطيب فجعلته بحق شاعر العربية ، ولسان عبقريتها ، وترجمان بلاغتها ، وهى مزية يتممها السؤال عن مكان الفن فى لفظه ومعناه ، بعد العلم بمكان الطبع من تعبيره ، ولا بد من هذا السؤال فى التعريف بشاعر مشهور بلغ بالشهرة غاية مداها فى القرن الرابع للهجرة بعد أيام ابن المعتز ومسلم بن الوليد وأبى تمام وهو من قراء شعره وجامعى ديوانه كما قيل ، فقد يكون هوى الفن المصنوع امتحانا قويا لذلك الطبع القوى ، وبيانا لما تستطيعه فتنة الحلية البراقة من غواية المعدن الأصيل اذا تجاذبته القوتان فى وقت واحد (١) .

وهكذا يضع الأستاذ العقاد المتنبى فى موضعه الصحيح كما وضعه الدكتور طه حسين فى نفس الموضع أيضا .

المتنبى ووصف الحمى :

يقول عبد الرحمن البرقوقى — شارح ديوان المتنبى .. انه فى ذى الحجة من سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة للهجرة أصابت المتنبى حمى استمرت معه فترة طويلة ، فقال المتنبى هذه القصيدة يصف فيها هذه الحمى ويعرض بالرحيل من مصر . وقد بدأ المتنبى قصيدته بقوله :

---

(١) موسوعة تراث الانسانية عن مقال للاستاذ العقاد بعنوان « أبو الطيب المتنبى » المجلد الاول ص ٢٠ المرجع السابق والترجمة والطباعة والنشر .

ملومكما يجـــل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام (١)

وهو بهذا يمهد لحديثه عن الحمى التى أصابته ، ولكنه ضـــمن هذا التمهيد كثيرا مما كان يتألم منه فى مصر : لأن هذه الآلام هى التى جرت عليه ما أصابه من أمراض — نفسية وبدنية — .

والقارىء للجزء الأول من القصيدة يمكنه أن يستشف منه بعض هذه الآلام ، فهو يقول بعد البيت السابق :

ذرانى والفلاة بلا دليـــل
ووجهى والهجير بلا لثـام
فانى أستريح بذى وهذا
وأتعب بالاناخة والمقـــام
عيون رواحلى ان حـــرت عينى
وكل بغام رازحة بغـــام

وبعد أن أظهر قدرته على التنقل من مكان الى مكان ، ومعرفتـــه بدروب الصحراء ، وخبرته الواسعة فى السير فيها دون مرشـــد أو دليل أخذ يذكر ما ألم به فى مصر من جراء صحبته لبعض الناس الذين كانوا يراقبون حركاته ، ويتتبعون تصرفاته فقال :

فلما صار ود الناس خبا
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه
لعلمى أنـــه بعض الأنـــام

---

(١) القصيدة فى ديوان المتنبى بشرح العكبرى ج٤ ص١٤٢ — ١٤٩ . المصدر السابق والقصيدة بديوان المتنبى شرح البرقوقى ج ٤ ص ٢٧٢ المجلد الثانى دار الكتاب العربى بيروت .

يحب العاقلون على التصافي
وحب الجاهلين على الوسام

لقد شاعت هذه الأخلاق بين الناس ، وأصبح لا يثق فيمن يحيطون به ، فكيف يستطيع الانسان اختيار أصدقائه فى هذا الجو الملىء بالخداع ، فقد حكى أن المتنبى قال : كنت اذا دخلت على كافور وأنشدته يضحك الى ، ويبش فى وجهى ، حتى أنشدته هذين البيتين فما ضحك بعدها فى وجهى الى أن تفرقنا ، فعجبت من فطنته .

وبعد أن يطعن المتنبى أعداؤه الذين يظهرون له الحب ، ويبطنون له حقدا دفينا يسلى نفسه بقدرته على التنقل من مكان الى مكان ، ويسوق ذلك فى أسلوب ينم عن عزم وتصميم فيقول :

عجبت لمن له قد وحد
وينبو نبوة القضم الكهام
ومن يجد الطريق الى المعالى
فلا يذر المطى بلا سنام
ولم أر فى عيوب الناس شيئا
كنقص القادرين على التمام

وهكذا يختم المتنبى تمهيده ، ليدخل فى وصف الحمى الذى قدم له بمقدمة تنم عن قدرة فنية رائعة ، وملكة شعرية مقتدرة ، فهو يقول :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى
تخب بى المطى ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى
يمل لقاءه فى كل عام

قليل عائدى سقم فؤادى
كثير حاسدى صعب مرامى

انه يظهر مكنون صدره ، ومخبوء فؤاده بعد أن حاول التسلى والتصبر فى الأبيات السابقة ، وكأنى به يريد أن يقول : انه لم يصل الى ما كانت تصبو اليه نفسه ، فقد أصبح مغمورا لا تسير به الابل الى أى اتجاه ، ولهذا فان المرض قد أصابه وتمكن منه فبقى فى فراشه لا يبرحه ، حتى مله الفراش ، وسئمه الرقاد بعد أن كان دائم الحركة كثير السفر لا يأوى الى الفراش الا فترات قصيرة .

لقد أقام ببلد اقامة الغريب ، فعلى الرغم من أن ذلك المرض يتطلب من الجميع تخفيفه عنه الا أنه لم يجد ذلك ، فعواده قليلون وأصدقاؤه تخلوا عنه الأمر الذى جعل مرضه يتضاعف ، وآلامه النفسية تزداد وكيف لا يشتد مرضه ، وهو يعانى آلاما كثيرة : المرض ، وقلة عواده ، وكثرة حساده ، وصعوبة الوصول الى ما كان يأمل ويرجو ، وما أروع قوله فى تعليل مكثه فى فراشه ، شديد السكر من غير المدام !!

بعد هذا التقديم أخذ المتنبى فى وصف الحمى فى أبيات عذبة فقال :

وزائرتى كأن بها حياء
فليس تزور الا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها ، وباتت فى عظامى

يضيق الجسم عن نفسى وعنها
فتوسعه بأنواع السقام

اذا ما فارقتنى غسلتنى
كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى
مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق
مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر
اذا ألقاك فى الكرب العظام
أبنت الدهر عندي كل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحا لم يبق فيه
مكان للسيوف ولا السهام

رسم المتنبى فى هذه الأبيات السابقة صورة للزائر الثقيل الذي يتمنى المرء فراقه ، ولكنه يلح فى الاقامة ، والمتنبى مصور بارع ساعدته اللغة على اخراج الالوان والظلال اخراجا فنيا رائعا ، فزائرته من النوع الذى يخشى الناس ، ويستحيى من رؤيتهم : ولهذا فانه يتحين الوقت الذي لا يراه فيه أحد ، أن الحمى لا تزوره الا ليلا ، وشأن الكرام أن يقدموا لضيوفهم كل وسائل الراحة ، ولكن زائرته من لون لا ترضيه هذه الوسائل انها لا تقبل الاقامة الا فى مكان قريب من عظامه ، فتمتلك منه جميع جوانبه ، وتستقر فى عظامه ، ان هذه الأشياء التى تقدم للضيوف قد ترضى بعض الناس ، ولكنها لا ترضى المقربين ، انها تريد أن تتمكن منه جد تمكن ، فهى تعرف طريقها الى حيث تستقر ، فاذا ضاق جلده عنها أو سعته ان طوعا وان كرها .

واذا زارته الحمى ، وأقامت عنده ليلتها فانها تتركه فى حالة اذا

رآه أحد ظنه مغتسلا من جنـــابة ، وما ذلك الا لأن المـــاء نضـحه جسمه قد عم كل جزء فيه ، ولأن المتنبى دقيق فى رسم الصورة جعل هذا الغسل نتيجة لجنابة من حرام ، فالحمى أجنبية عنه ليست زوجا أو مملوكة .

ثم يرسم صورة أخرى للحمى ساعة أن يقبل الصـباح فتحدث مطاردة بينهما ، ولكن الصبح يتغلب عليها فاذا بهـا تبـكى بكاء مرا ، وتذرف الدمع لا من مقلتيها فحسب ، ولكنها تبـكى بأربع عيـون ، وتتم المطاردة ويتغلب الصبح ، وتبتعد الحمى ، ولكنهـا ما تلبث أن تعاوده ، لقد ألف منها ذلك ، فأصبح مشغولا بها دوما ، وما ظنـك بامرىء يتحين قدوم زائر لا يريد زيارته انه يرتجف خوفا وفزعا .

والحمى صادقة فى مواعيدها ، ولكنه صدق غير مرغوب فيه ، ولا ينسى المتنبى أن يستعطف الحمى ، وأن يذكر لها أن همومه كثـيرة ، وآلامه تتملك منه كل جوانبه ، فكيف وجدت الحمى مكانا لها بين كل آلامه وأسقامه ؟ .

وبعد أن يذكر المتنبى ما كان يراوده أثناء مرضه من أفكار : فهل سيعود مرة أخرى الى حالته الطبيعية ؟ وهل سـيزاول ما كان يزاوله قبل هذا المرض الى غير ذلك من هذه الأفكار يعودة مرة أخـرى ليصف ما دار بينه وبين طبيبه من حوار فيقول :

يقول لى الطبيب أكلت شيئا
وداؤك فى شرابك والطعام

وما فى طبـــه أنى جـواد
أضر به طـول الجمـــام

تعود أن يغبر فى السرايا
ويدخل من قتام فى قتام

فأمسك لا يطال له فيرعى
ولا هو فى العليق ولا اللجام

نظرة حول قصيدة المتنبى :

بدأ المتنبى قصيدته بتقديم أبيات متتابعة حاول فيها اعلان ألمه من الاقامة فى مصر ، وتبرمه من هؤلاء الذين يظهرون له مودتهم وحبهم ، ويخفون حقدهم وكراهيتهم ، تلمس ذلك كله فى هذه الكلمات ذرانى والفلاة بلا دليل ، فهو يفضل السير فى صحراء جرداء ومهامه قفراء دون دليل أو مرشد ، ولا يأبه للمخاطر التى تصيبه ، والمخاوف التى تنتابه ، أنه يجد الراحة فى ذلك ، فقد سئم العيش فى مصر ، وكره الاقامة فيها ولن تكون الصحراء بأقسى عليه من الاقامة فى مصر .

وعندئذ تخيل أنه سيسير فى سفره دون مرشد أو رفيق ، وسيتخذ من رواحله مؤنسات له ومرشدات ، فاذا ضل الطريق ، وسار فى مسالك الصحراء فانه سيتخذ من عيون رواحله هاديات ومرشدات فاذا أحس بالخوف ، ووحدة المسير فانه سيتخذ من أصوات رواحله أنيسات يبددن خوفه ، وفوق ذلك فهو خبير بمواقع الغيث ، وأماكن الماء ، لأنه عربى خبر الصحراء ، وعاش فى البيداء .

ثفثة مصدور ، وانة محزون تبرزها الأبيات الأولى من القصيدة وناهيك بمن يفضل المخاطرة على الاقامة بأرض لا يجد فيها راحة نفسه ، وهدوء فكره .

ثم يعرض بمن يقيم عندهم ، ومن يريد تركهم ، فهم لم ينصروه ، ولم يقدموا له العون تلمس ذلك فى قوله : « يذم لمهجتى ربى وسيفى » وقوله « ولا أمسى لأهل البخل ضيفا » .

ولما لم يجد جدوى للتعريض صرح بأخـــلاق القوم ، فهم يبتسمون فى وجهه اذا أقبل ، ويظهرون له الود اذا أنشـــد ، ولكنهم يخفون فى صدورهم حقدا دفينا ، وكراهية بغيضة ، فـكان لا بد والأمر كذلك من أن يكيل لهم بنفس الكيل ، وأن يعاملهم بما يعاملونه به .

مثل هذا الجو يجعل الانسان يعيش فى حيرة من أمره ، انه لا يكاد يفرق بين الأعداء والأصدقاء الجميع من البشر ، فكيف يعـرف العـدو والصديق وقد تمثل ذلك فى قوله :

فلما صار ود الناس خبا
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصـطفيه
لعلمى أنـــه بعض الأنام

ثم يقدم لعشاق فنه دروسا فى السلوك العام والأدب الرفيــع ، فالناس فى نظره مختلفون فى طباعهم متباينون فى أخلاقهم فهناك العقلاء الذين يحبون لله ، لا تلمس فى حبهم كدرا ، بل تجد الصــفاء يعمهم ، والمودة تحفهم ، أما الجهلاء فالمظاهر تخدعهم ، وزيفهـا يحيط بهم ، ومثل هذا الحب لا يدوم لأنه عرضى .

وهكذا نرى المتنبى فى تمهيده لوصف الحمى يقدم لنا دروسـا فى الأخلاقيات ، ومعاملات الناس توحى بقـــدرة اكتسبها من تمرسه وسعة تجاربه ، وهو بذلك يجعل القارىء يتصور آلامه النفســية التى جرته للوقوع فريسة تحت وطأة هذا المرض اللعين .

وتتضح شاعرية المتنبى ، وتظهر فنيته فى ذلك الجزء الذى وصف فيه الحمى : فقد قدم لنا وصفا تحليليا رائعا جعل النقاد يعجبون به ، لأنه مهد لفكرته فجعل اقامته فى مصر سببا مباشرا لمرضه ، فقـــد

اجتمعت عليه الآلام البدنية والنفسية ، لقد جاء الى مصر آمـلا أن يحظى فيها بتقدير الجميع ، وأن يجد فيها ما فقده عند سيف الدولة فى حلب ، ولكن آماله تبددت ، وأحلامه قد اصـطدمت بواقع مرير ، حتى الخروج من مصر لا يجد اليه سبيلا •

أقمت بأرض مصر فلا ورائى   تخب بى المطى ولا أمامى

لقد كان ذلك سببا فى مرضه الذى أقعده ، والذى جعل فراشـه يمله بعد أن كان دائب الحركة ، جم النشاط لا يأوى الى فراشـه الا على فترات متبـاعدة ، أما الآن فقـد أنهكه المرض ، وأرهقتـه الحمى فلا يكاد يفارق فراشه ، لقد ضاعف من مرضه ، وأثر فى نفسـيته ما وجده من صدود زواره ، فهو فى عزلة قاتلة ، ووحدة مخيفـة ، بل ان هناك أمرا أخطر من ذلك يتمثل فى هؤلاء الحساد الذين حقدوا عليه فحالوا بينه وبين ما يأمل ويرجو •

والمتنبى لا يقنع بالصور العامة ، وانما يدقق فى رسم الصـورة التى تجعل القارىء يقف على كل كبيرة وصغيرة ، فعلى الرغم من أنه قدم صورة لمرضه الا أنه أشفعها بصور جزئية توضيحية أخرى فهو مريض مرضا مقعدا لا يستطيع معه القيام ، انه أشبه بسكران طوحت به الخمر ، وأفقدته توازنه • ولكن شعر المتنبى ليس وليد خمر ، وانما هو ربيب مرض •

بعد أن وصف حالته أخـذ فى وصف الحمى التى غشـيته ، وما أجمل هذه الاستعارة التى مثل بها المتنبى الحمى فهى زائرة جاءت تمشى على استحياء ، ولأن الحياء ملازم لها فهى لا تزوره الا ليلا بعد أن يسدل الظلام أستاره ، ويعم المكان هدوء تام •

والمتنبى مضياف يبذل قصارى جهده فى راحة زواره ، فقد قدم لزائرته المطارف والحشايا ، وهيأ لها مقاما طيبا ، ومكانا مريحا ، ولـكن زائرته من لون خاص ، فهى تتأبى عن هذه الأشياء ، لأن لها مكانا أسمى من هذه الأمكنة ، فمقامها فى عظامه ، وراحتها فى جسمه .

واذا حدث ولم تجد حسن استقبال من هـــذا الجسم فانها تستعمل حقها الطبيعى ، انها تلجأ الى القوة التى تهيىء لهـا مكانا ، وذلك يتمثل فى ألوان الأمراض التى أتت بها ، وهى لا تفارقه الا بعـد أن تجعل جسمه يتصبب عرقا ، حتى ليخيل اليه أنه ارتكب عملا أوجب غسلا ، ولأن هذه الزائرة أجنبية عنه جعل غسله من حرام .

وأسلوب التشبيه فى أبيات المتنبى يأتى عفوا ، ليس فيه استكراه كما أنه يساعده على الاحاطة بجوانب الصورة .

ان زائرته لا تزوره الا ليلا فاذا جاء الصبح حـــدثت مطاردة بينها وبينه ، فيتغلب الصبح ، ويتمكن من طردها فتلجـأ الى البـكاء الذى يتمثل فى هذا العرق الذى يغمر جسمه ، لأنهـــا لا تبكى بعين واحدة وانما بأربعة سجام .

واذا اقترب وقتها فانه يتأهب لاستقبالها تأهب المـــكره ، انه يراقب هذا المجىء دون شوق فهو زائر بغيض الى نفسه ، والتشبيه هنا أيضا يسعفه مراقبة المشوق المستهام ، انه يتلهف الى هذا المجىء تلهف الراغب عنه ، ولكن ضيفه دقيق فى مواعيـده لا يخلفهـا ، وكم تمنى أن تخلف هذا الوعد ، لأن الصـــدق لا يحسن فى مثـل هـــذه الظـروف .

وهنا لا يجد المتنبى مناصا من التوسل اليها ، والتلطف معها علها تستجيب وتفارقه ، أيتها الزائرة يا بنة الدهـر ألم تعلمى أن لدى من

المصائب والآلام ما لا يستطيع معها جسمى أن يستقبل وافدا آخـر ، فكيف وجدت لك مكانا فى زحمة هذه الآلام ، لقد أصبت مصابا لم يبق فيه مكان لاصابة أخرى •

ثم يتجه المتنبى مرة أخرى الى نفسه يصف ما حل بها من مرض، وما أصابها من ألم تمثل فى هذه الحمى ، وعدم قدرته على الخروج من مصر التى لم يستطع أن يحقق فيها ما كان يتمنى ، وهنا نجد المتنبى يستعمل الأساليب الانشائية أولا ، ثم الخبرية ثانيا ، والتى يظهر بها مدى قدرته على التغلب على كل العوائق ، فهل سـيقدر على تصريف الأمور مرة أخرى ؟ وهل سيستطيع ركوب الخيل والابل كى ينطلق بها الى ما يريد ؟ وهل سيصل بذلك الى مراده ؟ لقد كنت قبل ذلك مغامرا لا أستكين الى العوائق مهما عظمت ، ولدى القدرة على الخروج منها ، كما تخرج الخمر من مصفاتها واذا عقدت العزم عـلى أمر فلن انثنى عنه ، انى أسرع اليه دون النظـر الى شىء تاركا بلادى دون توديع ، وأحبتى دون سلام •

وزيادة فى توضيح الصورة يحاور المتنبى طبيبـه الذى أعلن له أن مرضه نتج عن تناول طعام فاسد ، فداؤه يكمن فى طعامه وشرابه، ولكن المتنبى يقرر أن مرضه نفسى • فهو كالفرس الذى أضر به طـول المقام ، لأن كرام الخيول — إذا حبست عن الـكر والفـر — أضـر الحبس بجسومها ، فقد تعودت خوض المعارك ، وألفت غبارها،وأحبت الدخول من قتام فى قتام ، انها تجد فى ذلك راحتها وسعادتها •

هذا الجواد الذى أمسك عن خوض الحروب لا بد أن يتألم ، فلم يجد من يفك عنه قيده فيرعى ولا من يسافر به فيعلف من المخلاة ، وهذا مثل ضربه المتنبى لنفسه ، فهو قعيد بيته ، ممنوع من الحركة قد سدت عليه السبل ، ووضعت أمام رحيله العقبات •

ملامح نقـــدية :

اننا اذ نقدم هنا ملامح نقدية نستضيء بها لفهم هذين النصين ، والوقوف على مدى ما بذله كل شاعر منهما للوصول الى الهـدف الذى يرمى اليه ، لأن الواجب يقتضينا أن نضع بعض التصـــورات التى وضعها النقاد لفهم أى نص من النصوص .

فعبد الصمد بن المعذل والمتنبى كلاهما قدم تجربة لمرض أصابه ، وداء ألم به ، ولكن النقاد لم يقفوا عند عبد الصمد بن المعذل وتجربته وقوفهم عند المتنبى وقصيدته . فقد اختلف النقاد اختلافا بينا حـول شعر المتنبى فمنهم من غض منه ، وعده ضربا من التصنيع والسرقة ، ومنهم من أثنى عليه ، وعده فنا راقيا خليقا بالـ الاكبـار ، ومنهم من تريث فى الحكم ، وتأنى فى النقد فتوسط بين م وأولئك ، ورأى أن شعر المتنبى ظاهرة خليقة بالدراسة والبحث ، وأن المتتبع لها يراها كشعر أى شاعر آخر فيه الجيد والردىء ، والغث والسمين ، فذكـر ما للمتنبى وما عليه .

وكثير من النقاد المحدثين متفقون على أنه لم يحظ شـــاعر فى العصر العباسى الثانى بمثل ما حظى به المتنبى من العناية بشـعره ، والسهر على فرائده ، والغوص على درره .

التجـربة الشـعرية :

ان الشاعر لا بد أن تسيطر عليه فكرة ، أو يؤثر فيـــه مؤثر ما يستحوذ على عقله وعواطفه . ويستولى على أحاسيسه وشـعوره ، ويستمر معه هذا الحدث ، أو ذلك المشهد يلح عليه فى اخـــراجه الى الوجود كائنا حيا يمتلىء حركة ، وينعم حيوية ، ويستمر التدافع بين الحدث والشاعر لا يجعله ينعم براحة ، أو يسعد بسكينة عذاب دائم ،

ومعاناة مستمرة ، واندماج وجدانى وعاطفى وفكرى ، مع استغراق فى هذا التأمل ، وذلك التفكير ، حتى اذا حان الوقت بعد كل هذه المعاناة خرج النص فى ذلك الاطار الشعرى الذى يلائم به الشاعر موضوعه .

ومعنى هذا أنه لا بد أن يكون الشاعر قد مر بهذه المعاناة ، وتلك التأملات ، حتى يكون صادقا مع حواسه وشعوره ، فالصدق الشعورى أساس أولى من أسس التجربة الشعرية مهما كان موضوع هذه التجربة ، أو سواء قدم لنا الشاعر مشهدا من مشاهد الطبيعة والكون ، أم وصف لنا حدثا من أحداث الحياة ، أم قدم لنا حالة نفسية خاصة به ، أم عالج مرضا اجتماعيا ، أم غير ذلك من الموضوعات التى تمتلىء بها حياتنا ، فان الشاعر كالمثال أو المصور لا يتقيد بمنظر معين يقدمه لمشاهديه فكل المناظر جميلة ما دامت مقدمة تقديما يتناسب وجمالها .

وليس معنى هذا أنه لا بد أن يكون موضوع التجربة واقعيا ، حتى يصدق عليه هذا الوصف المتقدم ، فان الشاعر لو تخيل موضوعا ما ، وعاش فيه بحسه وعواطفه ، واندمج فيه بفكره ووجدانه ، وأبرزه فى ثوب جميل ، وعالجه علاجا ينم عن قدرة فنية ، وبراعة شعورية فانه يكون جديرا بأن ينضم لموضوعات التجربة الشعرية .

فمجال الشعر — كما يقول الدكتور محمد غنيمى هلال — هو الشعور سواء أثار الشاعر هذا الشعور فى تجربة ذاتية محضة كشف بها عن جانب من جوانب النفس ، أو نفذ من خلال تجربته الذاتية إلى مسائل الكون أو مشكلة من مشاكل المجتمع تتراءى من ثنايا شعوره وأحاسيسه (١) .

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٣٨٣ المرجع السابق .

ويستمر الدكتور غنيمى هلال — فى الحديث عن التجـــربة الشعرية قائلا : « نقصد بالتجربة الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التى يصورها الشاعر حين يفكر فى أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وأحاسيسه . وفيها يرجع الشاعر الى اقتناع ذاتى واخـــلاص فنى لا الى مجرد مهارته فى صياغة القول ، ليعبث بالحقائق ، أو يجارى شعور الآخرين ، لينال رضاهم ، بل انه ليغذى شاعريته بجميع الأفكار النبيلة ، ودواعى الايثار التى تنبعث عن الدوافع المقدسة ، وأصـــول المروءة النبيلة ، وتكشف عن جمال الطبيعة والنفس » (١) .

والأساس الثانى من أسس التجربة الشعرية يتمثل فى أن هذا الشعور المتدفق ، وتلك العاطفة الجياشة يجب أن لا يتركان هكذا — يهيمان فى متاهات لا تحدها حدود ، ولا تحيط بهما قيود ، بل لا بد لهذا الشعور وتلك العاطفة من فكر منظم ، يكون كالمكبح الذى يقف بهمـــا فى أماكن الوقوف ، ان هما حاولا التخطى أو أرادا الاسترســـــال « والشاعر الحق هو الذى تتضح فى نفسه تجربته ، ويقف على أجزائها بفكره ويرتبها ترتيبا قبل أن يفكر فى الكتابة » .

ومهما تكن التجربة عاطفية شعورية فانها لا تعرب قط عن الفكر الذى يصحبها ، وينظمها ، ويساعد على تأمل الشاعر فيها اذ أن التعبير الشعرى مناف — كما سبق أن أشرنا — للتعبير العاطفى المبـــاشر ، ولا ينجح الشاعر فى التعبير عن تجربته حتى يصير أفكاره الذاتيـــــة موضوعية بأن يجمعها موضوع واحد (٢) .

(١) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٣٩٠ المرجع السابق .

(٢) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٣٩١ المرجع السابق .

٢ ــ الوحدة العضوية :

أو كما يطلق عليها بعض النقاد الوحدة الفنية ، فان التجــــربة الشعرية لا بد لها من اعداد فنى سليم لأن بناء القصيدة يجب أن يتم على يد هندسى قادر على رسم الصورة ، وتنفيذ الهيكل ، حتى ينظــر اليه المشاهد فيرى فيه بناء متينا متكاملا لا اضــطراب فى لبناته ، ولا تفكك فى أركانه ، كل جزء فيه يؤدى وظيفته ويأخذ بحجز الأجـــزاء الأخـــرى •

ولا يتوهمن أحد أن هذه الوحدة تعنى حصر الشاعر فى نطـــاق ضيق ، أو فى دائرة معينة لا بد أن يدور فيها ، فالأفكار تتســـع ، والمشـــاعر تتنوع ما تتنوع ، ولـــكنها لا بد أن تأتى متجانسة مؤتلفة كاللحن الموسيقى تتنوع فيه الأنغام ، وتتفاوت ، ولكنها تتســـق فلا تحس فيها اضطرابا ولا نشوزا •

ومعنى هذا أن الوحدة العضوية ، تستلزم أن يفكر الشاعر تفكيرا طويلا فى منهج قصيدته ، وفى الأثر الذى يريد أن يحدثه فى سامعيه ، وفى الأجزاء التى تتدرج فى احداث هذا الأثر بحيث تتمشى مع بنيـة القصيدة بوصفها وحدة حية ، ثم فى الأفكار والصور التى يشـــتمل عليها كل جزء بحيث تتحرك به القصيدة الى الأمام لاحـــداث الأثر المقصود منها عن طريق التتابع المنطقى ، وتسلسل الأحداث أو الأفكار ووحدة الطابع ، والوقوف على المنهج على هذا النحو ــ قبل البــدء فى النظم ــ يساعد على ابتكار الأفكار الجزئية والصور التى تســاعد على توكيد الأثر المراد » •

ولا بد أن تكون الصلة بين أجزاء القصيدة محكمة صـــادرة من ناحية وحدة الموضوع ، ووحدة الفكر فيه ووحدة المشاعر التى تنبعث

منه ، أى أنها صلة تقضى بها طبيعة الموضوع ، ووحـــدة الأثر الناشئ عنه ، فليست للقصيدة الجاهلية وحدة عضوية على شكل ما من الأشكال لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها ، فالوحدة فيها خارجية لا رباط فيها إلا من ناحية خيال الجاهلى ، وحاله النفسية فى وصـفه لمدح الممدوح ، وكان لهذا الرباط الواهى مبرر من المبررات فى العصر الجـاهلى ، ثم صار تقليدا على مر العصور » (١) .

لقد قسا الدكتور غنيمى هلال على القصيدة الجاهلية كمـا سـار على هذا الخط كثير من نقادنا المحدثين ، لكننا لا بد من توضيح ذلك ، فلقد عرف النقاد القدامى هذه الوحدة ، وتحدثوا عنها فى كتبهم ، بله وطبقوا عليها نتاج الشعراء الجاهليين ومن تلاهم ، ذلك أنهم نظـروا الى هذه المقدمات التى بدأ بها الشعراء قصائدهم نظـرة عميقـــة ، وحللوها تلحيلا نفسيا له وجاهته ، فالشاعر حين تسيطر عليه فـكرة ما ، ويقوم بترتيب أجزائها ، وتنظيم أفكارها يجد نفســه مضطرا لتهيئة الأذهان التى تقبل على سماع شعره بحديث جميـل عن المرأة ودوره معها ، فهى أشبه بالمقطوعة الموسيقية التى تتقدم الغناء ، والتى يفتتح بها الملحن لحنه الذى سينشده ، انه ينطلق بعد هـذه المقطوعة الموسيقية ليطرب سامعيه ، وليحدث بنفسه ما يريد .

لكنهم اشترطوا فى هذه المقدمة أن تكون لصيقة بالموضوع ، حتى تتناسب مع الغرض الأساسى للقصيدة ، فهذا ابن رشـــيق يروى عن الحاتمى قوله « من حكم النسيب الذى يفتتح به الشـــاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به غير منفصـــل منه ، فان

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ . المرجع السابق .

القصيدة مثلها مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أجـــزائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الاحسان » .

لكن الدكتور غنيمى هلال لا يعترف بدور النقـاد العـرب هذا ، ويؤكد أنهم لم يفهموا الوحدة العضوية بمعناها المحدد ، فيقول « وقد شرحنا هذه الناحية فى الشعر الجاهلى، وضربنا عليها أمثلة، وبينا خطأ النقاد العرب فى ترديدهم لكلمة الوحدة العضوية دون أن يفهموها ، ولهـذا لم تترك أثرا فى النتاج الأدبى ، ولم تتناف فى خيالهم مع فهم القصيدة كما كانت عليه فى الأدب العربى قبل العصر الحـديث ، عـلى ما بين أجزائها من تنافر يتنافى والوحدة العضوية ومعناها الصحيح » .

وانني أرى أن كلام الدكتور فيه تحامل كبير على نقـاد العـرب الذين سبقوا غيرهم فى فهم هذا الترابط العضوى فى القصيدة الشعرية، وما يضير النقاد أن نقدهم هذا ، أو نظرياتهم لم تترك أثرا فى النتـاج الأدبى ، ولم يسر عليها الا أدباء العصر الحديث ، وأى أثر هـذا الذى سيتركه نقد هؤلاء النقاد ؟ ان القصيدة العربية لم تلتزم خطا واحـدا منذ القديم ، بل انها تطورت تطورا يتناسب والعصر الذى قيلت فيه ، فقد تطورت فى شكلها ومضمونها ، حتى أن بعض شـعراء القرون المتأخرة تخففوا من المقدمات الغزلية فى بعض قصائدهم ، ودخلوا فى الموضوع الذى أرادوا الحديث عنه ولعل المتنبى فى قصيدته التى معنا يقدم لنا دليلا حيا على صدق ما قلناه .

وهل أتى النقاد المحدثون بشىء لم يأت به الأوائل ؟ انهم قالوا ان وحدة القصيدة تعنى وحدة الموضوع ، ووحدة الفكر فيه ، ووحدة

المشاعر التي تنبعث منه ، فهل خرج الشعراء الأوائل عن ذاك ؟ ان أي شاعر لا يكون كذلك الا اذا كان الهدف من وراء انشاده واحدا ، فاذا مدح أو وصف أو هجا ، فانه يضع هذا الموضوع نصب عينيه ، ثم يرتبه الى مجموعة أفكار كل فكرة لا بد أن يكون لها ارتباط بالموضوع حتى أن العرب لمسوا هذه الرابطة بين أبيات الفكرة الواحدة ، فيجب أن تكون الأبيات لصيقة لصوقا تاما ، وهو ما سمى عندهم بمراعاة النظير ، حتى ان أحد الشعراء قال لصاحبه يفتخر عليه ، « أنا أشعر منك ، قال : وبم ذاك ؟ قال لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه ، وهذا يعد خير شاهد على قولنا ان العرب فهموا هذه الوحدة ، وساروا عليها فى أشعارهم .

٣ — موسيقى الشعر :

أصدق وصف أطلقه النقاد المحدثون على الشعر أنه موسيقى ذات أفكار ، فاذا كان الانسان يطرب عند سماع قطعة موسيقية تهز أعطافه ، وتثير كوامن الشجن فى قلبه ، فانه يطرب — كذلك — عندما ينشد قصيدة ، أو يسمع شعرا ، فالشعر يؤدى ما تؤديه الموسيقى تماما ، وذلك لان النغمات الموسيقية الناتجة عن التفعيلات والأوزان لها دلالة خاصة تحدث التأثير الذى تحدثه الموسيقى ، ولقد فطن الشعراء العرب الى ذلك عندما بنوا أشعارهم على نظام التفعيلات التى تتألف منها قصائدهم ، والتى تتجمع لتؤلف لحنا موسيقيا منتظما أطلق عليه العروضيون اسم البحر ، يقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد « وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ، وحن اليه الروح ، ولذلك قال أفلاطون : لا ينبغى أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا ألا ترى أن أهل الصناعات كلها اذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان »

أمـا الدكتور ابراهيم أنيس فيقول : « للشعر نواح عدة للجمال أسرعها الى نفوسنا ما فيـه من جرس الألفاظ ، وانسجـام فى توالى المقاطع ، وتردد بعضها بعد قـدر معين منها ، وكل هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر ، ويستمتع الصغار والكبار بما فى الشعر من موسيقى ، ويدرك الطفل ما فيه من جمال الجرس قبل أن يدرك ما فيه من جمال الأخيلة والصور (١) ·

ولقد تحدث كثير من النقاد عن الأوزان الشعرية التى جاءت فى أشعار العرب ، والتى قعـد لها الخليل بن أحمد ، وقالوا : انها تطورت تطورا ملحوظا ، واستدلوا على ذلك بالأوزان الشعرية المستحدثة وبالموشحات ، يقول الدكتور محمد غنيمى هلال « ولكن يجدر بنا أن نقول ان الثورة على الوزن والقافية بدأت منذ القديم ، فقـد مل الشعراء النظم على وتيرة واحدة فى القصائد ، وتاقوا الى التنويع والتجديد ، فكان أهم تجديد فى ذلك هو الموشحات ، ثم يقول « والموشحات ثورة على نظـام القصيدة فى الأوزان والقوافى ، فعلى الرغم من أنهـا نظمت أولا فى البحور القديمة ما لبثت أن تحررت منها فى بحور كثيرة تألفها الأذواق ، ولكن لا عهد للعربية بها ·

٤ — الصـور الشـعرية :

وهناك أمر آخر عرض له النقد الحديث يتمثل فى الصورة الشعرية التى تضفى على الشعر جمالا ، وتزيده تأثيرا ، ولقـد اشترط أن تكون من وحى الجو النفسى وصدى له ، وعلى ذلك فان مجرد التشـبيهات التى لا تزيد على توضيح المشبه دون أن تحد ثأثرا فى النفس لا تعد من الصورة الشعرية فى شىء فقد رفضوا التشبيهات الحية التى لا تزيد

(١) د· ابراهيم انيس : موسيقى الشعـر ص ٨ ، ٩ مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧٨ ·

على مجرد الألوان وظهورها ، كما اشـــترطوا فى الصـــــــورة أن تكون متلائمة مع الجو النفسى الذى أوحى بها ، حتى لا تكون هناك انفصالية بين الشاعر وجوه النفسى كذلك اشترطوا أن تكون للصـــــــورة وظيفـــة عضوية مع تجربتها ، فهى لا بد أن تساعد على نمو التجربة ، وارتقائها « فالصورة الأدبية قد يتســـع نطاقها ، فتشمل العـــــدل الأدبى كله ، قصة كان أم مسرحية ، كما تطلق الصـــــــورة أيضا على جزيئات العمـــل الأدبى التى تؤلف وحدته ، والصورة أيضا فى كلتا الحالتين لها نموذجها الخارجى الذى هو مصدر دلالتها ، والصورة الجزئية فى الأدب تؤلف وحدة هى الصورة الكلية ، وهذه الصورة الكلية جديدة كل الجـــــدة فى الفن ، لانها لا وجود لهـــا فى مجموعها فى الطبيعة ، لان الفـــن لا ينقل الطبيعة كمـــا هى •

والصورة الجزئية فى الشعر والأدب بعامة كالألوان والخطوط فى الرسم لهـــا ماديتها وكثافتها ووضعها الخاص بها فى مجموع العمـــل الأدبى ، فهى أشياء فى ذاتها ، وتنحصر كل حقيقتها وقيمتها فى أنهـــا نموذج تتخيل من خلاله الصورة الحقيقية التى هى مدلوله الطبيعى » •

ولن نستطيع فى هذه العجـــالة أن نلم بجميع الآراء والنظريات التى يستخلص منها أن الصورة اما أن تكون كليـــة ، واما أن تكـــــون جزئية ، فالصورة الكلية هى التى تكون وحـــدة معينة ، أو فكرة خاصة يعرضها الشاعر علينا من خلال تجربته ، وتعتمد تلك الصورة على رسم حى مجسم لفكرته فيه الظـــلال المناسبة ، والألوان التى تبرزه لنـــا فى صورة حية وحركة دائبة تتعاون مع الصورة الكلية ، أو تكون أســـاسا لها صور جزئية تمثل الجوانب المتشعبة للصور الكلية •

واذا نحن حاولنا عرض قصيدتى الشاعرين : عبد الصمد بن المعذل والمتنبى على هذه المعايير السابقة وجدنا أننا أمام نصـــين لـــكل منهما

سماته وخصائصه ؛ حقيقة أن الغرض الذى تناوله الشاعران واحد « وصف الحمى » ؛ ولكن لكل منهما منهجه فى التناول ، وأسلوبه الذى عالج به موضوعه ، ومن هنا فان الشاعرين يجتمعان فى أمور ، ويختلفان فى أمور ، أما أوجه اتفاقهما فيتمثل فى تناول التجربة تناولا يضعها فى اطارها الذى حدده كل واحد منهما ترسم الصورة التى رآها تناسب تجربته ، ويتفقان فى أن كليهما سيطرت عليه فكرة استحوذت على جوانب قلبه ، وأحاسيس ذاته ، وأثرت على حياته فأدى هذه الفكرة ، ووضعها فى القالب الذى رآه مناسبا لحمل هذه الفكرة ؛ وتأثيرها فى قلوب سامعيه أو محبى فنه .

ثم انهما بعد ذلك يختلفان فى أن كل واحد منهما سلك نهجا خاصا فى طريقة المعالجة ، وكيفية الأداء ، ولا يمكن لاثنين أن يتفقا فى منهج واحد ، أو يتحدا فى فكرة بعينها ، فالمنهج والفكر هو الرجل ، ولا يمكن لرجلين أن يعالجا موضوعا ما بطريقة واحدة ، أو أسلوب يتفق وأسلوب صاحبه ؛ ومن هنا كان لابد لنا من الوقوف عند الرجلين نتبين الملامح البارزة فى قصيدتيهما ، حتى نقف على مدى ما وفق فيه كلاهما ، أو أخفق فيه أحدهما .

لقد بدأ عبدالصمد بن المعدل قصيدته بطرح تصوره عن الحمى المهلكة التى عبر عنها بقوله فى البيت الأول :

وبنت المنيـــــة تنتابنى هدوا وتطرقنى سحره

فعرض تجربته عرضا مباشرا دون التمهيد لأسباب هذه الحمى ، أو التعليل لمجيئها اليه ، ثم أخذ يعرض ما تحدثه الحمى فى الانسان

اذا وردت لـم يـدع وردهـا

عن القلب حجـب ولا سـترة

كأن لهـا ضرما فى الحشى

وفي كل عضـو لها جمرة

ثم تحدث عن ترددهـا عليه فى بيت واحـد ، ثم عاد بعد ذلك ليصف قدرتها الفائقة على التحكم فى الاجسـام والسيطرة عليهـا ، ثم وصف موقفه مع الحمى ، وحيلته فى عـدم ذكـر اسـمها ، حتى لا تسيطر على نفسه بعـد أن سيطرت على جسمه ؛ ثم تحدث عـن عملها فى جسمه ، وتأثيرها فيه بالاحمرار تارة ، والاصفرار تارة أخرى . ثم تحدث عن منعه من الطعـام ، وأنه اذا جاع أحس بتقطيع كبـده واذا شبع تألم من تضخم طحاله ، ثم صور حالته ساعة أن يرى انسانا صحيحا لا تفيده نصائح الأطباء فهو يأكل ما شاء أن يأكل ؛

هذه التجربة أداها عبد الصمد فى أسلوب وصفى ، لاترى فيـه عمق التجربة ، أو تحليل الاحداث ، بل أنه عرض لما يلم به من آلام عرضا سطحيا ، ثم أخذ يصف بعض الظواهر التى تنتاب المصاب بالحمى مـن تلوين جسمه ومنعه من الطعام ، ولذا فان القارىء يمكنه أن يدرك أن عمق التجربة غير واضح فى هـذه الابيات ، أو أن عبد الصـمد لم تسيطر عليه التجربة سيطرة تامة ، ولم يتمثلها تمثلا عميقا فجـاءت قصيدته على ما ترى من سرعة فى تناول الأحداث دون الوقوف عند كل حدث يحلل نتائجه ، ويبين ملامحه ؛

ولقـد جاءت الافكـار مضطربة مفككة لا ترابط بين أجزائها ، أو تسلسل أحداثها ، فأتت الأبيات لا يأخـذ بعضها بحجز بعض ، لان عبد الصمد تحدث عن خطورة الحمى فى البيت الأول والثانى والثالث ، ثم تحدث عن مواعيد مجيئها فى البيت الرابع ، ثم عاد فى البيت الخامس ،

ليصف قدرتها على التحكم فى أجسام الناس ، وكان يمكن مجىء هـذا البيت بعد البيت الثالث ، ثم بدأ يذكر لنـا بعض خواطره عن الحمى متنقلا من اهماله لهـا ، ومحاولته ابعاد اسمها عن لسانه الى منعه من الطعـام ، وأثر الجوع فى كبده ، وأن شبع فماذا يحدث لطحاله .

هذه خواطر متباينة أثبتها لنـا الشاعر ، ومر عليها مرورا سريعا — أيضا — ولو أن عبد الصمد تحدث لنـا عن الحمى ، وترقبه المستمر لمجيئها — كما صنع المتنبى — لجاءت أفكاره مرتبة منسقة ، تتضح فيها شاعرية الشاعر ، وقدرته على تحليل الأحداث ، وبيان آثارها ، ولكن عبد الصمد لم يصنع ذلك ، بل قصر جهده على وصفه للحمى فى سرعـة خاطفة ، وكأن هذا الألم ما لبث أن زال منه ولم يعاوده .

فالوحدة العضوية غير واضحة فى هذه القصيدة ، بل ان ما سماه العـرب مراعاة النظير غير باد هنا وانما هى لقطـات سريعة أثبتهـا الشاعر ، ليشكل منها صورة أرى أنها لا تنسجم ظـلالها ، ولا تستقيم خطـوطها .

وقد بنى عبد الصمد قصيدته على بحر المتقـارب (١) وهذا البحر وان كان العلماء وضعوه بين البحور التامة التفاعيل . الا أن أجـزاءه قريبة فى تماثلها ، وعـدم طولها ، فهى لا تزيد على خمسة أحرف مكررة ثمانى مرات ، ويقول الدكتور أمين سالم فى كتابه عروض الشعر العربى نقلا عن مجلة الشـعر ان هذا البحر يتميز بسرعة الايقاع وحدته نظرا لقصر وحدة ايقاعه « فعولن » . وسرعة تكرارها ، فهو يصلح فى المواقف الحادة الهادرة الغاضبة » (٢) .

---

(١) وتفاعيل هذا البحر هى — فعولن فعولن ، فعولن فعولن .

(٢) د. أمين عبد الله سالم — عروض الشعر العربى ص ٤٤ . مطبعة منجد الحديثة بنها — ج.م.ع .

ومن هذا التعريف أو التوصيف لطبيعة بحر المتقارب يمكننا القول بأنه لا يصلح للمواقف التحليلية الهادئة التى يقصد الشاعر اليهـــا عندما يريد الحديث عن مرض أصابه ، أو حالة نفسية لحقت به •

وقافية القصيدة لاتنم عن ألمه الذى كان يعانى منه ، لان القافية تحمل بين ثناياها حالة الشاعر وموقفه من السعادة والفرح ، أو الشقاء والمعاناة ، ولذا قالوا ان خليل مطران فى قصيدته « المساء » كان غنانا فى استخدامه القافية الطويلة المكسورة حرف الروى فهو يقول :

داء ألم فخلت فيه شفائى   من صبوتى فتضاعفت برحائى

فهو هنا أتى بالقافية التى تعطى للقارىء دليلا على مالحق به من آلام وأحزان ، والشعراء الكبار يلجأون الى التصريع فى أول قصائدهم، حتى يعطوا للقارىء دليلا على أن هذا اللون من الحـــديث الآتى سيضع فيه الشاعر كل ما يريده فالباب فيه مفتوح على مصراعيه لكن عبدالصمد لم يلجأ الى ذلك • فهل حذفت أجزاء من القصيدة ولم تصل الينا كاملة ؟ أو أن عبد الصمد كان منصرفا الى نظم المقطـــوعات دون نزوع الى نظم القصائد الطوال ؟ ، وأيـــا ما كان الأمر فان هذه القصيدة ، أو هـــذه الأبيات كانت ملهمة للمتنبى كى يقوم بتجربته فى وصف الحمى •

وهناك أمر آخر أردت التنبيه اليه ذلك أن عبد الصمد وان كانت الصورة الكلية عنده مضطربة — كمـــا قدمت — فان الصورة الجزئية — أيضا — قـــد أتت ضعيفة محدودة ، فلم يزد فى صـــوره الجزئية على الاستعارة التى بدأ بهـــا قصيدته فى قوله « وبنت المنية » حيث شـــبه المنية بامرأة تلد ، وقـــد ولدت بنتا تتمثل فى الحمى ، ثم استمر فى هذا التيار فى قوله « اذا وردت » فقـــد صورها بمن يرد ماء ، ثم جعلها

كالنار التي تلهب من يقترب منها فالحشا ملتهب بها مصطل بجمرها ، وهكذا كان شأنه في البيت الرابع والخامس ، وقد أتى التشبيه في بعض أبياته . فلم ينوع في صوره ولم يتنقل فيها تنقلا يوحى بقدرة فنية ، أو ملكة ابداعية ، لكننا لا نستطيع أن نعمم هذا الحكم على شعر عبد الصمد فله قصائده الوصفية التي أتت حافلة بالصور الجزئية التي تفيض حسنا وتمتلىء بهجة كقوله المتقدم في صفة الرياض والبساتين ، وهو مما أعجب به أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ولا بد أنه سيعجبك أيضا قوله :

مغاني من العيش الغرير ومعمر
ومبدى أنيق بالعذيب ومحضر
نما الروض منه في غداة مريعة
لها كوكب يستأنق العين أزهر
ترى لامع الأنوار فيها كأنه
إذا اعترضته العين وشى محبر

ويستمر عبد الصمد يتنقل في صوره ، أو تصويره للرياض والبساتين في أبيات تعد غاية في الروعة وآية في الجمال ، وإذا حاولت مراجعة هذه القصائد في صدر هذا البحث فانك ستقف على فرائد من الشعر الجيد المتقن ، أما وصف الحمى لعبد الصمد فانه لم يبرع فيها براعته في وصف الرياض والبساتين ، لكنه على أية حال وصف جديد في بابه حازبه عبد الصمد قصب السبق .

وإذا نحن حاولنا تطبيق المعايير السابقة على قصيدة المتنبي نجد أننا أمام نص اكتملت فيه جل عناصر التجربة ، فالشاعر قد قال هذا النص تنفيسا عن مكنون صدره ، ومخبوء فؤاده ، وابرازا لما اعتمل في

قلبه من آلام وأحزان ، فقد ترك سيف الدولة ورحل الى مصر ، ليجد عند واليها تقديرا لم يجده لدى سيف الدولة ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهى السفن ، فيكون المطل من كافور ، والحجر على تصرفاته ، فيصاب بصدمة نفسية تعاونت معها الحمى التى أصابته وجعلته قعيد الفراش ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان دسائس المغرضين ، وحسد الحاسدين كانا يلاحقانه ، فيوغران صدر كافور ، ويدفعانه إلى حبسه فى مصر لا يفارقها ، ولم يجد من أهل مصر ودا ، ولم يصادف لديهم حبا يخفف عنه مرضه ، والناس عنى دين ملوكهم ، فلم يزره منهم فى هذا المرض إلا القليل .

والمتنبى لم يألف هذه الحياة ، فقد كان دائم التطواف كثير المخاطرة ، جم المغامرة ، يحب التنقل ويعشق السفر فاذا به يجد نفسه لا يستطيع تحقيق آماله ، فتنتابه آلام نفسية ، وتحل به أمراض جعلت جسمه لا يحتمل أمراضا أخرى .

هذه الأشياء دفعته لانشاء قصيدته ، لتكون صورة حية معبرة عن جميع أمراضه النفسى منها والبدنى .

فقد بدأ قصيدته — كما تقدم — بالتبرم من حياته ، والضجر من اقامته فى مصر ، وكأنه يصارع كل من يريد اثناءه عن السفر والرحيل من مصر :

ذرانى والفلاة بلا دليل
ووجهى والهجير بلا لثام
فانى أستريح بذى وهذا
وأتعب بالاناخة والمقام

فيضان شعور وعميق ألم عبر عنهما المتنبى بهذا اللفظ «ذرانى»، وكأن قيودا تكبله ، وأغلالا تقيده ، فيحاول الخلاص منها •

ويؤكد المتنبى لسامعيه أنه سيكون آمنا فى رحلته مع رواحله اللائى يخففن عنه آلام السفر وعناء الوحدة ، وكأنه يقول مع القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذب الذئب اذ عوى
وصـــوت انســـان فــكدت أطـــير

ثم يبين لسامعيه أسباب رحيله ، والدوافع التى حدت به الى ذلك، ويصور ذلك فى أبيات يستطرد فيها الى ذكر المشـــاكل التى صادفها فى مصر ، والتى جعلته يفضل الرحيل على الاقامة بين قـــوم لا ينصرون مستنجدا ، ولا يقوون ضعيفا ، فهم يظهرون له الود والمحبة ، ويخفون بين جوانحهم البغض والكراهية ان أقبل عليهم هشوا ، وبشوا فى وجهه، وان أدبر عنهم أكلوا لحمه ، ونهشوا عرضه ، لقـــد اضطر المتنبى أن يعاملهم المعاملة نفسها ، حتى يرتدعوا عن أخلاقهم ، وسوء طباعهم •

هذه الأخلاق جعلت المتنبى يشك فى كل النـــاس ، ولا يطمئن الى صداقة أحـــد ، أليسوا جميعا بعض الأنام :

يذم لمهـجتى ربى وسـيفى
اذا احتاج الوحـيد الى الذمام

حـــتى يقـــول :

وصرت أشـــك فيمن أصطفيه
لعلمى أنـــه بعـــض الأنـــام

ويختم المتنبى هذه الفكرة بالقاء بعض الدروس الأخـــلاقية التى وجهها الى هؤلاء الناس ، فالواجب عليهم أن يكون حبهم له لا لغـــرض

أو هوى ، فالعقلاء هم الذين يحبون لذلك ، أما الجهلاء ، فانهم يحبـــون المظاهر ، ويحـلون للمنفعة ، انه يكره كل من يصـــنع ذلك حتى لو كان أخاه لأبيه وأمه ، وكأن المتنبى تصور أن بعض الناس سيعيب عليه هذا السلوك ، فقرر أن كثيرا من الأبناء لا تتأصل فيهم الصفات التى ورثوها عن آبائهم ، فقد تغلب عليهم صفات خسيسة تجعلهم يتصرفون تصرفا بعيدا عن الأخلاق الحميدة ، والصفات الكريمة التى كان آباؤهم يتحلون بهـــا .

والحر هـــو الـــذى يعـــتمد على نفســـه ، ولا يعتمد على آبائه وأجداده ، والعصامية تتطلب من الشخص أن يتطلع الى المعالى ، ويحاول الوصول اليها ، والانسان الذى يجـــد لديه القدرة على تحقيق آمـــاله ويتقاعس عنها هو الذى أحيط بجميع العيوب .

ولم أر فى عيوب النـــاس شيئا
كنقص القـــادرين على التمام

وبعد أن ينتهى المتنبى من ذكر بعض الآلام التى يعـــانى منها فى مصر نراه لا يكتفى بما عرض به فى الأبيات السابقة ، وانما يصرح بمرضه النفسى ، ثم بمرضه الجسمى ؛ ولقد لخص مرضه النفسى فى قوله :

اقمت بأرض مصر فلا ورائى
تخب بى المطى ولا أمـــامى

فقـــد أقام فى مصر مغمورا لا يتحرك الى الامام ، أو الى الخلف ، وهل هناك ألم أكبر من ذلك الذى أصابه فى مصر ؟ فقـــد جاء اليها راجيا نوالا مؤملا خيرا ، ولكن آماله قد تبددت ، وأحلامه قد تحطمت عـــلى صخور المكر والخـــداع .

... ... بى من ذكر ألمه النفسى الى تصوير ألمه الجسمى فى أبيات جاءت غاية فى الروعة ونهاية فى الجمال بدءا بقوله :

وملنى الفراش وكان جنبى
يمل لقاءه فى كل عام

الى أن يقول :

يقول لى الطبيب أكلت شيئا
وداؤك فى شرابك والطعام

وبين هذا التصوير الجميل ، والمعانى المعبرة عن الحمى ينفث المتنبى آلامه وادا لو استطاع الرحيل . ويسعفه فى ذلك بعض الأساليب الانشائية :

ألا يا ليت شعر يدى أتمسى
تصرف فى عنان أو زمام ؟
وهل أرمى هواى براقصات
محلاة المقاود باللغام ؟

وأخيرا يختم المتنبى قصيدته معلنا أن هذا المرض الذى أصابه لم يفل من غربه ، ولم يضعف من عزيمته لأن عظماء النفوس لا تؤثر فيهم الأحداث ، انهم يتغلبون عليها ؛ لانهم مؤمنون بقضاء الله وقدره .

فان أمرض فما مرض اصطبارى
وان أحمم فما حم اعتزامى
وان أسلم فما أبقى ولكن
سلمت من الحمام الى حمام

أما الوحدة العضوية فان القارىء للقصيدة يتبين فيها وحدة

الجو النفسى والشعورى . حيث ان القصيدة من ألفها الى يائها تمثـل الحـال النفسية التى تعرض لهـا الشاعر ، ألم الغربة . ومرارة الاخفاق وغداحة الحمى ، كل هـذه الأشياء اجتمعت على الشاعر ، فجعلته يعيش التجربة الشعورية لا يشت له فكر ، أو يند منه لفظ .

قدم المتنبى بمقدمة ضرورية لا نستطيع اغفالها ، فان المرض الذى أصابه لابد أن تكون له أسباب قوية أثرت فيه ، فجعلت المرض يدهمه ، ويؤثر فيه ، وأوشك القضاء على آماله وطموحاته . اذا كان الجـــزء الأول جاء تمهيدا لوصف الحمى فان المتنبى حاول فيــه أن يجمــع كل الأسباب التى أثرت فيه فكان — أحيانا — يستطرد ليذكر ما يحس به ، وما يتطلع اليه من سفر قاصد . وبلاد أخرى يحقق فيها ما يريد .

أما حـــديثه عن الحمى فقد أجاد فيــه اجادة تامة ، فقـــد رسم لنـا صورة حية عن الحمى التى مثلها بالزائره فأحاط بكل جوانب الصورة ، متى تزوره ؟ ومــاذا يقدم لها ؟ ولماذا لم ترض بكل ما قدمه ؟

ويستمر المتنبى فى تصوير متتابع ، وأسـلوب قوى محـــكم فاق الجميع ، وهز أعطاف السامعين .

ويختم القصيدة بحديث عن عزيمة قوية يحلى بها ، وارادة فتية لا تعرف اليأس والقنوط ، وكأنه يقاوم المرض ، ويصارع الشامتين .

واذا نحن حاولنا التعرف على موســيقى القصيدة فاننا نرى أن المتنبى فارس فى هذا الميدان لا يشق له غبار ، فقد أغــرم باختيـــار الأوزان التى تناسب غرضه ، والقوافى التى توائم موضوعه .

وقصـــيدة المتنبى عن البحر الوافر وأجـزاؤه (مفاعلتن) ست مرات ، وقد اعتاد العــرب (فى كثير من شعرهم) اســتخدام البحور

الطويلة المتعددة التفعيلات فى عظائم الأمور ، وكبريات الأحـــداث [illegible]
تتبعنا شعر المتنبى ـــ مثلا ـــ فى وصف قلعة الحدث ، او فى مد[illegible]
الدولة ووصف انتصاراته ؛ أو فى قصائده التى يعتب به[illegible]
فاننا نجده يستعمل البحور التى تكثر فيها التفعيـ[illegible]
شعراء الجاهلية ، وصدر الاســـلام [illegible] القصـ[illegible]
فقد استعملوها فى الغزل ، لأنها تناسب [illegible]

وقـــد جاءت قافية القصيدة على [illegible]
(كلام ـــ لئام ـــ مقـــام) ، وأيضا فان مجئ القافية [illegible]ــــورة ، فيه
دليل على نفسية الشاعر المحطمة ، وحالته [illegible] •

وقد استعمل المتنبى التصريع فى القـ[illegible]ـة ، وهو [illegible]
الموسيقى الظاهرة ، فالقصيدة المصرعة هى التى يتـ[illegible] فيها حـــرف
العروض والروى ، فالميم فى أول بيت قـــد جاء أيضا فى الروى •

هذه هى الموسيقى الظاهرة أما الموسيقى الداخلية والتى تعتمد
على اختيار الألفاظ وحسن تنسيقها فقـــد جـــاءت فى القصيدة حزينة
هادئة تدركها فى هذه الألفاظ والملام ـــ ذرانى ـــ الفلاة ـــ حـــرت ـــ
بغير هاد ـــ اذا احتاج الوحيد الى ذمام « فهى معبرة عن حزنه وتبرمه
بمن يحيطون به دالة على ما يعانيه من آلام وأسقام » •

وقـــد جاءت القصيدة حافلة بالصور الأدبية مليئة بمختلف ألوانها ،
ولكنها صور جزئية باستثناء وصف الحمى ـــ تتمثل صـــوره فى التشبيه
والاستعارة والكناية ، واليك بعض الصور التى جاءت فى القصـــيدة :
فقـــوله :

عيون رواحلى [illegible]ان حرت [illegible]
[illegible]كـــل بغـــام [illegible]رازحـ[illegible]ـة بغام

فقد صور رواحله ، وكأن لها عقولا لا تفهم بها الطريق ، وتعرف بهـا مسالكها ودروبها ، فاذا تحير فان عيون رواحله تنوب عنه فى ازالة حيرته دون ارشـاد أو توجيه ، وزيادة فى التمثيل جعل صوت النـاقة الذى ترسله من الاعياء صوته ؛ فهو الذى يقوم مقامه فى اعلان مقدمه .

وقد جاءت الكناية قوية معبرة فى قوله « وليس قرى سوى مخ النعام » فان النعـام لا مخ لهـا ، وهـذا كناية عن نفاد زاده ، أنـه يفضل الاقامة جائعا لا زاد له عن نزوله فى ساحة بخيل ، وقوله :

عجبت لمـن لـه قـد وحـد
وينبو نبوة القـضم الكهـام

فان الشـاب الذى يتمتع بجسم قـوى ، وارادة فتية ، وعزيمة نفـاذه يجب عليه أن يستعمل كل ذلك فى الوصول الى ما يريد .

وقـد جـاء التشبيه واضحا فى قوله :

ولم أر فى عيوب الناس شيئا
كنقص القادرين على التمـام

والكناية واضحة أيضا ــ فى قوله :

أقمت بأرض مصر فـلا ورائى
تخـب بى المطى ولا أمـامى

كناية عن أنه لزم الاقامة فى مصر ، لا تسير به الابل الى الخلف ، أو الى الأمام ، أو كناية عن أنه لم يحقق شيئا مما يتمنى ويرجو .

وقـد جاءت الاستعارة ــ أيضا ــ فى قوله : « وملنى الفراش » تخيل أن الفراش له عقل يدرك به الأمور ، فأصبح يمل المقيم عليه » .

أما قوله :

وزائرتى كأن بها حياء
فليس تزور الا فى الظلام

فقد شبه الحمى بامرأة تزوره ، وقد أسعفه التشبيه أيضا فى قوله « كأن بها حياء » ، وتوالى الصور عليها دون كد ذهن ، أو اعياء عقل :

فقوله :

اذا ما فارقتنى غسلتنى
كأنا عاكفان على حرام

وقوله :

كأن الصبح يطردها فتجرى
مدامعها بأربعة سجام

صورة رائعة ، فقد أتى بالتشبيه أولا ، ثم الاستعارة الاولى فى تخييله المطاردة التى وقعت بين الصبح والحمى ، ثم الاستعارة الثانية فى تصويره حلول الهزيمة بالحمى فأضحت تبكى بكاء مريرا ، وجعلت مدامعها ترسل سيلا من الدموع .

وانظر اليه عندما يريد ملاطفة الحمى ، فلا يذكر اسمها ، وانما كنى عنه بقوله :

أبنت الدهر عندى كل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحام

ثم أنظر الى هذه الصورة الجميلة التى يرد بها ادعاء طبيبــه بأن المرض ناشىء من تناول طعام فاسد ، أو شراب ملوث .

وما فى طـبه أنى جـــواد
أضر بجســمه طـول الجمام

انه كالجواد الذى أنهكه القيــد ، وأضر بجسمه عدم الجريان ، ويستمر فى رسم صورة تمثيلية للفرس الذى تعود أن يغبر فى السرايا ، ويدخل من قتام ، والذى أمسك لا يطــال له فيرعى ، ولا هو فى العليق ولا اللجام .

وهكذا يقدم لنا المتنبى رائعته فى وصف الحمى التى لم يســتطع أحــد أن ينكرها عليه ، حتى خصومه الذين رموه بالسرقة أعجبوا بها أيما اعجاب ، لذلك فان صاحب الوساطة يقول « وهــذه القصيدة كلهــا ممتازة لا يعلم لأحــد فى معناها مثلها ، والأبيات التى وصف فيها الحمى أفراد قــد اخترع أكثر معانيها وســهل فى ألفاظها فجــاءت مطبوعة مصنوعة وهذا القسم من الشعر هو المطمع المؤيس .

ولعل القارىء يدرك بعد هذه الجولة التى جلناها فى شعر الشاعرين عبد الصمد بن المعذل والمتنبى انه يمكننا أن نخرج بنتائج لها دورها فى فهم هذين النصين :

١ ـــ كــان عبد الصمد بن المعــذل أســبق من المتنبى فى وصف الحمى ، فقــد عاش عبد الصمد فى القرن الثالث الهجرى ومات سنة ٢٤٠

---

(١) القاضى الجرجانى . الوســاطة بين المتنبى وخصومه ص ١٢١ المصدر السابق .

هجرية ، أما المتنبى فانه عاش فى القرن الرابع الهجرى ومات سنة ٣٥٤ هـ .

٢ ــ اشترك الشاعران فى بعض الأمور ، فقد اشتركا فى تصوير فداحة ما تصنعه الحمى بمن تلم به غاذا كان عبد الصمد قد قال عنها :

وبنت المنيــة تنتــابنى
هــدوا وتطـرقنى ســحرة

فصور فى بيت واحد فداحة ما تحدثه الحمى ــ فى جسم من تلم به حتى انها لصيقة بالمنية ، ثم صور مواعيدها التى تأتى فيها « تطرقنى هدوا ، وتنتابنى سحرة » فان المتنبى قال فى هذا المعنى :

أبنت الـدهر عندى كـل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحـام

فكان عميقا فى فهمه لدور الحمى ، وأضاف معانى جـديدة ، فهــو عنده مصائب كثيرة ، وأمراض خطيرة حتى انها تزاحمت عليه ، وهـــو يتعجب ، لأنها استطاعت الوصول اليه .

أما حديثه عن مواعيد مجيئها فان المتنبى قال عن ذلك :

وزائرتى كـأن بهــا حـياء
فليس تزور الا فى الظــلام

ثم صور موعد ذهابها فى هذه الصورة الجميلة :

كأن الصـبح يطردها فتجرى
مدامعها بـأربعـة سـجام

٣ — وقد اختلف الشاعران في طريقة التناول ، وقد كان المتنبي بارعا في تناوله لوصف الحمى ، فقـد مهد لهذا الوصف تمهيدا جعل القارىء يتابع أحداث التجربة ، ويتصورها ، وكأنه يعيشها ، أو كأنه يتمثلهـا في نفسه وقد كان المتنبي دقيقا في تناوله لأفكاره فقد رتبهـا ترتيبا ينم عن خبرة فنية عالية ، حيث إنه جعل الأحداث تتابع تتابعا منطقيا حتى وصل الى قمة التجربة عند حديثه عن الحمى وتصويرها الذي مر بك ، وفنية المتنبي العالية أيضا اتضحت في صوره التي رسمها ، والألوان التي جمل بها هذه الصـور ، أو الظلال التي أضفاها على صوره ، ولعل ذلك ما دفع الاستاذ عباس حسن — عندما حاول عقـد لواء الشعر على مفرق شوقي ، ونزعه من فوق رأس المتنبي أن يعلن عندما ذكر قصيدة المتنبي في وصف الحمى أن هذه القصيدة فريدة في مبناها ومعناها فهو يقول : « وقد يبدو للقارىء المتسرع أن هذه الأبيات وما سبقها في الحرب نوع من الأدب الذاتي الذي لا يمثل غير صاحبه ، ولا يصف الا شعوره،ولكن المتلبث يراها أدبا عاما وان قيل في أحوال خاصة بصاحبه ، فان لهـا أشباها ، ونظائر كثيرة من أحوال الناس » (١) .

وينقل الدكتور احسان عباس رأي ابن جني في المتنبي فيقـدم له بقوله : « فقـد كان ابن جني صديقا لأبي الطيب ووثيق الصلة بـه ، معجبا بشعره ، أو أن شئت فقل — معجبا بسمته الشعري ، لانه جـاد فيما يعانيه ، يلزم طريق أهل العلم فيما يقوله ويحكيه ، ويحمله اعجابه على تجاوز الاعتدال في الانحاء على الخصوم : حتى لتسمعه يقـول : (وما لهذا الرجل الفاضل من عيب هؤلاء السقطة الجهال ، وذوي النذالة

---

(١) الاستاذ عباس حسن : المتنبي وشوقي وامارة الشعر ص ٣٥ المرجع السابق .

والسفال الا أنه متاخر محدث ، وهل هـذا لو عقلوا الا فضيلة لـه ، ومنبهة عليه ، لانه جـاد فى زمان يعقم الخواطر ، وبصدىء الأذهان ، فلم يزل فيه وحـده بلا مضاه يساميه ، ولا نظير يعاليه ، فكان كالقارح الجـواد يتمطر فى المهامه الشـداد لا يواضح الا نفسه ، ولا يتوجس الا جريسه » ولكن هذا الاعجاب لم يكن ليحجب عن عينى ابن جنى أن فى شعر المتنبى صعوبتين : احداهما : تعسف فى بعض ألفاظه خـرج بها عن القصد فى صناعة الاعراب اذ جاء بالشاذ ، وحمـل على النـادر » والثانية عمق فى معانيه يتطلب أعمال الفكر ، وطول البحث ، وتكـرار التأمل ، لأنه شاعر يخترع المعانى ، ويتغلغل فيها ويسـتوفيها » (١)

دكتور عبد المنعم أحمد يونس

---

(١) د. احسان عباس : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٢٧٨ ط دار الثقافة بيروت ـ لبنان .

شعر الغزل في العصر الأموي

بين المنهج الأخلاقي والتيار المادي

دكتور عبد المنعم يونس

حمداً لك اللهم على ما أنعمت ، وشكرا لك اللهم على جميل فيضك ، وعظيم انعامك تفضلت ، وأرشدت ، وسددت ، وصلاة وسلاما على صفوة خلقك ، وخاتم رسلك محمد — صلى الله عليه وسلم — وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم باحسان • وبعـد ••••

فهذا بحث أعرض فيه للون من ألوان الشعر هفت لسماعة القلوب ، وطربت لنغماته الأحاسيس ، انه الفن الذى يتحـدث به الشاعر الى المرأة ، أو عنها ، أو معها ، فهو فن العاطفة الجياشة ، والشعور المتأجج ، قد يسمو الشاعر بنغمه الملائكى فيدرج به فى مدارج راقية ، وقد ينحدر الشاعر بعبقريته ، فيسلك به مسالك المـادية المسيطرة ، فيهوى الى ظلمات بعضها فوق بعض •

وقد أولى الباحثون — قدامى ومحدثين — هذا اللون جانبـا من بحوثهم ودراساتهم فتشعبت الآراء ، وتباينت المذاهب والاتجاهات ، مما يجعل القارىء يتطلع الى كلمة تجمع ما تفرق ، وتجلو ما غمض ، وتكشف ما خفى فى منعطفاته وزواياه •

وسأحاول فى هذا البحث — على الرغم من ضيق المساحة المحددة له — أن أقوم بتغطية هذا الجانب ، وأن أسهم بنصيب فى بنيان صرح الشعر ، وهو أمر أرجو أن أوفق فيه •

ان الذى يحاول استنطاق المصادر القديمة التى وضعت توصيفا للشعر العربى يجدها قد وجهت جل عنايتها للتفريق بين أغراض الشعر من وصف ، أو مدح ، أو رثاء ، أو هجاء ، وعندما تحدثت عن الغـــزل وضعته حينا تحت هذا الاسم ، وحينا تحت اسم النسيب ، وفى أحيان كثيرة لم تفرق المصادر بين الغزل والنسيب .

فقدامة بن جعفر عندما أراد التفريق بين الغزل والنسيب قد خانه التوفيق ، ومن يقرأ حديثه فى كتابه نقد الشعر عن حد النسيب ، والفرق بينه وبين الغزل يجد اضطرابا فى التعبير حتى لا يكاد يتبين فرقا بينهما ، فهو يقول : « ان النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن ، وقد يذهب على قوم ــ أيضا ــ موضع الفرق بين النسيب والغزل والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى اذا اعتقده الانسان فى الصبوة الى النساء نسب بهن من أجله فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه » (١) .

فالغزل عند قدامة أمر كامن فى النفس لا يظهر أثره الا فى النسيب ، فالشعر الذى يذكر صـــفات النساء ، وأحوال المحب معهن هو النسيب الناتج عن تأثير الغزل فى قلب الشاعر ، وعلى ذلك جاء قوله : « والغزل انما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء ، ويقال فى الانسان انه غزل اذا كان متشكلا بالصورة التى تليق بالنساء ، وتجانس موافقاتهن لخلاجته بالوجه الذى يجذبهن الى أن يملن اليه ، والذى يميلهن اليه هو الشـــمائل الحلوة ، والمعـــاطف الظريفة والحـــركات اللطيفة ، والكلام المستعذب ، والمزاج المستغرب » (٢) .

---

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٣٤ تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجى . مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٣٤ المصدر نفسه .

ثم يقول عن النسيب : « فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة » ثم يقول : « وقــد يدخل فى النسيب التشوق والتذكر لمعــاهد الأحبة بالرياح الهابة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة » .

فكلام قدامة بن جعفر عن الغزل لا يختلف عن النسيب ، فكلاهما ــ أى الغزل والنسيب ــ بحاجة الى أن يجتذب النساء اليه ، وأن يميلهن نحوه ، وما كثرت فيه الأدلة على التهالك ، وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة » فكل هذه الصفات يتصف بها الغزل والنسيب ، وهو ما يعنى عدم الفرق بينهما .

أما ابن رشيق فانه يعقد بابا للنسيب يقول فيه : « حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها قريب المعانى سهلها غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى بين الايثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين » (١) .

ثم ينتقل ابن رشــيق بالمعنى نقلة أخــرى فيفرق بين النسيب والتغزل والتشبيب ، وبين الغزل فيقول : « والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، أما الغزل فهو الف النساء ، والتخلق بما يوافقهن ، وليس مما ذكرته فى شىء ، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ » (٢) .

---

(١) ابن رشيق القيروانى : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ١١٦ .

(٢) ابن رشيق القيروانى : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ ٢ ص ١١٧ المصدر نفسه .

فقد فرق ابن رشيق بين الغزل والتغزل ووافق قدامة فيما ذهب اليه من ذكر النسيب والغزل لكنه قد أتى لنا بمعنى آخر هو التشبيب الذى يعنى الحديث عن المرأة .

ومن كلام قدامة وابن رشيق يمكننا أن نقرر أن النسيب هو ذلك اللون من الشعر الذى تفتتح به القصائد ، وهو ما سار عليه شعراء العصر الجاهلى وصدر الاسلام فى افتتاح قصائدهم بالحديث عن المرأة ، وذكر أحواله معهن ، حتى ان ابن رشيق يقول : « من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل منه فان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أجزائه ببعض » (1) .

والأمثلة التى ساقها ابن رشيق تختلف من حين لآخر ، فهو أحيانا يسوق أبياتا كاملة ، ويضعها تحت باب النسيب ، وأحيانا يذكر افتتاحيات قصائد لبعض الشعراء ، ويضعها تحت باب النسيب أيضا ، فكأنه اصطلح على أن التغزل أو الغزل ، والنسيب ، والتشبيب بمعنى واحد .

وقد صنع ذلك قدامة بن جعفر ، فهو يقول : « فأما النسيب نفسه فقد تقدمت أوصافنا له ، ثم يقول : « ومما أختم به القول أن المحسن من الشعراء فيه هو الذى يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذى وجد حاضر أو داثر أنه يجد ، أو قد وجد مثله ، حتى يكون الشاعر فضيلة الشعر .

ثم يقول فمن ذلك قول أبى ضمر الهذلى يصف ما رأى أن كل متعلق بمودة يجد مثلة قوله :

---

(1) ابن رشيق القيروانى : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ ٢ ص ١١٧ المصدر نفسه .

أما والذى أبكى وأضـــحك والذى
أمات وأحيـــا والذى أمره الأمـــر
لقـــد كنت آتيها وفى النفس هجرها
بتـــاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجـــر
فمـــا هـــو الا أن أراها فجـــــاءة
فأبهت لا عـــرف لـــدى ولا نكـــر
وأنسى الذى قـــد كنت فيه هجرتهـــا
كمـــا قد تنسى لب شـــاربها الخمر

ثم يقول : « وفى هذه القصيـــدة أيضـــا موضع آخر دال على افراط المحبة ، يبين عن محبة فى أهل الهوى عاما وهو قوله :

ويمنعنى من بعض انكار ظلمها
اذا ظلمت يـــوما وان كان لى عـــذر
مخـــــافة أنى قـــد عرفت لأن بـــدا
لى الهجر منها ما على هجـــرها صبر
وانى لا أدرى اذا النفس أشرفت
على هجــــرها ما يفعلن بى الهجـــر

ثم يقول : « وكما قال الشاعر :
يـــود بأن يمسى ســـــقيما لعلهـــا
اذا ســـمعت عنه بشـــكوى تراســـله
ويهتز للمعـــــروف فى طلب العـــلى
لتحمـــد يوما عنـــد ليلى شـــــمائله

ثم يقول : « فهو من أحسن القول فى الغزل ، وذلك أن هذا الشاعر قد أبان فى البيت الأول عن أعظم وجد وجده محب ، حيث جعل السقم

أيسر ما يجد من الشـــوق فانه اختـــاره ليكون ســـــبيلا الى أن يشفى بالمراسله ، فهو أيسر ما يتعلق به الوامق ، وأدنى فوائد العاشق » (١) .

ولعل القارىء لهذا الكلام يرى أن قدامة قـــد استخدم الغـــزل والنسيب بمعنى واحـــد ، وهو ما اضـــطرب فيه عنـــد تعريفه للغزل والنسيب ، وهذا ما يجعلنا نميل الى ان هذه المسميات التى استخدمها هؤلاء العلماء انما هى مسميات لاسم واحد هو الغزل ، وعلى ذلك جاءت نظرة المتأخرين الذين نظروا الى هذه الكلمات الثلاث على انها تعبر عن معنى واحد هو الغزل ، فقد أطلقوا الغزل على كل شعر يذكر النساء ، ويصف أحوال الهوى معهن ، فجعلوا الغزل غرضا من أغراض الشعر ، فهو قسيم المدح والهجاء والفخر والرثاء .

واذا حاولنا تبين وجهات نظر الباحثين المحدثين فاننا نجد أنهم حينا حاولوا التفريق بين الغزل والنسيب ، وأحيانا أطلقوا الغزل على الغرض العام الذى يذكر فيه الشاعر المرأة ، فالأستاذ الرافعى يفرق بين الغزل والنسيب فيقول : « ليست هاتان الكلمتان مترادفتين بالمعنى الاخص كما جرى فى عرف الناس ، ولكن بينهما فرقا نبه عليه قدامة » (٢)

وبعد أن يذكر جانبا من حديث قدامة بن جعفر عن الغزل والنسيب ، وحد النسيب الذى بينه قدامة يقول : « لا جرم كانت هذه الأخلاق التى يحلو بها النسيب ، ويعذب الغزل غير صريحة فى البداوة ، ولا خالصة فى تلك الخشونة الفطرية التى طبع عليها العرب فى جاهليتهم ، فكان نسيب شعرائهم قليلا بمقدار تلك الأخلاق التى انسلخت عن الطبيعة العربية،

---

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٣٦ ، ١٣٧ المصدر نفسه .

(٢) مصـــطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العـــرب جـ ٣ ص ١٠١ مطبعة الاستقامة ١٩٥٠ م .

وتحولت عن صميمها بما فيها من المــادة الحضرية المو
فان أول من تعهر فى شعره من العرب ، وشبب بالنس
امرؤ القيس باجماع الرواة » (١) .

فقد أورد الأستاذ الرافعى الكلمات الثلاث فى
والذى يقرر فيه أن الجاهليين لم يكثر ذلك اللون فى
مثــالا لذلك بامرىء القيس الذى تعهر فى شعره
فالغزل والنسيب والتشبيب قد اجتمعت كلها فى
وهو أمر يجعلنا نطمئن الى أن هــذه المسميات تد
واحدا ، أو يضمها جميعها اسم الغزل .

ولم يعرف الشعر الجاهلى شعراء صرفوا
أو اتجهوا بشعرهم الى المرأة دون سواها ، وا
ذلك اللون فى شعرهم كثيرا ، أو حفلت حياتهم
أبانوا فيها علاقاتهم النسائية ، ومغامراتهم ا
هذه القصص واقعية أم خيالية فانها قدمت ا
تمثل فى ذلك الشعر الذى بقى تعبيرا عن تلك
لم ترعو الا بعد ان صرفوا عنها مرغمين .

فالأعشى مثلا كان شغوفا بالنساء ، م
يعشق القيان والغناء ، وكان يحب التغنى ب
ولم ينصرف عن حياته اللاهية الا عندما ود
ولقد أثبت صاحب الأغانى بسنده أن الأعش
الرسول — صلى الله عليه وسلم — وكا

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١

ألم تغتمض عينــاك ليــلة أرمــدا
وعادك ما عــاد الســليم المســـهدا
وما ذاك من عشق النســاء وانمــا
تناســيت قبل اليــوم خلة مهــددا

وفيها يقــول :

فآليت لا أرثى لهـــا من كـــلالة
ولا من حفا حتى تــزور محمـــدا
نبى يـــرى مالا تــرون وذكـــره
أغار لعمــرى فى البــلاد وأنجــدا
متى ما تنــاخى عنــد باب ابن هاشم
تراحى وتلقى من فواضـــله يــدا

يقول صاحب الأغانى : « فبلغ خبره قريشا فرصدوه على طريقه، وقالوا : هذا صناجة العرب ما مدح أحدا قط الا رفع فى قدره ، فلما ورد عليهم قالوا له : أين أردت يا أبا بصير ؟ قال : أردت صاحبكم هذا لأسلم • قالوا : انه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ، ولك وامق قال : وما هن ؟ فقال أبو سفيان بن حرب : الزنا • قال : لقد تركنى الزنا وما تركته » (١) •

فهو اذن قد ترك هذه الخلة عند ما لم يجد لديه القدرة عليها •

وكذلك فعل امرؤ القيس الذى كان مضرب المثل فى خلاله هذه عندما قتل أبوه وقال « ضيعنى أبى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا ، لا صــحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر » •

---

(١) أبو الفرج الأصــفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ١٢٥ ، ١٢٦ الطبعــة المصورة عن طبعة دار الكتب «تراثنا» •

لم يكن للجاهليين معالم واضحة فى شعر الغزل ، وانما هى أبيات يقولها الشاعر بادئابها قصيدته ان كان من المتعقلين ، أو ذاكرا بهـا أوقات لهوه ، وساعات صبوته ان كان من المتعهرين : « فقد كان غزل الجاهليين لهوا يصف فيه الشعراء : كيف كانوا يحفلون باللذائذ الحسية من الحبيب ، وكيف كانوا يؤدون فيه ما يجب للشباب ، ويسيمون فيه سرح اللهو ما سنحت الفرصة ؟ حتى اذا ولى عهد الصبا ارعوى الرجل منهم عن ذلك الباطل من اللهو ، وعده مجونا لا يستقيم وجد الحياة ، وهذا ما يعبر عنه دريد بن الصمة فى رثاء أخيه :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأســه
فلمـا علاه قال للبــــاطل ابعـد

وقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعـــرى أفراس الصــــبا ورواحله

ولم يعد الغزلون من الجاهليين — فى جملتهم — تلك النظرة الى الغزل من أنه ضرب من اللهو بغية الحصول على متع الحياة ، والظفر بلذاتها ، ولذا ترى شعراءهم يتحدثون عن الحب الذى ينشر على الشباب المرح ، وعلى الحياة السرور ، ويأسفون على ضياع تلك الحقبة الطيبة من العمر ، ويبكون بقايا ذكراها فى النفس كما يبكون آثارها فى أطلال ديار الحبيب ، فاذا فرغوا من ذلك فى أول قصــــائدهم — وسرعان ما يفرغون — انصرفوا عن هذا الغرض الى أغراض القصيدة الأخرى التى هى فى نظرهم أجدر بمكانة الشاعر ، وأدعى لأن يتوجه اليهاهم الرجال » (٢) •

---

(١) د• محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ١٩ ط دار نهضة مصر •

ومن يقرأ تحليلنا لصورة المرأة عند الشعراء السبعة (١) يجد ان أظهر شاعر صرف كثيرا من شعره الى التعهر ، وذكر أحواله مع النساء كان امرأ القيس ، أما الشعراء الستة فان نسيبهم كان نسيبا فيه جانب من العفاف والفضيلة ، حتى ان الأستاذ الرافعى بعد أن تحدث عن تعهر امرىء القيس ، ومهلهل بن ربيعة يقول : « ولم يجىء بعد هذين الشاعرين من يتهالك فى غزله غير النابغة الذبيانى ، وقد أفحش فى بعض نسيبه افحاشا كأنه رومى أو فارسى ، لطول ما صحب المناذرة والغساسنة أما سائر الشعراء من العرب فكانوا على سنة قومهم من الغيرة والأنفة ولذلك ظهر النسيب فيهم طبعيا ، فقامت فيه الطلول والآثار ، وتشوقوا بالرياح الهابة ، والبروق اللامعة ، والحمائم الهاتفة ، والخيالات الطائفة ، وبكوا على آثار الديار العافية ، وأشخاص الأطلال الدائرة .

وهم اذا وصفوا محاسن النساء ، لم يزيدوا على الأوصاف الطبعية التى تقع عليها الأعين اذ كن غير مقصورات ولا محجوبات، وانما تجىء طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتبارا طبعيا كالذى تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر ، وخضرة الرياض ، وأريج الأزهار ، ونحو ذلك، وأظن أن اجماع الناس كافة على اختلاف أممهم فى تشبيه الحسن النسائى بتلك المعانى انما جاءهم من ذلك الاعتبار ، لأنه فيهم أرث الطهارة الطبعية من لدن الانسان الأول ، ولذلك السبب عينه لم تألف العربية أن توصف محاسنها ، لأن الحسناء فيهم (صفة) نفسها ، وانما كان الشأن فى ريبة النظر ، ودنس الفؤاد ، وذلك الذى يستطير له الشر بينهم ، وتعقد عليه الغارات ، فهو غزل الأسنة لا غزل الألسنة ، وهو — أيضا — كان السبب فى أن النسيب لم يغلب على شعر واحد

---

(١) انظر للكاتب : صورة المرأة العربية فى السبع الطوال ٠ ط مطبعة الأمانة ١٩٨٥ م ٠

من شعرائهم ، فيعرف كما عرف قوم بالهجاء والمديح وغيرهما ، وعلى أن هذا النسيب كان نوعا من أنواع الوصف فهو كذلك لم يتميز به شاعر تميزة بالأوصاف الأخرى » (١) .

ولا بد أن نقف عند قضية أخرى — أيضا — حتى يمكننا أن نضع تصورا للنسيب الذى درج عليه الشـعراء الجـاهليون فى افتتاحيات قصائدهم ، ذلك أنهم كانوا ينظرون الى المرأة نظرة تجعلها تتمتع بجانب كبير من التقدير والاحترام ، والقارىء لقصائد الشعراء السبعة — عدا امرىء القيس — يرى ذلك واضحا فى شعرهم ، فهم جميعا يحرصـون على صيانة صواحبهم ، ويعلنون عفافهن لأن المرأة العربية كانت تعشق هذه الصفات ، فهى تحس أن الرجل وان أحب من المرأة تبذلا ، وفحشا الا أنه لا يحب الاقتران بامرأة لا تتحلى بالعفة ، ولا تتمتع بالطهـر والمنعة فهذا سليك بن السلكة يقول :

من الخضرات لم تفضـح أخـاها
ولـم ترفـع لوالدها شـنارا
يعـاف وصـال ذات البـذل قلبى
واتبـع المنعـة النـوارا

فالعرب يحبون المرأة التى تضرب عفتها حجابا بينها وبين الناس ، فلا يستطيع أحد الوصـول اليها أو العبث بها ، والمرأة العفيفة التى تحفظ غيبة زوجها ، وترضى أوبته وحضـوره ، وهذا المعنى هو الذى لمسه علقمة بن عبدة الفحل عندما قال :

ممنعـة ما يسـتطاع كلامهـا
عـلى بابهـا من أن تـزار رقيب

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١١١ — ١١٢ المصدر نفسه .

اذا غاب عنها البعل لم تفش سره
وترضى اياب البعل حين يئوب

وقد كانت الحرة فى العصر الجاهلى تكره الزنا ، وترى فيه لونا من اهدار الكرامة والنزول بها الى درجة السبايا ، وقد قيل ان هندا بنت عقبة أنفت منه أمام رسول الله — صلى‌الله‌عليه‌وسلم — عندما تلا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على النساء اللائى بايعنه « ولا يزنين » فقالت هند : « وهل تزنى الحرة » ؟ وهو استفهام يعطينا مدلولا على أن الزنا كان مبغضا الى الحرائر من النساء .

الغزل فى صدر الاسلام :

وقد كان الشعراء فى صدر الاسلام ينهجون نهج الشعراء الجاهلين ، فلم يكن لشعر الغزل شعراء تفردوا فيه ، أو وجهوا عنايتهم نحوه ، وانما أتى النسيب فى افتتاحيات قصائدهم ، وكان منهم من يكثر من ذلك فى أول قصيدته ، ومنهم من يلزم جانب الاعتدال ، ومنهم من يبدأ قصيدته دون أن يقول شيئا من النسيب .

والمتتبع لدواوين الشعراء الذين عاصروا عهد النبوة ، وما تلاه من عصر الخلفاء الراشدين يرى أنهم بدأوا قصائدهم بما قدمنا حسبما تفرضه عليهم الأحداث ، وتتطلبه منهم المواقف فحسان بن ثابت بدأ قصائده حينا بالنسيب فقال :

عرفت ديار زينب بالكثيب
كخط الوشم فى الورق القشيب

وقال أيضا :

عفت ذات الاصابع والجواء
الى حسناء منزلها خلاء

وفى أحيان كثيرة كان يبدأ قصائده بالدخــول فى غرضه مباشرة ، وخاصه تلك القصائد التى رد بها على المشركين ، وانتصر فيها للمسلمين ، وصنع صنيعه هذا كعب بن مالك الأنصارى وعبد الله بن رواحه، ولايقولن قائل ان هؤلاء الشعراء صنعوا ذلك ، لأنهم كانوا يقولون الشعر أمام رسول الله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ فتحرجوا من قول هــذا الشعر حياء منه ، أو اعتقادا منهم أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينهى عن ذلك اللون من الشعر ، لأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلم أن هذا هو منهج العرب فى قصائدهم ، فسمع الشعر ــ كل الشعر ــ من هؤلاء الشعراء ومن غيرهم ممن يؤثرون بدء قصائدهم بالنسيب ، فقد استمع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى كعب بن زهير وهو ينشد رائعته بادئا اياها بالنسيب فقال :

باتت ســـــعاد فقلبى اليوم متبــول
متيم اثــرها لم يفـــد مكبـــول
وما ســـــعاد غداة البين اذ رحلوا
الا أغن غضـــــيض الطـرف مكحول

وفيها يقـــول :

تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت
كأنـــه منهـــل بالراح معـــلول

ثم يقول فى الحديث عن أخلاقها وأنها دأبت على خلف الوعد :

اخالهـــا خلة لو أنها صـــدقت
موعودها أو لو أن النصح مقبول
لكنها خلة قـــد سيط من دمهـــا
فجع وولع واخلاف وتبـــديل

(٧ ــ م)

فما تدوم على حـال تكـون بها
كمـا تلون فى أثوابهـا الغول
ولا تمسـك بالعهد الذى زعمت
الا كما يمسـك المـاء الغرابيل

ولقـد جاءت القصيدة فى سبعة وخمسين بيتا خص الغزل ، أو النسيب بخمسة وثلاثين بيتا ، ثم وجه الباقى لمدح رسول الله — صلى الله عليه وسـلم — ومن معه من المهـاجرين ، لكنك تلمس من قراءتك لأبيات النسيب أنها لم تأت من ذلك اللون الماجن المتبذل ، وانما لمس كعب فيها معانى قد لا تبعد كثيرا عما يريده الاسلام ، فقـد حاول فى الأبيات الأولى أن يقدم وصفا لمحبوبته التى رحلت عنه ، وفارقتهيعانى حرقة الوجد ، وتباريح الجوى ، وألم البعد ، ثم هى من اللواتى يتمتعن بالدل ، وينعمن بالحياء ، فهى « غضيض الطرف » لا من اللواتى يرسلن نظراتهن ، وكأنها سهام مريشة •

ويمر كعب مرورا سريعا على بعض الأوصاف الحسية فى محبوبته ، ليقدم لنا بعض الصفات المعنوية التى تلازم حرائر النساء وعظيماتهن ، فالمرأة لا توصف بالتبذل ، والتهافت على الرجال ، وانما توصف بالتمنع ، ونقض ما وعدت اذا كان ذلك سيؤثر على عفافها ، وطهارة ذيلها لقـد ألح كعب على هذا المعنى كثيرا ، انها « لا تمسك بالعهد الذى زعمت » و « مواعيدها مواعيد عرقوب » و « لا يغرنك ما منت وما وعدت » كل ذلك جاء فى مقدمة كعب بن زهير ، أو فى غزله الذى افتتح به قصيدته التى ألقيت بين يدى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يتحرج كعب من ذلك ، ولم يستنكر عليه أحد ذلك المنهج الذى نهجه •

حتى قيس بن الخطيم الشاعر الأوسى الذى قيل انه لم يعتنق

الاسلام — فقد أقام على شركه (١) ولم يرد فى كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، كان يتغزل — ايضا — ولكنه غزل يصلح أن يكون منهجا يقتدى ، وأسلوبا يحتذى ، فهو يقول مثلا :

أتعـرف رسـما كاطـراد المذاهب
لعمـــرة قفـرا غـير موقف راكب
ديار التى كادت ، ونحـن على منى
تحـل بنـا ، لولا نجـاء الركائب
تراءت لنـا كالشـمس تحت غمامة
بدا حاجب منهـا وضـنت بحاجب
ولـم أرها الا ثـلاثا عـلى منى
وعهـــدى بهـا عذراء ذات ذوائب
ومثلك قـد أصـبيب ليست بكنـة
ولا جـارة ولا حليلة صـاحب (٢)

فقد تغزل بمعان عامة ، فذكر فى البيت الأول رسم الديار وآثارها على عادة الشعراء الجاهليين ، ثم تحدث عن محبوبته التى رآها بمنى ففكر فى ترك قومه يرحلون ، حتى يبقى فى هذا المكان الذى فتنته فيه عمرة ، وأخذت عليه مجامع قلبه ، ولولا أن هذا الأمر لا يألفه الناس ، فهم ينفرون الى بلادهم بعد أداء مناسك الحج لأقام فى هذا المكان الذى تقيم فيه هذه المرأة . لقد تراءت له كأنها الشمس غطى الغمام جانبـا منها ، وبدا جانب آخر ، وهى صورة أخذها قيس من بيئة المدينة المنورة،

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ . مطبعة المدنى . القاهرة .

(٢) ابن سـلام الجمحى : طبقـات فحول الشـعراء جـ ١ ص ٢٢٨ مطبعة المدنى . القاهرة .

تلك المنطقة التى يعمها الغمام ، ويغمرها المطر ، وهى صورة تفرد بها قيس ، ثم ذكر فى نهاية نسيبه أنه رجل تعشقه النساء ، ويميلهن اليه ، وكثيرا ما يغريهن بملاحقته ، وتتبع سيره ، ولكنه لا يصنع ذلك مع زوج أخيه ، أو جارته ، أو حليلة صديقه ، لأن خلقه يأبى عليه ذلك •

وسواء أكانت هذه أخلاقه فى الجاهلية ، أم تأثر بما كان يسمعه من امرأته المسلمة عن آخلاق المسلمين ، وما يصنعه الاسلام فى رعاية الحرمات ، وحقوق الجيران ، وعدم النظر الى حلائل الأصدقاء (١) فان هذا اللون من الشعر هو الذى يدعو اليه الاسلام ، ويحث الشعراء على السير على منهجه ، وقد تبين ذلك من ذم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — امرأ القيس ، وحكمه عليه بأنه يأتى يوم القيامة ومعه لواء الشعر الى النار ، لأنه تعهر فى شعره ولم يترك طريقا الا سلكها ، وفى مقابل ذلك كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يود لو أنه رأى عنترة بن شداد العبسى ، وذلك لما علمه عنه من عفة وكرامة ، وحسن خلق ، ورعاية للحرمات •

---

(١) كان قيس بن الحطيم مقيما على شركة ، وأسلمت امرأته ، وكان يقال لها حواء ، فكان يصدها عن الاسلام ويعبث بها يأتيها وهى ساجدة ، فيقبلها على رأسها ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو بمكة قبل الهجرة يسأل عن أمر الأنصار ، وعن حالهم ، فأخبر باسلامها ، وماتلقى من قيس ، فلما كان الموسم أتاه — صلى الله عليه وسلم فى مضربه ، فلما رأى النبى — صلى الله عليه وسلم — رحب به وأعظمه ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم — ان امرأتك قد أسلمت ، وانك تؤذيها فأحب أن لا تعرض لها قال : نعم وكرامة يا أبا القاسم لست بعائد فى شىء تكرهه فلما قدم المدينة قال لها ان صاحبك قد لقينى فطلب الى ألا أعرض لك فشأنك وأمرك • « ابن سلام الجمحى ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ المصدر نفسه •

واذا كان الاسلام ينهى عن التعهر فى القول ، وعن الغزل الفاضح فلأنه يعلم أن هذا الكلام تردده الألسنة ، وتتداوله العامة والخاصة ، ويتغنى به الناس فى نواديهم وخلواتهم وساعات لهوهم ، فيؤثر فيهم تأثيرا ضارا ، وينأى بهم عن الفضيلة التى ينشدها الاسلام ، أما الشعر الملتزم — ان جاز لنا استخدام هذا الاسلوب • فان الاسلام لم ينه عنه، ولم يمنع التغنى به ، أو ذكره عند الحاجة اليه ، فالشعر والغناء صنوان درجا فى مدرج واحد ، وشبا معا يمتعان الانسان ، ويسريان عنه همومه وآلامه ، وقديما قال العربى عن الشعر والغناء •

فغنهـا وهى لـك الفـداء
ان غنـاء الابـل الحـداء

وتبعه فى ذلك حسان بن ثابت فقال :

تغن بالشـعر اما كنت قائله
ان الغناء لهـذا الشعر مضمار

وقد تمكن شعراء الأوس والخزرج — عن طريق غناء الشعر — أن يلفتوا نظر النابغة الى ذلك العيب الذى ورد فى شعره ، فقد كان النابغة « يقوى » فى شعره « فقدم المدينة ، فعيب ذلك عليه ، فلم يأبه لهما حتى أسمعوه اياه فى غناء — وأهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم أهل الكتاب ، فقالوا للجـارية اذا صرت الى القافية فرتلى ، فلما قالت •• « الغداف الأسود » و « يعقد » و « باليد » علم وانتبه ، فلم يعد فيه ، وقال : قدمت الحجاز ، وفى شعرى ضعة ، ورحلت عنها ، وأنا أشعر الناس •

والأبيات التى ورد فيها هذا العيب هى قوله فى وصف المتجردة امرأة النعمان بن المنذر :

أمنَ آل ميةَ رائح أو مغتــدىَ
عجــلان ذا زاد وغــير مزّود
زعمَ البوارح أن رحلتنا غــداً
وبذاك خبرنا الغداف الأســود

وقوله :

سقطَ النصيف ولم ترد اسقاطه
فتنــــاولته واتقتنــــا باليـــد
بمخضــب رخص كأن بنــانه
عنم يكاد من اللطافة يعقد (٢)

واذا كان الشعر قرين الغناء فانه يعرض له ما يعرض للغناء ، أو يعرض له ما يعرض للغناء من اباحته أو رفضه ، ذلك أن الاسلام أباح الأمور التى من شأنها أن تربى الذوق الخلقى الذى يعتمد على الفضيلة ، وينفر من الرذيلة ، ولذلك فاننا لا نتفق مع الدكتور شوقى ضيف الذى استنتج بعد نصوص ذكرها من حياة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند سماعه للشعر وسماعه للغناء يوم العيد عندما كانت عائشة تغنى مع جاريتين من بنات الأنصار ، وعدم تحريمه للغناء فقال : « ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن النبى — صلى الله عليه وسلم — لم يكن يحرم الغناء ، ولا كان يدعو الى نبذه ، أما ما شاع بعد ذلك من كراهية الغناء فانمــا جاء متأخرا ومتأثرا بآراء شــخصية لبعض

---

(٧) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ، وقوله « مزود » بكسر الدال ، « ويعقــد » بضــمها وكذلك « باليد » بكسر الدال « ويعقد » بضمها ، فجاء الاقواء من اختلاف حركتى الروى ٠

الصحابة والتابعين من مثل عبد الله بن عمر وابن مسعود ، وهكذا آخذ الناس مع مر الزمن يختلفون فى الغناء ، وفى أباحته وتحريمه ، ويقول ابن عبـد ربه : اختلف الناس فى الغناء ، فأجازه عامة أهل الحجاز ، وكرهه عامة أهل العراق ، وأخذ رأى أهل العراق يسود فى العصـور المتأخرة ، وخاصة عند المتشددين ، وقد عقد الغزالى فصلا طويلا فى الاحياء دلل فيه من وجوه كثيرة على اباحته ، وأنه لا يدعو الى تحريمه نص أو قياس » (١) .

والمتتبع لسيرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يجد أنه لم يستمع الى كل شعر قيل ، أو الى كل غناء تردد ، وانمـا استمع الى الشعر الذى دافع به الشعراء عن الدعوة الاسلامية ، والغناء الذى قصد به حفز الهمم ، فقد كان ينشد مع الأنصار يوم الخندق .

اللهـم ان العيش عيش الآخـــرة

فارحم الأنصـــار والمهـــاجرة

واستمع الى غناء عائشة وصاحباتها يوم العيد ، ولكنه أمال عنهن بوجهه ، وفى ذلك دلالة منه على الرضا عنهن ، وعدم نهرهن ، ولكنه لم يقدم عليهن بوجهه حتى لا ينظر الى الجاريتين .

أما الامام الغزالى فقـد أورد حديثـا طويلا عن السماع وقوله الشعر ، ولكنه يقصد السماع الذى لا يحث على الرذيلة . ولا يتـأثر المستمع له باثارة الغرائز وارتكاب المحرم ، فبعد أن تكلم عن المغنية ، وأنها اذا كانت امرأة لا يجوز السماع اليها ، أو الخلوة بها ، وعن آلات الغناء ، وأنها لا تكون من شعار أهل الشرب ، أو المخنثين ، وهى المزامير

---

(١) د. شوقى ضـيف : الشـعر والغناء فى مكة والمدينة ص ٤٢ ط دار المعارف .

والأوتار قال : « العارض الثالث فى نظم الصوت ، وهو الشعر فان كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى ، وعلى رسوله — صلى الله عليه وسلم — أو على الصحابة — رضى الله عنهم — كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم — فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال ، وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز ، فقد كان حسان بن ثابت ينافح عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويهاجى الكفار ، وأمره — صلى الله عليه وسلم — بذلك فأما النسيب ، وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ ، وحسن القد والقامة ، وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وانشاده بلحن وبغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة » (١) ٠

فالامام الغزالى لم يفتح الباب على مصاريعه فى اباحة الشعر والغناء ، وانما وضع قيودا يجب أن يلتزمها كل من يرى فى نفسه أهلية لذلك ، أو يجد لديه القدرة على العزف على وتر الشعر ، أو الضرب على نغم الغناء ٠

ونحن مع الامام الغزالى فيما ذهب اليه ، وهو ما أيدته النصوص الواردة فى اباحة الشعر عموما ، ومن بينه شعر الغزل ، وأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصحابته عندما استمعوا الى الشعر كانوا يستمعون الى شعر له منهجه الأخلاقى الذى يربى فى الناس ذوقا رفيعا ، وأدبا هادفا ، واذا كان الغزل فى صدر الاسلام قد جاء فى أول القصائد — كما كان عليه الحال فى العصر الجاهلى — فان هناك فروقا قد حدثت

---

(١) أبو حامد الغزالى : احياء علوم الدين ج ٢ ص ١١٤٤ ط الشعب

لشعر الغزل من أهمها رعاية الحرمات ، وصيانة الأخلاق وتنزيه الألسنة من الخوض فى ألوان الخلاعة والمجون ، ولعل القارىء يدرك الفرق من شعر حسان بن ثابت الاسلامى ، ومن غزله الذى ساقه فى أول قصائده ، فهو يقول فى غزوة بدر :

تبلت فؤادك فى المنـــام خـــريدة
تســقى الضــجيع ببــارد بســام
كالمســك تخلطه بمــاء ســحابة
أو عاتق كــدم الذبيح مدام (١)

فلقد جعل صاحبته تزوره فى منامه ، وكأنه يقول للسامع له : ان هذا الأمر لم يحدث حقيقة ، وانما هى أضغاث أحلام ، ولا يلام المرء على حلم رآه ، حتى ولو كان ذلك قــد حدث له مع فتاة جميلة تســعد ضجيعها برائحة طيبة ، أو زينة تأخذ عليه بصره ، وهذا مثال ضربته لنتبين منه منهج الغزل فى عصر صدر الاسلام .

الغزل فى عصر بنى أمية :

كان الغزل ــ اذن ــ فى العصر الجاهلى محصورا فى تلك الأبيات التى تقال تمهيدا للغرض الذى قصد اليه الشاعر ، ورغبة منه فى استحالة قلوب سامعية ، والتأثير على عواطفهم حاول أن يقدم لهم قطاعا يتحدث فيه عن المرأة ، أو اليها ، أو يسوق لهم قصة غرامية حدثت له ، فامتلكت عليه جوانحه ، فأخذ ــ يتذكرها ــ دائما ــ وقد تكون هذه القصــة من نسج الخيال أوحى بها اليه شيطان الشــعر ، وزينتها له عبقريته ، وأحكمتها ديباجة قوية ، فذاعت أحداثها ، وتناقلتها ألســنة العامة ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ .

وأضحكت خذيتهم فى منتدياتهم بله ان هذا اللون من الشعر لم يكن له شعراء صرفوا شعرهم له ، أو جعلوه وكدهم وهجيراهم .

اما شعراء صدر الاسلام فقد ارتقوا بشعر الغزل ، فابتعدوا به عن الألفاظ القبيحة والعبارات التى تخدش الحياء ، والمعانى التى تثير الغرائز ، وتحرك الشـهوات ، لكنهم لم يبعدوا به كثيراً عن الغزل فى العصر الجاهلى ، فجعلوه فى افتتاحيات قصائدهم ، ولم يتخذوا منه — أيضا — غرضا مستقلا يهدفون اليه ، ويوجهون عنايتهم نحوه ، وانما قالوا منه الأبيات فى افتتاحيات قصائدهم ، رغبة منهم فى اقامة عمود الشعر ، وفى الحفاظ على ديباجة هذا الفن الذى طالمـا أمتع أصحاب الأذواق الرفيعة ، وتغنى به محبو الجمال ، ورردده الناس فى أوقات أفراحهم .

وتمـر الايام مليئة بالأحداث التى شغلت المجتمع الاسلامى ، وصرفته عن التفكير فى كثير من أمور كانت تشغله قبل الاسلام ، وخاصة ما كانت تتمتع به تلك الأماكن المتحضرة من قطع لأوقات الفراغ على نغمات القيان ، ومعزوفات الشعراء ، وأضحى الناس لا يفكرون الا فى تأصيل مبادىء الدين الاسلامى فى قلوب أولئك الأعراب الذين حاولوا بعد انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى أن يعودوا سيرتهم الأولى ، وأن ينفسوا على القرشيين امامتهم ، وأن يمنعوا أداء أصل اسلامى حاولوا جعله ذريعة لارتدادهم عن دين الله ، فقاومهم المسـلمون ممن تعمق الايمان فى قلوبهم ، وممن ذاقوا مرارة الكفر ، ونعموا بحلاوة الايمان ، وعادت الجزيرة العربية سيرتها الأولى ، لتنتظم تلك المسيرة الايمانية التى خرجت تنشر كلمة التوحيـد وترفع راية الاسـلام فى اتجاهات متباينة ، وأماكن متباعدة ، ولتقف أمام قوى كبرى ما كان للعرب قدرة عليها لولا قوة الايمان ، واليقين بنصر الله الذى وعد .

وفى تلك الحروب التى استمرت زهاء قرن نفتحت عيون العرب على مجتمعات جديدة ، وحضارات مختلفة لم يكن للعرب سابق عهد بها ؛ بل انهم سبوا من هذه البــلاد كثيرا من السبايا اللاتى استقدمن الى الجزيرة العربية ، وأسروا كثيرا من الرجال الذين أتوا مع سادتهم الى أماكن متفرقة من حواضر الحجاز ، ولقد اعتنق هؤلاء جميعا الاسلام ، واندمجوا فى المجتمع الجديد سواء أكانوا فى حواضر العرب والاسلام الأولى ــ كمكة والمدينة ــ أم كانوا فى حواضره الجديدة ــ كدمشــق وبغداد ، وهنا وهناك قام هؤلاء القادمون ، أو من أطلق عليهم اســم الموالى بدور فعال فى تغيير كثير من عادات المجتمع الاسلامى وتقاليده الأصيلة ، ثم انهم وجــدوا رغبة من شــباب العرب الذين أغرقوا فى الأموال ، ورأوا أن يخلدوا الى الراحة والنعيم ، بعد أن أجهدوا فى تلك الفتوحات التى حملوا عبئها سنوات طوالا ، أو قل أريد لهم أن ينعموا بتلك الأموال التى أفاء الله بها عليهم ، والتى جعلت المجتمع البــدوى المتقشف يتحول الى مجتمع ينعم بخيرات الدنيا ، ويتمتع بما يأتيه من خراجها وغلاتها دون تعب أو اعياء ٠

وحيال هذه الظواهر الجديدة ، أو المتغيرات التى حدثت فى هذه الفترة نشأ اتجاهان متعاكسان أو منهجان متباينان لا يمكن لباحث أن يرى تقاربا بينهما ، لذا يمكننا أن نقول ، ان هناك لونا منهما تعمق أسرار الاســلام ، وفهم ما يرمى اليه القرآن من صــقل للنفوس ، وتهذيب للقلوب ، وترقيق للحواس فسلك طريقا لا يرى فيها للشــهوة مكانا ، ولا للمــادية مجالا ، فقالوا الشعر الذى أضحى فيما بعد منهجا سلكه الشادون الى الفضيلة ، والمجاهدون أنفسهم كى تنعم من الذات العلية بوصل وقرب ، فقالت على نغمة رابعة العدوية :

أحبــك حبين حب الهــــوى
وحبـــــا لأنــك أهــل لذاكا

فأما الذى هــو حب الهــوى

فشــغلى بذكرك عمن ســواكا

وأما الــذى أنت أهــل لــه

فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمـــد فى ذا ولاذاك لى

ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكا

قال الغزالى فى الاحياء : « ولعلهــا أرادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها ، وانعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وأرادت بحبه لمــا هو أهل له الحب لجمــاله وجلاله الذى انكشف لهــا ، وهو أعلى الحبين وأقواهما » ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله حيث قال حاكيا عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) ٠

وعلى وتره عزف بعضهم قوله :

بحق الهــوى يا أهل ودى تفهمــوا

لســـان وجــود بالوجــود غريب

حــرام على قلب تعــرض للهــوى

يكون لغــير الحــق فيــه نصــيب

ليس فى القــلب والفــؤاد جميعــا

موضــــع فارغ يــــراه الحبيب

هــو ســــــؤلى ومنيتى وحبيبى

وبــه مــــا حييت عيش يطيب

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٤ ص ١٥٣ ط دار الكتاب العربى ـ بيروت لبنان ٠

واذا مـا السـقام حـل بقلبى
لم أجـد غـيره لسـقم طبيب (١)

وعزف عليه ابن الفارض معزوفاته الرائعة فى الحب الالهى انه شـعر الجمال النفسى ، أو كما اصطلح على تسميته بشعر « الغـزل العذرى » ٠

وسواء أتأثر هؤلاء الشعراء بشعر غيرهم من الأمم الأخرى ، أم تأثر به غيرهم فان هذا الشعر أضحى الصورة المثلى التى التزمت جانب الفضـيلة ، والتى أبرزت لنا شـعراء عفوا عن المحارم ، وترفعوا عن الدنايا ، وارتقوا بعاطفتهم ، لتتعمق فى أسرار الخلق ، ولتصف من المرأة زوايا لم تكن مألوفة عند العرب فى العصر الجاهلى ، ولتجعل من الغزل غرضا مستقلا ، بل لتجعل له شعراء جعلوه منهجهم وغايتهم ٠

أما اللون الثانى فهو ذلك الشـعر الذى قاله الشعراء تعبيرا عن قصصهم النسائية ، أو هياما ووجدا بالمرأة ، أو وصفا لما حـدث بينهما من لقاءات نعموا فيها بالجمال ، وتمتعوا بالقرب والوصال فكانت المادية طريقه ، والرغبة العارمة غايته وسبيله انه « الغزل اللاهى الذى عبر عن طابع الحياة الجديدة ، فيه ميوعه واستهتار ، وقصص شعرى يظهر فيه تهالك النساء على الرجال » (٢) ٠

انه الشعر الذى يمثل الردة المـادية الى ما كان عليه الغـزل فى العصر الجاهلى ، وأى لون منه ؟؟ انه اللون الذى يمثـل شعر امرىء القيس

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٤ ص ١٨٥ ط دار الكتاب العربى ـ بيروت لبنان ٠

(٢) د ٠ محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ٢٦ المرجع نفسه ٠

بما فيه من مجون وتعهر ، وبما فيه من هتك للحرمات ، وتهجم على المخدرات .

واذا كان لنا أن نحدد البيئة التى نشأ فيها كل لون من هذين اللونين فاننا نستطيع أن نقول : ان الغزل العذرى نشأ فى البادية ، فقد أذكى جذوته تلك الطبائع البدوية الأصيلة ، أما الشعر اللاهى فقد احتضنته حواضر الجزيرة العربية ، وخاصة مكة والمدينة تلك الأماكن التى استقبلت الأعداد الهائلة من الأسرى الذين أشاعوا فيها جوا من المتعة تمثل فى فن الغناء ، وما أحدثوه من فنون أتوا بها من مجتمعاتهم .

لقد أصبح الغزل — أذن — بنوعيه فنا مستقلا ساعد على انتشاره — أيضا — « فن الغناء الذى كان استجابة لدواعى الترف والفراغ فى البيئة الجديدة ، وقد نهض بفضل المغنين والمغنيات من الموالى ، وقد ساعد الفرس على النهوض بفن الغناء وموسيقاه عند العرب ، اذا لم يكن هؤلاء يعرفون منه سوى الحداء والنشيد ، وكان سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم يستمع الى البنائين من الفرس فى مكة وهم يغنون على بنياتهم ، فما يستحسنه من غنائهم يأخذه وينقله الى الشعر العربى، ثم يصوغ على نهجه » (١) .

وقد يكون الغناء من الأسباب التى دفعت هؤلاء المتذوقين للشعر أن يوجهوا الشعراء الى الأعاريض التى يجب استخدامها حتى يتفق نتاجهم وتلك الألحان التى تصاحب الغناء ، لذلك يقول ابن رشيق : « مقود الشعر الغناء » لقد امتدح المتذوقون للشعر فى هذه الفترة ، أن تكون أعاريضه موسيقية ذات نغم محس ، يقال ان ذا الرمة قد قدم

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ٢٧ المصدر نفسه .

الكوفة ، ودخل مسجدها فمر يبصره الكميت والطرماح فقصدها ، ثم جلس وقال للكميت : أسمعنى شيئا يا أبا المستهل فأنشده قوله :

أبت هذه النفس الا ادكارا

حتى أتى على آخرها ، فقال ، أحسنت يا أبا المستهل فى ترقيص هذه القوافى ، وتعلم عقدها .

ان الشعر الذى يتفق والغناء هو شعر الغزل ، فهو الشعر الذى يمكن به جذب السامعين وتطويعه للألحان الموسيقية ، لذلك يقال : ان جريرا عندما ذهب الى المدينة ، وطلبوا منه أن يسمعهم شعرا لم يفعل ذلك وقال لهم : يا أهل المدينة انما يعجبكم النسيب . فهو يعلم أن الشعر التقليدى فى المدح أو الهجاء ، أو الرثاء لم يعد يروى غلة أهل المدينة أولئك الذين ألفوا لونا خاصا من الشعر استعذبته أسماعهم ، وطوعوه لألحانهم .

وقد يمكننا معرفة السبب الذى دفع سكان البادية الى اللجوء الى الشعر العــذرى ، واتخاذه منهجا يعزفون عليه أنغامهم الرقيقة التى مثلت طبع تلك البيئة ، وجعلت الشعراء يظهرون ما يعتمل فى قلوبهم من حرقة الجــوى ، وتباريح الوجــد ، وهم لا ينــالون ممن يحبــون الا ما ينــاله الرجل العفيف ساعة أن تجمعه بمن يحب أوقات يعــام أن الله ثالثهما .

ان السبب الذى حدا بهؤلاء الشعراء المحبين الى شعرهم ليس هو ما وجدوه لديهم من حب لا يمكنون فيه من قضاء رغبتهم مع من يحبون ، بل انهم وضعوا من يحبون فى مواضع الرفعة ، ونأوا به عن الدنايا ، وابتعدوا به عن النزول الى مهاوى الرذيلة ، وبذلك تفردوا عن غيرهم من المحبين .

وهذا ما يفسر لنا ذلك الموقف الذى وقفه عبد الرحمن القس (١) الذى كان من أعبد أهل مكه ، فقد هام بسلامه المغنية « فقد سمع غناءها يوما على غير تعمد منه لذلك ، فبلغ غناءها منه كل مبلغ ، فرآه مولاها فقال له : هل لك أن أخرجها اليك ، أو تدخل فتسمع : فأبى ، فقال مولاها : أنا أقعدها فى موضع تسمع غناءها ولا تراها ، فابى ، فلم يزل به حتى دخل فأسمعه غناءها فأعجبه ، فقال له : هل لك فى أن أخرجها اليك ؟ فأبى ، فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه ، فتغنت ، فشغف بها ، وعرف ذلك أهل مكة ، فقالت له يوما : أنا والله أحبك . قال : وأنا والله أحبك . قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك . قال : وأنا والله أحب ذاك . قالت : فما يمنعك ؟ فوالله ان الموضع لخال . قال : انى سمعت الله عز وجل يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين »وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول الى عداوة ، ثم قام وانصرف وعاد الى ما كان عليه من النسك وقال من فوره فيها :

ان التى طرقتـــك بين ركائب
تمشى بمزهــرها وأنت حــرام
لتصــيد قلبك أو جــزاء مودة
ان الرفيـــق له عليــك زمام
باتت تعللنــا وتحسب أننـــا
فى ذاك أيقـــاظ ونحــن نيـــام
حتى اذا سطع الضياء لنــاظر
فــاذا وذلك بيننــا أحـــلام

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبى عمار من بنى جشم بن معاوية كان منزله بمكة ، وكان من أعبد أهلها . الأغانى جـ ٨ ص ٣٣٥ .

قد كنت أعزل فى السفاهة أهلها
فأعجب لما تأتى بـه الأيـام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنمـا
سبل الضلالة والهدى أقسام (١)

وفيها يقـول :

ألا قل لهـذا القلب هـل أنت مبصر
وهل أنت عن سـلامة اليوم مقصر
ألا ليت أنى حين صارت بها النوى
جليس لسلمى كلمـا عج مزهر (٢)

ولعلك تدرك من هيام القس بسلامة ، ومن قوله لها « أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول الى عداوة » ما أحدثه الاسلام فى قلوب هؤلاء المحبين الذين عفوا عن ارتكاب الحرام لا عن قصـور منهم ، أو عجز عنهم ، وانما أتى ذلك عن رغبة منهم كى يسموا بهذا الحب الى الطهر ، ويجعلوا هذه العلاقة مقدسة لا تكدرها هذه النزعات المـادية البغيضة .

« فتلك الروح لم تكن لتظهر الا فى مجتمع تأثر بالدين ، وتخللت العقيدة الاسلامية نفوس أهله ، وهذا عروة بن حزام ، وكان من أوائل من تأثروا بالاسـلام فى شعره — نزل ضـيفا على زوج حبيبته عفراء بالشـام ، فأكرمه الزوج ، وأحسن مثواه ، وخرج وتركه مع عفـراء يتحدثان ، فلما خلوا تشاكيا ، فطالت الشكوى ، وهو يبكى أحر بكاء ، ثم أتته بشراب ، وسألته أن يشربه ، فقال : والله ما دخل جوفى حرام

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ . المصدر نفسه .
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٣٣٦ . المصدر نفسه .

قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحلت حراما لكنت قد استحللته منك فأنت حظي من الدنيا » (١) .

ثم يقول الدكتور محمد غنيمى هلال : « وذهبوا كذلك الى حسبان من قتل فى الجهاد الحب شهيدا كمن مات فى الجهاد فى سبيل الله ، وقد وقع هذا موقع الرضا من نفوس ذوات المكانة من النساء فى المجتمع الاسلامى ، فقد رأين فيه سموا بمكانة المرأة ، ولهذا شجعن عليه ، فقد أثابت سكينة بنت الحسين جميلا على شعره وفضلته على جرير والفرزدق وكثير : قائلة فى تعليلها لذلك التفضيل : انه جعل حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، وتشير بذلك الى قول جميل :

لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد

واذا كان الاسلام قد أثر بمبادئه العامة التى ذكرنا فقد ذهب الى أبعد من ذلك ، اذ قد نص على أمثلة من طهر النساء ، واعتبر مريم لذلك مثلا أعلى للنساء الطاهرات : « يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » .

بل ان القرآن ضرب مثلا لعفة المؤمن فى قصة «يوسف» و «زليخا» فكان يوسف مثال الصبور على محن الاغراء خوفا من الله ، كذلك عد الرسول — صلى الله عليه وسلم — من بين من يظلهم الله يوم القيامة :

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية ص ٣٣ نقلا عن الأغانى .

« رجل دعته ذات منصب وجمال الى نفسها فقال اني أخاف الله ، بل يروى أن الرسول قال : « من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » .

وهذا ادراك جديد للحب يضعه الاسلام بين يدى المؤمنين من شعراء العرب لم يكن لأسلافهم به عهد ، فليس المحب اذن لاهيا عابثا حين يعانى آلام حبه ، ما دام عفا طاهر الغاية ، بل انه مأجور مثاب من الله ، وقد يرتقى الى مرتبة الشهداء الذين كتبت لهم الحسنى ، وفى هذا ما يفسر إدراك جميل على نحو ما سبق » .

فمسلك العذريين يقارن بمسلك الزهاد الأتقياء اذ أنهم وجدوا طريقا يوفقون فيه بين زهدهم ، ومطالب عاطفتهم ، وأطاعوا فى حبهم العف قلوبهم ودينهم ولهذا كان « عروة بن أذينة يحيى بن مالك ، وعبد الرحمن بن أبى عمار القس من الزهاد والعشاق معا » (١) .

واذا كان بعض الزهاد كعبد الرحمن القس قد قال شعرا فى هذا المجال ، وقد ضرب المثال الرائع فى الزهد فى الوصال على الرغم من أن سلامة قد عرضت عليه وصلها ، وحثته على قربها فان الشاعر الذى صرف شعره وحياته فى ذلك هو جميل بن عبد الله بن معمر العذرى الذى كان شاعرا فصيحا مقدما جامعا للشعر والرواية ، والذى كان راوية لهدبة بن خشرم ، وكان هدبة شاعرا راوية الحطيئة ، وكان كثيرا راوية لجميل ، وكان يقدمه على نفسه ، ويتخذه اماما واذا سئل عنه قال : وهل علم الله عز وجل ما تسمعون الا منه » (٢) .

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية ص ٣٣ ـ ٣٥ المرجع نفسه .

(٢) الأغانى ص ٨ ص ٩٠ وما بعدها ، المصدر نفسه .

كان جميل يهوى بثينة التي [illegible] [illegible]

[illegible] (١) .

ويروى صاحب الأغاني هذه الرواية عن ابن سلام ، ثم يضيف اليها قوله : وكان الناس يستحسنون [illegible] في [illegible] :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تمثل لي ليلى بكل سبيل

قال : ورأيت من يفضل عليه بيت جميل :

خليلي فيما عشتما هل رأيتما

قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

قال ابن سلام : وهذا البيت الذي أكثر أخذه من جميل حيث يقول :

أريـد لأنسى ذكرها فكـأنما

تمثل لي ليلى على كل مرقب (٢)

وقد كان جميل يحب بثينة حبا عفا ، وكانا يلتقيان ، فلا يحـدث بينهما ما يحدث بين المتحابين ، فقد روى أن أمة لبثينة سعت بها الى

---

(١) ابن سلام الجمحي ـ طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٥٤٥ المصدر نفسه .

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٩٥ ، ٩٦ المصدر نفسه .

أبيها وأخيها ، وقالت لهما : « ان جميلا عندها الليلة ، فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالسا حجرة منها يحدثها ويشكو اليها بثه ، ثم قال لها : يا بثينة أرأيت ودى اياك ، وشغفى بك الا تجزينه ؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين ، فقالت له : يا جميل أهذا تبغى ؟! والله لقد كنت عندى بعيدا منه ، ولئن عاودت تعريضا بريبة لا رأيت وجهى أبدا ، فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا الا لأعلم ما عندك فيه ، ولو علمت أنك تجيبيننى اليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى ، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد أو ما سمعت قولى :

وانى لأرضى من بثينة بالذى
لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

قال : فقال ، أبوها لأخيها ، قم بنا فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها ، فانصرفا وتركاهما » (١) .

ولقد روى ابن قتيبة عن سهل بن سعد الساعدى أو ابنه عباس : لقينى رجل من أصحابى فقال : هل لك فى جميل فانه ثقيل ؟ فدخلنا عليه وهو يكيد بنفسه (يجود بها فى حال النزع والموت) وما يخيل لى أن الموت يكرثه (يشق عليه) فقال : ما تقول فى رجل لم يزن قط ، ولم يشرب خمرا قط ، ولم يقتل نفسا حراما قط يشهد أن لا اله الا الله ؟

---

(١) الأغانى حـ ٨ ص ١٠٥ المصدر نفسه .

فقلت : أظنه والله قد نجا ، فمن الرجل ؟ قال : انا • قلت : والله ما سلمت، وأنت منذ عشرين سنة تنسب ببثينة ؟ قال : انى لفى آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فلا نالتنى شفاعة محمد — صلى الله عليه وسلم — ان كنت وضعت يدى عليها لريبة قط • قال : فأقمنا حتى مات » (١) •

ان هذين الخبرين اللذين ساقهما الأصفهانى وابن قتيبة يجعلان من يعرض لحياة جميل بن معمر يرى فيها أثرا لما أحدثه الاسلام فى عقلية أولئك العرب الذين وجدوا فيه حثا على الأخلاق الفاضلة ، والمبادىء الراقية ، لقد أتت مبادىء الاسلام لتربى فى هؤلاء العرب حواس يبتعدون بها عن ماديتهم البغيضة ، ويرتفعون الى روحانية مثلى تجعلهم على يقين بأن متع الدنيا لا بد زائلة ، وأن نعيم الآخرة لا يزول •

ولا يمكن لنا بحال أن نؤمن بما يثيره المغرضون من اتهامات لهؤلاء المحبين فهؤلاء « المتقولون قصرت مروءتهم عن أن ترى فى الانسان غير حيوانيته وشهوانيته ، وشبقه ، ورفض منطقهم العبى ادراك كله تلك الشعلة المقدسة التى اذا ألهبت القلب ، وأدمت العين ، أعمت أبصار المحبين عن مجالات الجسد ، وفتحت بصائرهم على ألوان السمو الروحى ، والعلاء العاطفى » (٢) •

واذا كان لنا أن نختار شعرا لجميل نقدمه لقارىء هذا البحث فاننا نقدم له تلك القصيدة التى تكشف عن جانب من أخلاق هؤلاء المحبين ، فهم يودون القرب والوصل ، ولكنهم لا ييأسون منه ، وان أبعدتهم

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ح ١ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ • تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار المعارف •

(٢) فوزى عطوه • محقق ديوان جميل ص ٨ دار صعب بيروت •

ظروف الحياة ا وحالت دون لقائهم قوانين المجتمع ، ثم هم لا يستجيبون لأحاديث الواشين ، ولا يستبدلون بحبهم بديلا ، وهم يحبون من حبيباتهم التمنع وعدم الاستجابة ، ويرون فى ذلك طهرا وعفة . يقول جميل :

أبثين انك قد ملكت فأسجحى
وخذى بحظك من كريم واصل
فارب عارضة علينا وصلها
بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالرفق بعد تستر
حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو أن فى قلبى كقدر قلامة
فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى

ثم يقول واصفا أحاديث العذال ، وكلمات اللائى كن يرين منه التخلى عن ذلك الحب العقيم ، والبعد عن تلك التى لا يحظى منهابقرب، وأنه لا يستمع لو شايتهن ، فهو باق على حبها لا يفارقه .

ويقلن انك قد رضيت بباطل
منها : فهل لك في اعتزال الباطل ؟
ولباطل ممن أحب حديثه
أشهى الى من البغيض البازل
ليزلن عنك هواى ثم يصلنني
واذا هويت ، فما هواى بزائل

ثم يتحدث الى بثينة تلك التى صادت حبالها قلبه ، ولكنها تدللت عليه عندما رأته متمسكا بحبها ، فأطاعت فيه كلمات الواشين فهجرته لكنه لم يستمع الى أقوال العاذلات ، وتركهن يرجعن بذل الندم ، ومرارة التحسر ، فيقول :

وتثــاقلت لمــا رأت كلفى بهــا

أحبب الى بذاك من متثـــاقل

وأطعت فى عواذلا فهجــرتنى

وعصيت فيك وان جهدن بفاعل

فرددتهن وقــد سعين بهجركم

لمــا سـعين له بأفوق ناصـل

يعضــضن من غيظ على أناملا

وددت لو يعضضن صم جنادل

ويقلن انــك يابثين بخيلـــة

نفسى فداؤك من ضنين باخل(١)

ونختم جولتنا مع جميل بن معمر بهذه القصيدة التى تتردد دائما فى الأوساط الأدبية ، والتى قالها جميل وهو يفارق ديار بثينة الى مصر التى قضى فيها نحبه فى ولاية الأمير عبد العزيز بن مروان وقد بدأها بقوله يتحسر على شباب مضى ، وعمر انقضى :

ألا ليت ريعان الشـباب جديد

ودهـــرا تولى يابثين يعــود

ثم قوله مبديا ألمها لفراقه ، وأسفها على سفره الى مصر :

وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها

وقد قربت نضــوى أمصر تريد ؟

ولا قولها : لولا العيون التى ترى

لزرتك فاعذرنى فدتك جدود (٢)

---

(١) الأغانى حـ ٨ ص ١٠٠ ، ١٠١ ، والديوان ص ٨٧ ، ٨٨ المصدر نفسه .

(٢) الديوان ص ٢٥ وما بعدها ، والأغانى جـ ٨ ص ١٠٣ ١٠٤ .

ثم قوله يبثها جواه وأله ، وتبثه مثل ذلك ، ولكن فى تمنع وعفاف:

اذا قلت ما بى يا بثينــة قــاتلى
من الحــــب قالت : ثابت ويزيد
وان قلت ردى بعض عقلى أعش به
تولت وقالت : ذاك منــــك بعيد

ثم قوله يتشوق الى ديار بثينة عله يحظى منها بقرب :

ألا ليت شعرى هــل أبيتن ليلــة
بوادى القــرى انى اذا لســعيد
وهــل ألقين فردا بثينــة مــرة
تجــود لنــا من ودهــا وتجــود
علقت الهوى منها وليدا فلم يزل
الى اليوم ينمى حبهــــا ويزيد
وأفنيت عمرى بانتظــارى وعدها
وأبليت فيها الدهر وهو جــديد
فــلا أنا مردود بمــا جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد

ثم قوله مقررا أن جهاد نفسه ، واستمراره على حبها يعــــدل الجهاد فى سبيل الله :

يقولون جاهد يا جميل بغــــزوة
وأى جهـــــاد غـــيرهن أريد
لكل حــديث بينهــن بشــــاشة
وكل قتيــل عنــدهن شــــهيد

ولعلك أيها القارىء قد تصورت هذا الشعر الذى قيل من هؤلاء المحبين الذين حلقوا فى الكون العلوى ، وجعلوا يهيمون بمن يحبون فى أسلوب ملائكى التفكير سماوى التعبير ، اسلامى النزعه « فالحب العذرى عاطفة قوية مشبوبة يهيم فيها المحب بحبيبته ، ويرجو الحظوة بوصالها ولكن تتضاءل لديه النظرة الى المتع الحسية ، اذ يطغى عليه حرص المحب على استدامة عاطفته فى ذاتها ، وعلى اعتزازه بهـــا مع التضحية فى سبيل الابقاء عليها بما يستطيع بذله من جهد وآلام ،فليس الحب العذرى رهين الظفر بمتع الحس ، يبقى ببقاء الامل فيها ، ويفنى بتعذر مثالها ، ولكنه يسمو على هذه المتع التى تهون لدى المحب بقدر ما يعظم شأن العاطفة فى ذاتها ، ووسيله السمو بهذه العاطفة على هذا النحو هو الحرمان ، أى حرمان المحب من الظفر بحبيبته حين يتعلق بها ، وقد يكون هذا الحرمان اراديا يدفع اليه الزهد فى المحــرمات ، والتقوى من الله ، متى تعذرت السبل المشروعة للوصال ، وقد يكون الحرمان راجعا أولا الى أسباب اجتماعية ، وتقاليد سائدة خارجة عن ارادة المحب الذى لا يسلو — أمام هذه العقبات عن وجه حبــه ، بل يتسامى به ، ويدوم عليه ، ويستطيب العذاب فى سبيله والحــرمان فى كلتا حالتيه السابقتين سبيل التسامى بهــذه العاطفة متى كــانت صادقة عفة ، لأن الحرمان — اراديا كان أو غير ارادى — هو ســبب دخول هذه العاطفة ميدان الأدب والفن بعامة ، كى تكتسب معــانى انسانية ، أو صيغة فنية ، أو تشف عن نبل روحى ، وســمو خلقى ، فتتجاوز الدائرة المادية الضيقة التى تسف فيها الى معناها الفريدة ، ولكن الحرمان لا يؤدى الى التسامى الا اذا صدقت العــاطفة ، وكان صاحبها على قدر من سمو الخلق يمكن أن يعلو به عن الحاجة المــادية العابرة ، ولا يتاح مثل هذا التسامى الا للصفوة التى تؤمن بقيـــم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذرى عف ، لأنه حب حرم الحرمان ، ثم هو بعد ذلك حب يتسامى فيه صاحبه ، لأن صــــاحبه

يحرص فيه على القيم الانسانية والصلات الخلقية ، ولا يقف عند مجرد الحسرة والندم على الحرمان ، ولذا لا يتصور أن ينشأ مثل هذا الحب الا فى مجتمع ذى عقائد روحية تيسر سبيل هذا التسامى (١) »

أما الجانب الثانى الذى نعرض له فى هذا المجال ، فهو ذلك القطاع من الشعر الذى نشأ فى حواضر الجزيرة العربية ، والذى كان أبطاله اولئك الشعراء الذين غمرتهم المادة ، وسيطرت عليهم الشهوة ، فأطلقوا لشيطان الشعر العنان ، وجعلوا يهيمون بمن يحبون ، وسواء أكان ذلك منهم واقعا ام تخيلا فقد اثرى هؤلاء الشعراء شعر الغزل بقصائد عكفوا على نظمها ، تتغنى بألحان أولئك المغنين الذين وفدوا على هذه البيئة التى رأوا فيها رواجا لفنهم ، وتشجيعا لألحانهم •

ومن عجب أن نجد المتناقضات تملأ منعطفات بيئة المدينة ومكة ، أو قل بيئة الحجاز بعامة ، ففى الوقت الذى عكف فيه علماء مكة والمدينة على دراسة القرآن الكريم ، وسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد نشأ فى هذه الحقبة حبر الأمة عبد الله بن عباس — رضى الله عنه — والعالم الزاهد الورع سعيد بن المسيب ، وغيرهما من علماء التفسير والحديث الذين تركوا لنا نتاجا رائعا فى هذين المجالين كانت محصلته تلك الآراء المذهبية التى تمثلت فى فقه امامين عظيمين من أئمة التشريع الاسلامى ، امام أهل المدينة مالك بن أنس ، وامام مكة ومصر من بعد الشافعى ، فى هذا الوقت الذى شهد تلك النهضة العلمية والتعليمية نجد اللهو يعم قطاعا آخر من أهل الحجاز ، أو قل انصرف بعض شبابه الى اللهو ، وانغمسوا فى ارضاء رغباتهم ، أو قل انهم غرقوا فيه حتى آذانهم ، أو كما يقولون : شربوا حتى الثمالة •

---

(١) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية ص ١٧ ، ١٨ المرجع نفسه •

واذا كانت آراء المحدثين قد تناقضت فى هذا المجال ، أو قــــد اضطربت فى تحليل تلك الظاهرة ، وفى تعليل هذا الاتجاه المادى الذى سيطر على قطاع عريض من شباب الحجاز ، فقد عزا بعض المحدثين ذلك الى أن الأمويين كان لهم دور فعال فى صرف شـــباب الحجـــاز الى ذلك اللهو حتى لا يفكروا فى مسار الدولة السياسى ، وحتى لا يكون الفراغ سببا فى ثوراتهم على حكم الأمويين ، وذلك أمر — وان كان فيه جزء ضئيل من الحقيقة ، لكنه لا يمكن أن يمثل الحقيقة كاملة ، ولو كان الأمر كذلك لما وجدنا عمر بن عبد العزيز — عندما ولى الخـــلافة يأمر بأن يأتيه عمر بن أبى ربيعة والأحوص موثقين ، فيعاتبهما وينفيهمـــا وقيل ان عمر عاهده على ألا يعود الى مثل شعره ، أما الأحوص فقد نفاه الى « دهلك » بالبحر الأحمر » (١)

وحدث أن حج سليمان بن عبد الملك فأرسل الى عمـــر بن أبى ربيعة ، وسأله عن أبيات قالها ، وأخرج الى الطـــائف ؟ حتى قضى الناس حجهم (٢) » .

فلو كان الأمويون رغبوا فى مثل هذا العمل لشجعوا عليه ، ولمـا وقفوا ضده فى كثير من المواقف ، ولهذا فاننا لا نوافق الأستاذ الدكتور محمد غنيمى هلال فى قوله : « ولما فشل الحجاز فى استرداد مكانتـــه انطوى على نفسه ، وآثر الامساك عن الخوض فى المسائل السياسية، وانصرف علماؤه الى البحث فى مسائل الدين ، واستنباط الأحكـام ، واتجه شعراؤه الى انفاق نشاطهم فى اللهو والتعبير عن حياتهم الماجنة المرحة (٣) » .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ١ ص ١٩٠ ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ١ ص ١٩٠ المصدر نفسه

(٣) د. محمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية ص ٢٣ المرجع نفسه .

أما الدكتور شوقى ضيف فقد أصاب عندما عقد مقـــارنة بين الشعر فى العصر الأموى ، وبين تلك الحضارة التى طرأت على هـــذا المجتمع ، فاستجاب لها ، وتأثر بها ، وصرف شعراؤه شـــعرهم الى خدمتها ، والعمل على ازكائها فهو يقول : « وأكبر الظن أن هذه البيئـــة من بيئات الشعر فى عصر بنى أمية قد اتضحت لنا ، فهى من ناحية بيئة تحضرت ، وأترف ذوقها ، وأصبح أهلها يمثلون رقة فى الشعور ، ورقة فى الحس لم تكن لآبائهم ، لسبب طبعى ، هو أنهم أبناء حضارة جديدة، وعصر جديد ، فيه ترف ونعيم ، وفيه هذه التأثيرات الحضـــارية التى ترهف الحس ، وترقق الشعور ، بل تجعل بعض الناس حسا وشعورا خالصين » .

« وطبيعى أن ينفصل شعر هذه البيئة المتحضرة عن الشـــعر الجاهلى القديم ، فكل من يتابع درس شعر الحجازيين لهـــذا العصر يلاحظ أن الهجاء يقل فيه قلة شديدة ، كما يلاحظ أن المديح لم يعـــد اللون الصارخ فى الشعر ؟ فان أكثر الحجازيين لم يكونوا فى حاجة الى التكسب بشعرهم ، انما اللون الذى يستنفدهم هو الغزل ، وهو لون يتلاءم مع رقة الحس ، ورقة الشعور ، وأيضا فانه يتلاءم مع فـــن الغناء الجديد » .

ثم يقول : « ومن هنا كان أكثر الشعراء فى الحجاز لهـــذا العصر شعراء حب وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبى ربيعة والعرجى وابن قيس الرقيات فى مكة ، والأحوص فى المدينة ، فقد ذهب شعرهم جميعا فى التغنى بقصة الحب وأحداثه ووقائعه ، وعبروا فى ذلك عن رقة حس شديدة ، وكان شعرهم يتحول فى كثـــير من جـــوانبه الى أنفاس خالصة (١) » .

---

(١) د. شوقى ضيف : التطور والتجديد فى العصر الأموى ص ٢٨ ط دار المعارف .

ولعل ذلك الكلام له وجاهته فاننا نرى * في كثير من العصور أن نهضة الغناء تؤثر في شعر الغزل ، أو تدفع اليه فيتعاونان معا على خلق جو عاطفي وفني ، وقد حدث ذلك في العصر الحديث عندما أفـــرد شعراء شعرهم الى الغناء كي تشدو به فنانة العصر الحديث أم كلثوم، فأحمد رامي كان سباقا الى مثل هذا اللون من شعر الغزل ، وكان هـــو وأم كلثوم رفيقي غناء ، هذا يحدو بشعره ، وتلك تشدو بصوتها .

والقارىء لأخبار عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن قيس الرقيات والأحوص في كتاب الأغاني والشعر والشعراء ، وطبقات فحول الشعراء وغيرها من الكتب التي عرضت لنتاج هؤلاء الشعراء يجد أن كثيرا من شعرهم تغنى به المغنون ، وشدا بنغمه الشادون ، بل ان النـــاس جميعا كانوا يرددون هذا الشعر ، ويطربون لسماعه ، فولد فيهـــم ذوقية متفردة .

أما عمر بن أبي ربيعة فقد أفرد له صاحب الأغاني جانبا كبيرا من من الجزء الأول (١) ، بل ان صاحب الأغاني لم يقدم عليه الا ترجمتين فقط ، هما: ترجمة أبي قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط(٢)، وترجمة معبد بن وهب المغني (٣) .

وكأنما أراد عمر بشعره ــ كما يقول الدكتور شوقي ضيف ــ كله

---

(١) أخبار عمر بن أبي ربيعة في الأغاني الجزء الأول من ص ٦٦ حتى ص ٢٥٦ انظر الأغاني ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) الأغاني ج١ ص ١٣ المصدر نفسه .

(٣) الأغاني ج١ ص ٣٩ المصدر نفسه .

الغناء ، فغزله فى حقيقة أمره أغان ، ولعل ذلك مما جعله كله مقطوعات الا بعض قصائد قليلة جدا ، ومع ذلك غنيت ، أو غنى منها غير قليل من أبياتها ، ولم لا تغنى ، وقد كان عمر نفسه يعمل على ذلك ، فهو يقرب منه ابن سريج والغريض ، ويلزمهما ، حتى يؤلفوا جميعا مايشبه الجوقة ، فهو لا يذهب ولا يجىء الا مع أحدهما أو معهما ، ويظهر أنه كان كثير البذل لمن يغنون فى شعره فمما يروى أنه أعطى ابن سريج فى تلحين قطعة له ثلاثمائة دينار ، كما أعطى الغريض فى تلحين أخرى خمسة آلاف درهم (١) » .

ويبدو أن المحافظين من العلماء قد وقفوا معارضين لذلك اللون من الغزل الذى وجدوا فيه دعوة الى الرذيلة ، واستباحه لحرمات المسلمين . حتى انهم ربطوا بين ميلاد عمر بن أبى ربيعة ومقتل سيدنا عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ فقالوا : انه ولد فى الليلة التى استشهد فيها الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، وفرق كبير بين عمر الراحل ، وعمر الوليد ، فقد روى «الأغانى بسنده (جـ١ ص٨٦) عن الحسن البصرى أنه قال : « ولد عمر بن أبى ربيعة ليلة قتل عمر بن الخطاب ـــ رحمة الله عليه ـــ فأى حق رفع ، وأى باطل وضع » فالقارىء لهذه العبارة يدرك موقف العلماء من هذا الغزل ، وكأنهم أرادوا وسم هذا الشعر بميسم المروق من الفضيلة ، والانغماس فى الرذيلة .

وقد روى الأغانى عن هشام بن عروة قوله : « لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبى ربيعة لا يتورطن فى الزنا تورطا وأنشد :

---

(١) د. شوقى ضيف : التطور والتجديد ص ٢٣٨ .

لقـــد أرسـلت جـاريتى
وقلت لهـا خـذى حذرك
وقـــولى فى ملاطفـــة
لـزينب : تولى عمرك (١)

وقد ورد هذان البيتان أيضا فى الأغانى وورد بعدهما بيتـــان آخران هما :

فهــزت رأســـها عجبـا
وقـالت : من بذا أمـرك
أهـذا سـحرك النســوا
ن قـد خـبرتنى خـــبرك

ولقد روى الأغانى بسنده — أيضا — عن أبى المنوم الأنصارى قوله « ما عصى الله بشىء كما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة (٢) » .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه — فعلا — ويلح على من يتتبع أخبار عمر بن أبى ربيعة هو : هل كان عمر بن أبى ربيعة واقعيـــا فى شعره ؟ وهل كل ما قاله قد عاشه ؟ أم أن الخيال فعل به الأفاعيـــل فقال الشعر يصور به ذلك الخيال ، ويرسله غناء يتردد فيمس شغاف قلوب الشباب العاشق الولهان ؟ .

لقد روى الأغانى روايات مختلفة عن عمر بن أبى ربيعة بعضها يثبت فيه فعله لكل قول قاله ، وبعضها ينفى فيه فعل كل ما قاله ، فمن

---

(١) الأغانى ١/٧٩ المصدر نفسه .
(٢) الأغانى ١/٨٠ المصدر نفسه .

ذلك ما رواه بسنده قال : « إنى لأطوف بالبيت فإذا أنا بشيـــيخ فى الطواف ، فقيل لى : هذا عمر بن أبى ربيعة . فقبضت على يده وقلت له : يا بن أبى ربيعة فقال : ما تشاء ؟ قلت : أكل ما قلتـــه فى شـــعرك فعلته ؟ قال : اليك عنى . قلت أسألك بالله : قال : نعم ، وأســـــتغفر الله (١) » ؟

وقد روى الأغانى — أيضا — قوله : « أشرف عمر بن أبى ربيعة على أبى قبيس وبنو أخيه معه وهم محرمون ، فقال لبعضهم : خـــــذ بيدى ، فأخذ بيده ، وقال : ورب هذه البنية ما قلت لامرأة قط شيئا لم تقله لى : وما كشفت ثوبا عن حرام قط ، قال ولما مرض عمر بن أبى ربيعة مرضه الذى مات فيه جزع الحارث جزعا شديدا ، فقال عمر : أحسبك انما تجزع لما تظنه بى . والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط . فقال : ما كنت أشفق عليك الا من ذلك ، وقد سليت عنى (٢) » .

ولعل هذين الخبرين اللذين رواهما الأغانى يجيبان على تساؤلنا السابق ، وإذا كنا نميل الى جانب القاعدة التى تقول : ادرءوا الحدود بالشبهات ، فاننا نميل الى أن عمر بن أبى ربيعة قد قال هذا الشـــعر يحاول به بعث جو من الحياة العاطفية ، حتى يغنى هذا الشعر ،فيحدث متعة للسامعين ، أن عنصر الخيال باد فى غراميات عمر بن أبى ربيعة ولعله قد سلك المنهج الذى سلكه من قبل امرؤ القيس الذى أشاع فى العصر الجاهلى جوا من حياة اللهو والمجون ، وكل غرامياته لا تعدو أن تكون نسيجا من الخيال أوحى به اليه شيطان شعره .

أما شعر عمر بن أبى ربيعة وشاعريته ، فقد صارت مضرب المثل حيث أن الأغانى يروى — أيضا — أن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم

---

(١) الأغانى ١/٧٩ المصدر نفسه .
(٢) الأغانى ١/٨١ المصدر نفسه .

في كل شيء عليها الا في الشعر فانها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر ابن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضا ، ولم تنازعها شيئا (١) » .

ولكنه الشعر الذي صرفه لربات الحجال — كما يقول ، والذي أضحى به يمثل علامة بارزة في سير ذلك الفن الذي صار به فنا مستقلا « حتى جعل الفرزدق يقول عندما سمع شيئا من نسيبه هذا الذي كانت الشعراء تطلبه ، فأخطأته ، وبكت الديار ، ووقع هذا عليه (٢) » .

أما جرير فانه كان لا يعترف لعمر بن أبي ربيعة بالشاعرية ، أو كان يقول : هذا شعر تهامي اذا أنجد ، حتى أنشد قوله :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت
فيضحى ، وأما بالعشي فيخصر
قليلا على ظهر المطية ظله
سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة
وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهمها
فليست لشيء آخر الليل تسهر

فقال جرير : « مازال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر (٣) » .

---

(١) الأغاني ٧٨/١ المصدر نفسه .
(٢) الأغاني ٨٠/١ المصدر نفسه .
(٣) الأغاني ٨٦/١ المصدر نفسه .

والقصيدة هذه من عيون شعر عمر بن أبى ربيعة ، وقد قيل انه أنشدها سيدنا عبد الله بن عباس فحفظها (١) .

ولقد حاول صاحب الأغانى أن يسوق بعض الأخبار التى تفاضل بين عمر بن أبى ربيعة وبين غيره من الشعراء الذين صرفوا شعرهم للغزل ، فقد روى صاحب الأغانى بسنده عن عبد الجبار بن سعيد المساحقى عن أبيه قال : « دخلت مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع نوفل بن مساحق فانه لعتمد على يدى اذ مررنا بسعيد ابن المسيب فى مجلسه ، وحوله جلساؤه ، فسلمنا عليه ، فرد علينا ، ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد من أشعر : صاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عبد الله بن قيس الرقيات أو عمر بن أبى ربيعة ، فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد ؟ قال حين يقول صاحبنا :

خليلى ما بال المطايا كأنما
نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد قطعت أعناقهن صبابة
فأنفسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وانتحى
بهن فما يألو عجول مقلص
يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا
اذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ويقول صاحبك ما شئت ، فقال له نوفل : صاحبكم أشعر فى الغزل ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر قال : سعيد : صدقت ، فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر جعل سعيد يستغفر الله ، ويعقد بيده ، حتى وفى مائة. فقال البكرى فى حديثه عن عبد الجبار قال : مسلم فلما انصرفنا قلت لنوفل : أتراه استغفر الله من انشاد الشعر فى مسجد رسول الله —

(١) الأغانى ١/٧٦ المصدر نفسه .

صلى الله عليه وسلم : فقال « كلا ، هو كثير الانشاد والاســـتنشاد للشعر فيه ، ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه (١) » .

ومهما يكن من أمر عمر بن أبي ربيعة ، ومهما يكن من آراء قيلت فيه ، أو قالها هو عن نفسه ، وسواء أعاش غرامياته ، أم كانت من وحي الخيال فإن القارىء لشعره يرى فيه مادية قاتلة وتجسيدا لما كان يحدث بينه وبين صويحباته ، وانكبابا على اللذة ، ولا شك أن هذا الشعر من شأنه أن يثير في قارئه غرائز مادية سما بها الإسلام وارتقى بالإنسان ، حتى لا يصرف نفسه ، ليجرى وراء شهواته المادية .

ولعل القارىء لأبياته الآتية يدرك ما قام به عمر بن أبى ربيعة من شعر صرفه لتعميق المادية في عقول الشباب ، فقد اجتمع جميـــل ابن معمر العذري وعمر بن أبي ربيعة بالأبطح فأنشد جميل قصيدته التى يقول فيها :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى
بثينة أو أبدت لنا جانب البخــل
يقولون مهــــلا يا جميــل واننى
لأقسم مــالى عن بثينــة من مهــل

حتى أتى على آخرها، ثم قال لعمر : يا أبا الخطاب هل قلت فى هذا الروى شيئا ؟ قال : نعم قال : فأنشدنيه ، فأنشده قوله :

جرى ناصح بالود بينى وبينهــا
فقــربنى يوم الحصاب الى قتلى

---

(١) الأغانى ١/١١٧ ، ١١٨ المصدر نفسه .

فطارت بحد من سهامى وقربت
قرينتها حبل الصفاء الى حبلى

وفيها يقول :

فقالت وأرخت جانب الستر انما
معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب
ولكن سرى ليس يحمله مثلى

فلما اقتصرنا دونهن حديثنا
وهن طبيبات بحاجة ذى الشكل
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا
نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل
فقالت فلا تلبثن قلن تحدثى
أتيناك وانسبن انسياب مها الرحل
وقمن وقد أفهمن ذا اللب أنما
أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى (١)

فقال جميل : هيهات يا أبا الخطاب . والله لا يخاطب النساء مخاطبتك أحد (٢) » .

---

(١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٥٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ م .

(٢) الأغانى ١/١١٩ ، ١٢٠ المصدر نفسه .

فقد ساق عمر بن أبى ربيعة قصة حدثت بينه وبين صويحباته ، وقد كان معها بعض النساء فاحتال حتى فهمن غرضـــه ، وانصرفن وتركتهما وحيدين يتناجيان ، وهو جانب لم يعرض له شعراء الغـــزل العذرى ، واذا حدث وبقى أحد شعراء الغزل العذرى مع صاحبته فانه لا يفكر مطلقا فى النيل من عفافها وطهرها ، كما فعل عمر بن أبى ربيعة، بل أن الأبيات المتبقية من القصيدة لتوحى بكثير من المعـــانى المـــادية التى قصد اليها الشاعر قصدا ، وتعمد الوقوف عليها اما ابداء لجوانب الرغبة الكامنة فى قلبه ، أو محاولة منه لاذكاء ثورة الشـــهوة لدى سامعيه ، وفى كل فقد رغب عمر بن أبى ربيعة عن المبادىء الســـامية والأغراض النبيلة للشعر ، والتى عمقها الاسلام فى قلوب معتنقيه •

لقد ولد شعر عمر بن أبى ربيعة وأضرابه من شعراء الغـــزل جوا من النقد ينهض بهذا اللون من الشعر ، ويجعلـــه يؤدى دوره فى التعبير عن العواطف والأحاسيس ، ولم يكن هذا النقـــد قاصرا على فئة معينة من النقاد ، أو المشتغلين بالدراسات الأدبية ، وانمـــا كان الجميع يخوضون فى هذا المجال ، وكانت هناك مجالس أدبية تعقد ، ويتذاكر فيها الناس ذلك النتاج الذى تولد عن قرائح أولئك الشعراء ، ومن بين هذه المجالس ما ذكرته قبلا من مجلس سكينة بنت الحســـين التى كانت تعرض فى مجالسها الأدبية لشعر جميل وغيره من شـــعراء الغزل العذرى ، وقد أوردت لنا كتب الأدب قولها فى بيت جميل :

لكل حديث بينهن بشـــاشة وكل قتيل عندهن شهيد

فقد روى أنها قالت : رحم الله جميلا ، فقد جعل الحديث الينـــا بشاشة ، وقتلانا شهداء •

أما عبد الملك بن مروان فقد شارك في نقد شعر الغزل ذلك الذي شغل به كثير من شعراء العصر الأموي ، ووجد بيئة فنية أحبته وألفته.

فقد « دخل الأقيشر على عبد الملك بن مروان ، وعنـــــده قوم فتذاكروا الشعر ، وذكروا قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت   فياويح دعد من يهيم بها بعدى

فقال الأقيشر : والله لقد أساء قائل هذا الشعر قال عبد الملك :فكيف تقول لو كنت قائله ؟ قال كنت أقول :

تحبكم نفسى حياتى ، فان أمت   أو كل بدعد من يهيم بها بعدى

قال عبد الملك : والله لأنت أسوأ قولا منه حين توكل بها !! فقال الأقيشر : فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال كنت أقول :

تحبكم نفسى حياتى فان أمت   فلا صلحت هند لذى خلة بعدى

فقال القوم جميعا : أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم (١) »

لقد حاول عبد الملك ومن معه من الحاضرين أن يبتعدوا عن الدائرة التى وقع فيها نصيب لأنه اغتم كما يقول كثير لمن يفعل بها بعده ، وهو لا يكنى (٢) » فأتوا بمعانى أخرى ، وكل واحد منهما — أيضا — أدخل نفسه فى دائرة شبيهة بدائرة نصيب ، فالأقيشر أراد أن ينفى الأنانية

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٣٢٤ ط دار المعارف .
(٢) ابن رشيق : العمدة ١١٨/١ المصدر نفسه .

عنه ، وأن يدعى لنفسه حبا مجردا من الغرض ، فوكل بها شــخصا آخر بعده يحل محله ، وعبد الملك بن مروان لم يعجبه هذا المعنى فأتى بمعنى آخر أعجب الحاضرين ، ولكن الأنانية بادية فيه .

وهناك نقاد آخرون — أيضا — كان لهم دور في تقويم الشعر ، ونقد بعض المعانى التى قد يأتى بها الشعراء دون مراعاة لقواعد الفن وأصوله .

فقد « تسمع ابن أبى عتيق قول عمر بن أبى ربيعة :

بينمــــا ينعتننــى أبصرننى
دون قيــد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكـــبرى أتعــرفن الفتى
قالت الوسطى : نعم هــذا عمر
قالت الصــغرى وقد تيمتهــا
قد عــرفناه وهــل يخفى القمر

فقال له : أنت لم تنسب بهن ، وإنما نسبت بنفسك ، وإنمــا كان ينبغى لك أن تقول :

قالت لى : فقلت لها ، فوضعت خدى فوطئت عليه » .

وكذلك قال له كثير لما سمع قوله :

قالت لهــا أختهــا تعــاتبها
لا تفســدن الطــواف فى عمر
قــومى تصــدى له لأبصره
ثم إغمــزيه يا أخت فى خفــر

قالت لها قد غمــــزته فأبى

ثم اسـبطرت تشـتد فى أثرى

أهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة قال بعضهم أظنة عبد الكريم العادة عند العرب بأن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة والراغبة المخاطبة ، وهذا دليل كرم النحيزة فى العرب وغيرتها على الحرم (١) » .

فنقد ابن أبى عتيق وكثير لمعانى عمر بن أبى ربيعة نقد فنى يتجه الى معنى النسيب فالنسيب يجعل فيه المرأة بعيدة عن عرض نفسها على محبيها ، متعالية برغبتها ، متسامية بأنوثتها ، حتى يخطب ودها ويرجى وصلها ، ويتفاضل الشعراء فى قوة التأثير عليها ، والوصول الى قلبها وعاطفتها .

ولهذا المعنى المتقدم عابت سكينة بنت الحسين على الأحوص قوله متغـزلا :

فان تصلى أصلك وان تعودى لهجر بعد وصلك لا أبالى

فقالت له : أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ، هلا قلت كما قال هذا وأشارت الى نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل ان تملينا فما ملك القلب

وهكذا أثار شعر الغزل فى العصر الأموى جوا من النقد حفلت به المجالس الأدبية وراح النقاد يحاولون تقويم هذا الشعر وتقييمه، حتى استقام على عودة ، وأضحى فنا رائدا يزحم بمنكبيه فنون الشـــعر الأخرى ، بل أضحى له شعراء تخصصوا فيه ، ووجهوا عنايتهم نحوه.

---

(١) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ١١٨ المصدر نفسه .

وبعد فان القارىء لشعر الغزل فى العصر الأموى ســـواء أكان المادى منه أم العذرى سيجد أنه الشعر الذى تفرد بخصـــائص لم يسبق اليها ، فقد أضحى فنا مستقلا بذاته ، ووضحت فيــه جوانب القصة الشعرية وان لم تكن قد اكتملت حبكتها الفنية ، وســيجد أن الشعراء قد صرفوا همهم الى الأوزان الخفيفة ، حتى تتنــاسب وفن الغناء الذى أصبح له سلطان على قلوب أولئك الشباب ، بل ان بعض الزهاد وأهل الورع كانوا ينشدون هذا الشعر ويحفظونه ، واذا أردت أن تتبين ذلك فعليك بقراءة كتاب الأغانى ، فستجد فيــه كثــيرا من الأخبار التى تؤكد ما ذهبنا اليه ...

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ...

دكتور عبد المنعم احمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المســاعد
بكليــة اللغة العربية
بالمنــوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج ابن شهيد النقدى
فى رسالة التوابع والزوابع

د . عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى .

وبعـــد

فان للخيال دورا فى اثراء العمل الأدبى ، لأن الأعمال الأدبية التى تخلو من الخيال أعمال محكوم عليها بالفناء ، وقد يكون الخيال — أيحانا أبلغ من الحقيقة،لأن المتلقى يحتاج — أحيانا — الى من يخرجه من واقعه الأليم ، وحيــاته المرة الى عالم مجنح يعيشه بخيــاله بعيدا عن آلامه القاتلة ، وأحزانه المبرحة التى قد تكون سيطرت عليه ردحا من الزمن .

والأديب المقتدر هو الذى يستطيع توظيف الخيال للدفاع عن قضية، أو لتثبيت فكرة ، أو لصرف الناس عن هموم انتابتهم ، أو آلام برحت بهم ، « ان الخيال الانســانى جزء من الوجود ، وبينه وبين الأشيــاء انسجام ضرورى ، وحين يحس الشاعر هذا الانسجام يكون فى قلب الحقيقة » (١)

---

(١) د. مصــطفى ناصــف . الصورة الأدبية ص ٧ ط دار مصر للطباعة .

ان المظهر العام لخيال المتفنن هو ذاك الالهام الذى يعتبر نضجا مفاجئا غير متوقع لكل ما قام به الشاعر من قراءات ومشاهدات وتأملات، أو لما عاناه من تحصيل وتفكير يقال ان الالهام يظهر بعد فترة من الراحة والكمون مفيدا من أثر تلك الراحة نفسها ، ذلك أن تلاشى الانتباه يحرر التفكير من بعض الطفيليات التى تكون عقدا تعوق التفكير فى سيره فضلا على أنه يساعد على تفكيك عناصر المشكلة » (٢) ٠

واذا كان النقاد القدامى لم يولوا هذا الجانب اهتماما خاصـــا ، واعتبروه لونا من التخيل ، بل انهم أحيانا أضافوه الى جانب الابهام ، فيعكس أثر هذا الادراك للخيال فى النقد العربى ، فيما سماه عبد القاهر « التخيل » أو الايهام بالكذب ولهذا يكون من العبث ـــ كما يقول الدكتور محمد غنيمى هلال ـــ « أن نربط بين الخيال والصورة فى النقد العربى القديم ، لأن كليهما ذو مفهوم مستقل عن الآخر ، والربط ـــ فى مفهومها الحديث ـــ لم يوجد الا منذ عهد قريب » (٣) ٠

وعلى الرغم من أن النقاد القدامى ـــ لم يركزوا على هذا الجانب فى دراساتهم الا أن الشعراء لم يهملوه ، وشعراء العصر الجاهلى خير مثال على ذلك فقد رأينا كثيرا منهم من يلجأ الى الخيال يجمل به صوره، ويوشى به كلامه ، ولعل وصف الروضـــة الذى أتى به عنترة فى طويلته يكشف لنا عن خيال ثر ، وروح شـــفافة تثير أغوار التزين ، وتســـتلهم عظمتـــه ٠

« وقد يبلغ ذلك المبلغ فى وصف خلجات النفس ازاء روعة الطبيعة من شعر هذا العصر ذى الطابع الفنى وصف امرىء القيس لما كان يشعر به أمام جمال الدنيا ، بعد أن كف المطر عن السقوط ، وصفا الجو ، ورق

---

(٢) د٠ مصـــطفى ناصـــف ٠ الصورة الادبية ص ١٢ ط دار مصر للطباعة ٠

(٣) د٠ محمـــد غنيمى هلال النقـــد الادبى الحـــديث ص ١٦٧ ٠ ط دار مطابع الشعب ١٩٦٤ م ٠

النسيم ، ودلفت العصافير من أوكارها تتغنى بالطبيعة وتهتف بجمالها سكرى من حلاوة ما تحس وتلقى فى صبح ذلك اليوم المبتل الخصيب :

كـأن مكـاكى الجـوا غديــة
صبحن ســلافا من رحيق مفلفل (٤)

ولكن هل هذا هو المعنى الذى نقصده بالخيال فى هذا البحث ؟ اننا — بالطبيعة — لا نقصد ذلك الجانب مزينا بكثير من الصور الاستعارية ، وانما نقصد لونا آخر من الخيــال ينقل فيه الأديب المتلقى الى جو لم يألفه ، وعالم لم يعرفه .

ان رسالة التوابع والزوابع خيال ينقل المتلقى الى عالم الجن ، ثم تقدم له ذلك العالم تقديما يجعله كأنه يعيشه فى عالم الحقيقة والواقع ، انه مجتمع يموج بكل ضروب الحياة وأفانينها ويضطرب بكل همومهــا ومشــكلاتهــا .

وليس عجبا أن نقول ان العرب القدامى عرفوا ذلك اللون من الخيال عندما تصوروا أن هناك مخلوقات مخيفة لم يروها ، ولكنهم تخيلوهــــا بعقولهم ، حتى كادت تصــل الى حقــائق الأشــياء ، فذكروا كلمــة « العنقاء » (٥) وحاولوا ايجاد سبب لتسميتها ، فمنهم من يقول انهــا

---

(٤) نجيب محمد البهبيتى : تاريخ الشعر العربى من آخر القرن الثالث الهجرى ص ٥٦ ط دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

(٥) العنقاء طائر ضخم ليس بالعقاب ، وقيل العناء المغرب كلمة لا أصل لها ، يقال انها طائر عظيم لا ترى الا فى الدهور ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة وقال .

ولولا سليمان الخليفة حلقت   به من يد الحجاج عنقــاء مغرب

وقيل سميت . عنقاء لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق ، وقيل

طائر ضخم كان ينزل على جبل فينقض على من يلحق به فيغرب به ، ومنهم من يقول انها سميت عنقاء لبياض كان في عنقها كالطوق ، وكل هذه الآراء لا تخرج عن كونها ضربا من الحدس والتخمين لمخلوق خيالى متوهم تصورته العرب لا وجود له ، ولكن الخيال فعل فعله ، فجعلهم يتصورون ما تصوروا .

والأمم في فترة طفولتها قد تتصور أشياء بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، وكذلك يصنع الناس بأطفالهم حيث يوهمونهم بأن هناك أشياء مخيفة ان هم تجاوزوا مكانهم أحدثت بهم مخاطر ، وأصابتهم بشر ، فيخاف الأطفال لمجرد ذكر هذه المخلوقات المتوهمة .

ولم تكن أمة العرب بدعا في ذلك فان امة اليونان قد سبقتهم الى الخرافات أو الأشياء المتخيلة ، وقد ذكرت لنا كتبهم كثيرا من القصص الخرافية حتى ان هومروس قد بنى الالياذة والأوديسا على خرافات كان اليونانيون يعتقدونها .

ان هذا المنهج الخرافي ، أو الخيالى له دلالته القوية على عقلية الأمم ، ونضجها الفكرى ولعل العرب أقل من غيرهم ايمانا بالخرافات ،

العنقاء فيما يزعمون : طائر عند مغرب الشمس ، وقال الزجاج : العنقاء المغرب طائر لم يره أحد .. وقال ابن الكلبى : كان لأهل الرس نبى يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له دمخ مصعده في السماء ميل فكان ينتابه طائر كأعظم ما يكون له عنق طويل من أحسن فتأكلها ، فجاعت فانقضت على صبى فذهبت به ، فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت ، وضمتها الى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت بها ، فشكوا ذلك الى نبيهم ، فدعا عليها فسلط الله عليها آفة فهلكت فضربتها العرب مثلا في أشعارها » لسان العرب مادة « عنق » .

لأنهم كانوا قريبين من مواطن الديانات السماوية ، بل كانوا مجاورين لحضارات اكتسبت منها كثيرا من المعارف ، ومن تحكيم للعقل الذى لايقبل كثيرا مما قبلته بعض الأمم .

والأمر ما جاء القرآن الكريم موافقا فى بعض تشبيهاته لما جرى عليه الالف العربى ، فقد صور الزقوم فقال « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » الآية ٦٥ الصافات .

يقول الزمخشرى « وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهية وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير ، فيقولون فى القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ، واذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقد وأهوله »(٦) .

ويقول القرطبى فى بيان هذه الآية « قيل يعنى الشياطين بأعيانهم ، شبهها برؤوسهم لقبحهم ، ورؤوس الشياطين متصور فى النفوس وان كان غير مرئى ، ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة ، هو كصورة ملك ، ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » وهذا تشبيه تخييلى روى معناه عن ابن عباس والقرظى ، ومنه قول امرىء القيس :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وان كانت الغول لاتعرف ، ولكن لما تصور من قبحها فى النفوس » (٧) .

---

(٦) الزمخشرى : الكشاف جـ ٣ ص ٣٤٢ ط مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٧) القرطبى : الجامع لاحكام القرآن جـ ٨ ط دار الشعب .

وعلى هذا فان العنقاء ورءوس الشياطين والغول من الأمور المتخيلة التى عرفها المجتمع العربى ولم ير الأدباء والشعراء خروجا على الالف العام فى استعمالها .

وهناك أمر آخر عرض له القرآن الكريم أيضا وذكر فى أكثر من موضع بل ان هناك سورة من سور القرآن سميت به بدأها الله سبحانه وتعالى بقوله لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » (سورة الجن الآية ١ ، ٢) .

وعالم الجن مما عد قرينا لعالم الانس ، بل ان الجن والانس توجه اليهما الخطاب فى قوله تعالى « يا معشر الجن والانس ان اسطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » وهذه الآية تأتى تالية لقوله تعالى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » والثقلان كما يقول الزمخشرى : الانس والجن . سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض .

ان هذا العالم مما علمه المسلمون ، وحدثهم به القرآن الكريم ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد نبههم الى أن الجن منه مؤمن وكافر ، ومطيع وعاص ، لقد وضع علماء التوحيد تعريفا للجن ، فقالوا : انها أجسام هوائية لطيفة تتشكل بأشكال مختلفة . وتظهر منه أعمال عجيبة منهم المؤمن ومنهم الكافر ، وهم كبنى آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون ويكلفون .

بم تأثر ابن شهيد :

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل تأثر ابن شهيد بحادثة المعراج أم أنه تأثر بما تقدم من الحديث عن الجن وعالمهم ، وما كان يعتقده العرب من أن هناك واديا يقال له وادى عبقر تسكنه الجن ؟ (٨) .

---

(٨) « عبقر » موضع بالبادية كثير الجن ، يقال فى المثل كأنهم

ان الباحث لهذا الموضوع يرى أن الأدباء المحدثين لم يشيروا الى موضوع التأثر هذا فأغفلوا كل حديث للعرب عن الجن وعن وادى عبقر ، وعن القصص الخرافى الذى كان العرب يسوقونه فى أشعارهم ، وحاول بعضهم أن يجعل ابن شهيد متأثرا بقصة المعراج فقال (٩) « على أنه لا يمكن أن يغفل النبع الحقيقى لهذا النوع من القصص ، فهو مصدرها الأصلى ، وجذرها الخفى ، ذلك المصدر هو قصة المعراج الاسلامية التى تحكى صعود محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الاسراء الى السموات على ظهر براق ، وفى صحبته جبريل عليه السلام ، حيث رأى عالما آخر غير عالمنا الذى نعيش فيه ، فالمعقول أن تكون قصة المعراج هى أول قصة فى التراث العربى ، ينتقل فيها البطل الى عالم آخر على ظهر فرس يسابق

جن عبقر - الجوهرى : العبقر موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن قال لبيد :

ومن قاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

ثم نسبوا الى كل شىء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوته فقالوا « عبقرى » وهو واحد وجمع والأنثى عبقرية ، قال ابن برى : قول الجوهرى : العبقر موضع : صوابه أن يقول : عبقر بغير ألف ولام لأنه علم لموضع كما قال امرؤ القيس :

كأن صليل المروحين تشذه صليل زيوف ينتقدن بعبقرا

وكذلك قول ذى الرمة :

حتى كأن رياض القف ألبسها من وشى عبقر تجليل وتجنيد

قال ابن الأثير : عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا ، فكلما رأوا شيئا فائقا غريبا مما يصعب عمله ويدق ، أو شيئا عظيما فى نفسه نسبوه اليه فقالوا « عبقرى » (لسان العرب) .

(٩) د. أحمد هيكل - الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة

الريح ، وفى صحبة رائد يرود الطريق ، وينتقل بالبطل من جو الى جو ، ومن مشهد الى مشهد من أجواء ومشاهد لاتعرف فى دنيانا نحن .

ثم يذكر الدكتور هيكل ، قضية أخرى فيقول « والمعقول — أيضا — أن تكون قصة المعراج وما اشتملت عليه من أوصـاف للجنة والنـار ، وطوائف المنعمين والمعذبين قد أمدت أبا العلاء بكثير من المشـاهد التى ضمنها « رسالة الغفران » ، وعلى هذا يرجح أن يكون أبو العلاء قد أفاد من التوابع والزوابع ، وخاصة من ناحية مناقشة الأدباء ، وعرض بعض مســائل الأدب ، وأفاد كذلك من المعراج ، وخاصـة من ناحية وصف الفردوس والجحيم ، وعرض بعض مشاهد الآخرة » (١٠) .

ان قصة المعراج التى حدثت لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — والتى رآى فيها كثيرا من المشاهد فى السماء ، وفى الجنة والنار لن تكون الملهم لهذا اللون من القصص ، ذلك لأن المسلمين جميعـا يعتقدون أن المعراج كان بالروح والجسد معا ، وليس ثمة ما يشير الى جانب الخيال فيها ، لأن القرآن الكريم ذكر الاسراء بقوله « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » (الاسراء ١) .

فالجسم والروح هما قوام الاسراء والمعراج ، أما حديث ابن شهيد فى التوابع والزوابع فهو ضرب من الخيال أوحتبه — فيما اعتقد — تلك الفكرة التى كانت سائدة عند العرب بأن لكل شاعر شيطانا يلهمه الشعر ، وأن هناك — واديا — تسكنه الجن يقال له « عبقر » كما ذكر صـاحب اللسان ، ووافقه الجوهرى وغيره ، ولعل ذلك ما تؤكده التســمية ، لأن التوابع جمع تابع وتابعة وهو الجنى والجنية يكون مع الانسان يتبعانه

---

(١٠) د. أحمد هيكل — الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٣٨٥ ط دار المعارف .

(٣٤ — ج٤)

حيث ذهب ، والزوابع جمع زوبعة ، وهو اسم شيطان ، أو رئيس للجن ومنه سمي الاعصار زوبعة اذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء فى القاموس المحيط (١١) •

ويبدو أن التشابه الظاهرى فى الموضوع جعل المحدثين يجزمون بتأثر ابن شهيد بالمعراج لكن النظرة الفاحصة ترى أنه لا تشابه بين مسرح الموضوعين فابن شهيد جعل مسرح أحداثه عالم الجن فى الدنيا ، وأبو العلاء جعل مسرح أحداثه الفردوس والجحيم فى الآخرة ، والأخير قريب الشبه جدا بالمعراج ، لأن الرسول رأى فى رحلته المنعمين فى الفردوس ، والمعذبين فى الجحيم ، وكذلك الشخوص مختلفون ، فبينما يتخذ ابن شهيد شخوصه من الجن وهؤلاء ليس لهم وجود فى المعراج اذ بأبى العلاء يتخذ شخوصه من انس تسخرهم الملائكة ، أو الشـياطين وهو ما له وجود فى رحلة المعراج ، وهنـاك جانب اختلاف آخر بين الرسـالتين فبينمـا يعرض ابن شهيد للمشكلات الأدبية والبيانية اذ بأبى العلاء يعرض للمعضلات الدينية ، والمشكلات الفلسفية؛ حقيقة أن كلا الرجلين يعرض بمعاصريه، ويرميهم بالجهل والحمق فى معالجة القضايا الفكرية والأدبية الا أن هذا الجانب فى رسالة كل منهما مختلف ، وهو ما يجعلنا نرجح تأثر أبى العلاء الواضح بمعجزة المعراج بينما تأثر ابن شهيد بذلك الجانب الخيالى الذى

---

(١١) قال صاحب اللسان : التابعة : الرئى من الجن ألحقوه الهاء للمبالغة ، أو لتشنيع الأمر أو على ارادة الداهية . والتابعة : جنية تلحق الانسان ، وفى الحديث : أول خبر قدم المدينة يعنى من هجرة النبى – صلى الله عليه وسلم – امرأة كان لها تابع من الجن »

والزوابع والزوبعة : ريح تدور فى الأرض لا تقصد وجها واحدا تحمل الغبار ، وترتفع الى السماء كأنه عمود أخذت من التزبع ، وصبيان الأعراب يكنون الاعصار أبا زوبعة : يقال فيه شيطان مارد ، وزوبعة : اسم شيطان مارد ، أو رئيس من رؤساء الجن ، ومنه سمى الاعصار زوبعة » لسان العرب •

كان مألوفا عند العرب ، وهو وجود واد تسكنه الجن يقال له « عبقر »، وما أثر عنهم — أيضا — من وجود شيطان لكل شاعر يلهمه الشـــعر ، وينفث به اليه ، وهو ما قرره ابن شهيد ، بل جعله حقيقة عندما أعلن أن زهير بن نمير تابعته كان يلهمه الشعر وينفث به اليه فهو يقول : «وكان لى فى أوائل صبوتى هوى اشتد به كلفى ، ثم لحقنى بعد ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل ، فجزعت ، وأخذت فى رثائه يوما فى الحائر (١٢) وقد أبهمت على أبوابه ، وانفردت فقلت :

تولى الحمـــام بظبى الخـــدور
وفـــاز الردى بالغزال الغرير

الى أن انتهيت الى الاعتذار من الملل الذى كان فقلت :

وكنت مللتك لا عـــن قلـــى
ولا عن فساد جرى فى ضـــميرى

فارتج على القول ، وأفحمت ، فاذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه ، وقد اتكأ على رمحه وصاح بى،أعجزا يافتى الانس ؟ قلت لا وأبيك : للكلام أحيان أو هذا شأن الانسان ، قال لى قل بعده .

كمثـــل ملال الفتى للنعيـــم
اذا دام وحـــــــال السرور

فأثبت اجازته ، وقلت له : بأبى أنت — من أنت ؟ قال : أنا زهير ابن نمير من أشجع الجن فقلت : وما الذى حداك الى التصور لى ؟ فقال: هوى فيك ، ورغبة فى اصطفائك قلت : أهلا بك أيها الوجه الوضـــاح ،

---

(١٢) الحائر : المكان المطمئن يجتمع فيه الماء،ثم سموا البستان به

صادفت قلبا اليك مقلوبا ، وهوى نحوك مجنوبا ، وتحادثنا حينا ، ثم قال : متى شئت استحضاري ، فأنشد هذه الأبيات :

وآلى زهير الحب يـــاعز انـــه
اذا ذكرته الذاكرات أتـــاهـــا
اذا جرت الأفواه يوما بذكرهـــا
يخيل لى أنى أقبل فـــاهـــا
فأغشى ديـــار الذاكرين وان نأت
أجـــارع من دارى هوى لهواها

وأوثب الأدهم جدار الحائط ثم غاب عنى « (١٣) .

هل تأثر ابو العلاء بابن شهيد ؟

حـــاول الكتـــاب المحدثون أن يجعلوا أبا العلاء المعرى متأثرا بابن شهيد ، وان كنت أرى — كما أسلفت آنفا — أن مجال التأثر بين الكاتبين ضعيف ، وان كان هناك تأثر فانه يكون فى الفكرة العامة وهى كتابة رسالة لصديق تحمل بعض القضـــايا الفكرية والأدبية ، وبعض الأحكام النقدية ، وقد أثبت ذلك الدكتور زكى مبارك (١٤) ، وتـــابعه الدكتور أحمد هيكل مع اختلاف فى تاريخ كتابة رسالة التوابع والزوابع ، فبينما يرجح الدكتور زكى مبارك أن رسالة التوابع والزوابع كتبت عام ٤٠٧ هـ يرى الدكتور أحمد هيكل أنها كتبت سنة ٤١٥ هـ .

---

(١٣) ابو الحسن على بن بســام الشنتريني : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ١ مجلد ص ٢٤٧ تحقيق د. احسان عباس ط دارالثقافة بيروت والمقطوعتان بديوان ابن شـــهيد تحقيق يعقوب زكى ص ١٠٦ ، ١٠٧ ط دار الكتاب العربى للطباعة والنشر — القاهرة .

(١٤) د. زكى مبـــارك : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجـــرى جـ ١ ص ٣١٨ ط دار الجيل لبنان .

يقول الدكتور زكى مبارك — بعد أن عرض لرأى الدكتور أحمد ضيف الذى أملاه على طلابه فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٢ م والذى يرى فيه أن رسالة التوابع والزوابع محاكاة لرسالة الغفران ، وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وأن أهل الأندلس كانوا يقلدون أهل المشرق فى كل شىء وأقوى حجة عند الدكتور أحمد ضيف أن عصر ابن شهيد يندرج فى عصر أبى العلاء فقد عاش ابن شهيد من سنة ٣٨٢ هـ — سنة ٤٢٦ هـ ، وعاش المعرى سنة ٣٦٣ هـ — سنة ٤٤٩ هـ — بعد أن عرض لهذا يقول : « وقد رأينا تحقيق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع ، فلم نهتد ، ولكن رأينا فى الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل ، فقد جاء على لسانه ما يشير الى أن من اخوانه من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة (وهذا الكلام — كان ردا على سؤال نقله أبى عيسى — لا على لسان أوزة كما يقول الدكتور زكى مبارك) .

وبعد مناقشة لبعض ما جاء بالرسالة يقول الدكتور زكى مبارك :
ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة « التوابع والزوابع » كتبت بين سنة ٤٠٣ هـ وسنة ٤٠٧ هـ ، ثم يقول .. وقد بحثنا طويلا فى كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعرى رسالة الغفران فلم نهتد ، ولكننا وصلنا بعد التأمل الى تقريب التاريخ ذلك أن رسالة الغفران جواب على رسالة ابن القارح ، وقد عدنا الى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى انتهينا الى قوله « وكيف أشكو من فاتنى وعالنى نيفا وسبعين سنة » فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ، ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ هـ فاذا نظرنا الى هذا الرقم — ٧ — وجدناه كتب رسالته حوالى سنة ٤٢١ هـ ، وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة ٤٢٢ هـ ، واذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفا وسبعين ، وللنيف دلالته ، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الاجابة بأنه

مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران قد كتبت ما بين سنة ٤٢٢ هـ و ٤٢٤ هـ (١٥) .

يقول الدكتور زكى مبارك فى هامش الصحيفة « بعد تحرير هذه المسألة وصلنا الى نص فى رسالة الغفران يدل على أنها كتبت سنة ٤٢٤ هـ اذ يقول المعرى :« ولايجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ابن فلان ثم يقول ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة ، وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أن ابن شـــهيد قلد أبا العلاء ، وصـــــار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلد ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق فى كل شىء وكان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية فى الأندلس بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ، ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت ، وقبل أن توضـــع رســـالة الغفران (١٦) .

وعلى الرغم من أن الكاتبين الكبيرين قد اتفقا على أسبقية ابن شهيد ، وعلى أن أبا العلاء متأثر به ، ومحاك له ، فاننى أرى كما أسلفت أن هذا التأثر تحول بينه أمور كثيرة ، لأن كل واحد منهما سلك نهجا هو بعيد كل البعد عن نهج صاحبه ، وقد تكون الفكرة العامة مشـــتركة بينهما ، أو تتراءى أمـــام النظرة العـــابرة كذلك ، ولكن النظرة المتأنية تدفع ذلك الاشتراك ، فقد أوحت لابن شهيد أساطير العرب وخيالاتها عن الجن والمخلوقات العجيبة ، بنما أوحت لأبى العلاء المعرى رحلة المعراج التى

---

(١٥) زكى مبارك . النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣٢٠ المرجع السابق .

(١٦) د. زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع جـ ١ ص ٣٢٠ المرجع لسابق :

المتقى فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمنعمين والمعذبين من أمته ، وهو ما اتخذه أبو العلاء مسرحا لأحداثه .

ابن شهيد الناثر الشاعر :

لقد عمرت كتب التراجم بالحديث عن حياة ابن شهيد وأخباره ، وأهم ترجمة يمكننا الرجوع اليها هى ترجمة أبى الحسن على بن بسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢ هـ والتى رجع اليها جل الذين ترجموا لابن شهيد ، حتى ان الترجمة التى وردت له فى المغرب (١٧) بدأت الترجمة التى وردت فى المجلد الأول من الذخيرة لابن بسام تحت عنوان بقوله « هو أعظم هذا البيت شهرة فى البلاغة وقال ابن بسام فى وصفه : « شيخ الحضرة وفتاهـا ونـادرة الفلك الدوار ... الخ » وهى نفس « فصل فى ذكر الوزير الكاتب أبى عامر أحمد بن عبد الملك بن شـهيد وسياقة جملة وافرة من نظمه ونثره » (١٨) .

ثم يقول عنه : وكان أبو عامر شيخ الحضرة وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها وينبوع آياتها ، ومادة حياتهـا ، وحقيقة ذاتهـا ، وابن ساستها وأساتها ، ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، ان هزل فسجع الحمام ، أو جد فزئير الأسد الضرغام » (١٩) .

---

(١٧) المغرب فى حلى أهل المغرب جـ ١ ص ٧٨ حققه وعلق عليه الدكتور شوقى ضيف ط دار المعارف ١٩٦٤ م .

(١٨) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة القسم الأول جـ١ ص١٩١ وما بعدها تحقيق د. احسان عباس . ط دار الثقافة بيروت .

(١٩) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول جـ١ ص١٩٢ وما بعدها تحقيق د. احسان عباس . ط دار الثقافة بيروت .

ولسنا الآن أمام تحليل لهذه الآراء التى ساقها ابن بسام ، أو بيان لتلك الأوصاف التى أضفاها على ابن شـــهيد ، لأن هذا القول لم يحن وقته بعد،لأننا عنينا ببيان أن أهم ترجمة يمكننا الرجوع اليها هى ترجمة ابن بسام التى حشدت كثيرا من نثره وشعره ، والتى احتفظت لنا بجزء غير قليل من رسالة التوابع والزوابع ، والتى عقدنا هذا البحث لبيان ما فيها من قضايا أدبية ونقدية ، وتجلية ما غمض على القارىء منها .

لقد عاش ابن شهيد هذه الفترة العصيبة ، وتلك المحن القاسية التى عمت بلاد الأندلس فقد ولد فى بيت أبيه بقرطبة سنة ٣٨٢ هـ فى عهد المنصور بن أبى عامر ، ونشأ فى مهاد النعمة والعيشة الراغدة اللينة،وكان له من ثراء أسرته ، وسعة نفوذها ، ومتين صلتها بالأسرة الحاكمة ما يكفل له المستقبل ، ويغريه بالاقبال على متع الحياة (٢٠) .

ولقد امتدت حياة ابن شـــهيد من ســـنة ٣٨٢ هـ الى سنة ٤٢٦ هـ فصحب الدنيا خلال هذه الحوادث الجسام ، والخطوب المروعة ، وتقلب على عينه سقوط دولة العامريين ، وانهيـــار الخلافة الأموية ، وتدهور الخلافة الحمودية ، واستعانة الأمراء والخلفاء المسلمين بعضهم على بعض باستدعاء الأسبانيين الذين كانوا يتقاضون ثمن هذه المساعدات بالاستيلاء على الحصون المنيعة ، والأماكن الصالحة من الناحية الحربية الاستراتيجية وكانت هذه الأحوال السيئة تضطر ابن شهيد الى محاولة الانغماس فى السياسة والتقرب من الحاكمين ليحفظ رأسه ، ويستبقى مكانة أسرته ويسد مفاقرة فقد كان الرجل مسرفا متلافا (٢١) .

---

(٢٠) موسوعة تراث الانسانية المجلد السابع ص ٢٨٩ من مقال للأستاذ على أدهم ط وزارة الثقافة .

(٢١) موسوعة تراث الانسانية المجلد السابع ص ٢٩٤ من مقال للأستاذ على أدهم ط وزارة الثقافة .

وإذا كانت المصادر التى تحدثت عن ابن شهيد فيها غناء لمن يريد أن يعرف الكثير عن حياته ، بل أن فيها الكثير لمن يريد أن يعرف الكثير عن وضعه الاجتماعى والأدبى ، وإذا كنت فى هذا البحث أحاول الوقوف على جانب من تلك الجوانب التى برز فيها ابن شهيد فان الأمر يقتضى أن أنبه القارىء الى ضرورة الرجوع الى تلك المصادر (٢٢) ، حتى يستطيع معرفة كل شىء عن ذلك الشاعر الناثر الذى أخذ حظه من ذيوع الصيت ، وبعد المنزلة فقد كان ابن شهيد كما يقول عنه ابن خلكان « من أعلم أهل الأندلس متفننا بارعا فى فنونه، وبينه وبين ابن حزم الظاهرى مكاتبات ومداعبات ، وله التصانيف الغريبة البديعة منها كتاب « كشف الدك وايضاح الشك » ، ومنها كتاب « التوابع والزوابع » ومنها حانوت العطار ، وغير ذلك ، وكان فيه مع هذه الفضائل كرم مفرط ، وله فى ذلك حكايات ونوادر » .

ولعل الذين كتبوا عنه من المشارقة رجعوا الى ما كتبه المغاربة والأندلسيون ، بل لعلهم جميعا رجعوا الى ما كتبه ابن حيان عنه ، فقد كان أول المتحدثين عن ابن شهيد ، حتى ان ابن بسام يقول عنه « وقد ذكره أبو مروان بن حيان فى غير ما موضع من كتابه فقال « كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام ، وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر فى البلاغة رسنه قلت عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى زمانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته الى ما شاء من نثره ونظمه فى بديهته ورويته فيقول الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ، فانه لم يوجد له — رحمه الله — فيما بلغنى بعد

---

(٢٢) ترجم له الحميدى فى الجذوة ، وأشاد به فى الأدب والبلاغة ، وترجم له الضبى فى البغية ، والفتح فى المطمح ، والثعالبى فى اليتيمة ، وياقوت فى معجم الأدباء ، والعماد فى الخريدة وابن دحية فى المطرب وابن فضل الله العمرى فى المسالك وابن العماد فى الشذرات .

موته كتاب يستعين على صناعته ويشحذ من طبعه الا ما لا قدر له فزاد ذلك فى عجائبه ، واعجاز بدائعه »(٢٣) .

هذا الكلام من ابن حيان والذى يكاد كثير ممن كتبوا عن ابن شهيد ينقلونه عنه يجعلنا نقف على الطريقة التى اتبعها هؤلاء المؤرخون ، فهم يضفون كثيرا من صفات الجمال عليه ، ويطنبون فى ذكر كثير من عجائبه وبدائعه ، بل ان ابن حيان ذكر أنه لم يكن من هواة جمع الكتب والرجوع اليها وعد ذلك منه اعجازا ، بل انه لم يكن يعنى بطلاب العلم من مصادره فهو أعجوبة من عجائب الدهر ، ومعجزة من معجزات العصر .

ويبدو كما أسلفت أن جميع من كتب بعد ابن حيان قد رجع اليه فى اضفاء هذه الصفات على ابن شهيد ، فقد سلك ذلك المنهج — ايضا — ابن بسام فى الذخيرة وصاحب المغرب وغيره ، وهى صفات تجعلنا نقرر ونحن مطمئنون أن هذا الاتجاه لن يجعلنا نتخذه دليلا قاطعا ، وحكما صائبا على علم ابن شهيد وأدبه ، فقد يكون الاتجاه الغالب عليهم اضفاء الصفات على كل شخصية يعرضون لها ، وحشد كثير من هذه الصفات لمجرد أن هذا الكاتب،أو ذلك الشاعر قد كان له دور فى الوزارة فى فترة من الفترات،فالباحث يجب عليه أن يقف طويلا عند ذكر هذه الآراء، وأن يرجع الى نثر ابن شهيد ، حتى يخرج بنتائج لها أصالتها أو لها دلالتها القوية على أصالة هذا الكاتب ، ومدى فعالية آرائه التى سطرها فى مجال الأدب والنقد .

نثر ابن شهيد :

واذا رجعنا الى كتاب الذخيرة — وهو المصدر الرئيس فى نثر ابن شهيد — وجدنا أن هذا النثر يمثل اتجاهين متباينين ، اتجاها

(٢٣) بن بسام الذخيرة القسم الأول جـ١ ص ١٩٢ المصدر السابق

سار فيه سيرة كتاب الرسائل الاخوانية الذين يعتمدون على السجع ، وعلى حشد كثير من الكلمات الغريبة،والعبارات التى دلل بها على اقتداره على التحكم فى ناصية البيان ، اما الاتجاه الثانى فسيأتى الحديث عنه عند عرضنا لرسالة « التوابع والزوابع » .

والحديث عن رسائل ابن شهيد يدفعنا الى ذكر نماذج منها كى يتبين القارىء منهج الرجل فى رسائله التى كتبها للاستعطاف حينا ، ولشكوى الزمن حينا ، ولتعليم الناشئة حينا ، فهى رسائل متباينة فى فكرتها ، متباينة — أيضا — فى صياغتها ، فبينما نجده فى بعضها ينزل سهلا ، ويصعد جبلا ، ويركب حزنا اذا بك تجده فى أخرى يرق ويلطف ، فيهدل هديل الحمام ، ويغرد تغريد البلابل .

يقول ابن بسام تحت عنوان جملة من كلامه فى أوصاف شتى : « فصول من رقعة خاطب بها المؤتمن بن العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، (٢٤) يقول : لولا أن من العادة بين السادة والمسودين ، والمالكة والمتملكين تطرح الأدمة(٢٥) ، وتدارس لطائف الحرمة لأكبرته — أيده الله — عما أرغب ذكره ، وأكرمته عما أطلب نشره ، ولولا أن من السياسة وعقد الجزالة تذكير أهل العلياء بسوالف النعماء لربأت بما بنته الآباء والأجداد ، وضربت بينه وبين الآفات بالأسداد عن أن أحرز منه بتذكير ، أو دفع عنه بتقدير ، ولولا أن التطويل فيما أقصد قصده، وأنحو نحوه على زماننا وشاغله ، ومجد خطبنا وهازله موجب للقول ، وموجد للسبيل الى الطعن ممن ضعف حجاه ، وقصر به مرماه لرسمت اليه من

---

(٢٤) المؤتمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر الذى كان يلقب أيضا بالمنصور ، ثم سماه خليفة قرطبة القاسم بن حمود بن المؤتمن ذا السابقتين ، وقد ظل واليا على بلنسية حتى مات سنة ٤٥٢ هـ

(٢٥) الأدمة بسكون الميم : القرابة .

الورق أعداد الورق (٢٦) ، ولرغمت اليه من المهارق أشباه النمارق (٢٧)٠

وهى رسالة طويلة كتبها الى المؤتمن يذكره فيها بما كان لأبيه من نعم عليه حينما كان طفلا صغيرا وكـان يختلف الى قصر عبد العزيز ابن عبد الرحمن يوم أن كان والد ابن شهيد عاملا عندهم وكانوا يحنون عليه ويعطفون ، ويخففون عنه برحاءه ، وبه يحتفون فهو يقول « صرت الى بيته فى يوم مطير،وأنا ابن خمس ، أذكر ذلك ذكرى لما كان بالأمس، وكان من اكرامه لى،ولطيف اهتمامه بى ما يطول به الكتاب ، ولا يحتمله الخطاب ، ثم يتحدث عن حفاوته به ، واعطائه تفاحة كبيرة لم يستطيع الأكل منهـا فأخذ يقطع له بفمه ويؤكله ، ثم أرسله الى داخل البيت ، فقد دعا فتى يكنونه « أبا شاكر » فقال : احمله الى امك ، وأرفق به فى أمك(٢٨) ، فأخذ بيدى أمامه ، وابتدرا يسـيران بى قدامه ، وأنا لا أسمح فى القياد لشدة ذلك الوابل ، وتتابع قطر ذلك الهاطل ، فصاح بهما ، أقلاه فاحملاه على أعناقكما ، وسوقا به سـوقا رفيقـا أحسن مساقكما ثم تحدث عن ذلك اللقاء،وتلك الحفاوة التى قوبل بها من أمها ، وهذه الهدايا التى حملها،وكل ذلك يعود الى ما كان عليه الآباء من الحفاوة بالأبناء ، وهو فى كل هذا يذكر المؤتمن بما يجب عليه نحوه ، ثم يصرح له فى آخر الرسالة بما يريد صراحة حيث يقول : « ومملوكك عاكف على الوطن عكوف الراهب على الوثن ، ولم يبق من النعمة غير مصاحبة بلة

---

(٢٦) الورق الأولى بفتح الراء ، والثانية بكسرها:الفضة ، والمهرق الصحيفة البيضاء يكتب فيها والجمع المهارق : فارسى معرب ٠

(٢٧) ابن بسـام الذخيرة القسـم الأول جـ ١ ص ١٩٣ ـ ١٩٩ والمصدر السابق ٠

(٢٨)أمك بفتح الهمزة : قصدك ٠

قد آن لها أن ترتشف وتفاهة تمرة حـان لهـا أن تخترف (٢٩) وعرج لمآله ، والنظر لعاقبة حاله على استخراج ما يمكن من أصول نعمتكم ، ليصون بها جمة وجنته ، ويفر عليهـا نطفة صفحته ، اذ لا سبيل الى التعريج على غير ذلك قطعا ولا الى الالتباس بسواه حتما ، ولو لحس التـراب ، وذاب فى الثيـاب ، فـانه يتنفـس عن نفـس همتهـا الكوكب ، وهمهـا الغبهب ، فلولا همتها لأظلم الدهر ، ولولا همهـا لأسفر الأمر ، وهذا موضع الحدس لا افتراء،وخليقة النفس لا ادعاء، ووعد الوزير عباس بصرف ضيعة لى بجهة تدمير ، حالت الفتن دونها ، واضطراب الأحوال عن مطالعتها ، وأنا أسأل فضلك سـؤال المدل فى استنجاز ما وعد ، فانه يعناض عن شكرى له ، وثنائى عليه ، وصدعى فى المحافل بفضله أجل فائدة يصطفيها ، وأكرم نفيسة يقتنيها » .

ثم يذكر بعد ذلك أن والده « أى والد ابن شهيد » كان عاملا على هذه الضياع من قبل والده ، واستعفى منها ، ويذكر له الرسالة التى كتبها والده عند طلبه الاستعفاء ، ثم يشفع كل ذلك بقصيدة يمدح بها المؤتمن يقول فيها :

أما الرياح بجو عاصم فحلبن أخلاف الغمائم(٣٠)

ويستمر فى غزل رقيق ، وأوصـاف رقراقة ، ويطول نفسه فى ذلك حتى يخلص الى مدح المؤتمن فيقول :

وبعيدة الأرجاء نا زحـة على أيدى الرواسم

---

(٢٩) تخترف : تجتنى ، أو تدخل فى فصل الخريف : أى الزوال والنهـاية

(٣٠) الذخيرة القسـم الأول جـ ١ ص ١٩٩ ، والديوان من ص ١٥٥ ـ ١٦٠ المرجع السابق .

لا تدعى جوبا لها ذات الخوافى والقوادم
من فتنة قد أسبلت ظلماتها بيد المظالم

ثم يقول :

ايه هيا عبد العزيز
وأنت رجام المراجم
قمر تضىء له الخطوب
على دآديها الفواحم
تسرى الرياح بمجده
فنسيمها بالغور فاغم

ثم يقول :

لا نتركن حرم الزمان
على ظبى تلك الصوارم
وارم الخطوب بمثلها
عزما فأنت لها مساهم

ويختمها بالثناء على نفسه وذم أعدائه الذين لا يجيدون مثل هذا اللون من المدح فيقول :

واليكها من ناطق يدعوك اذ صمت البهائم

والقصيدة طويلة تناهز الثمانين بيتا كلها فى مدح المؤتمن ، ولعل رقة القصيدة وجمال كلماتها ، وحسن نسقها تشفع لهذا النثر الذى حمله كلمات ضخمة ، وأسجاعا ثقيلة وعرة .

وهذه رسالة أخرى كتبها ردا على رسالة وردت اليه يقول فيها « ورد كتابك الكريم ، بفضله العميم يتبلج تبلج البرق ، ويتحلب تحلب الودق ، متكسرا فى المشبه ، جاليا لليل الشك والمرية ، قائدا

بأزمة المنى والبغية ، كلما اشتق موجـا غمره ، أو لاعب مرجا بهره ، أو جزع واديا أمده من آنية ، ونعم من أنبوب برديه ، أو مر بروض شق عليه رداء رند وأثار به عجاج ند ، أو عرض حمـامة حيته بغنائها أو سلمت لقوة نزلت اليه من هوائها ، أو مسح بعص حنت اليه أو خطر بأسد تهالكت عليه ، كتاب منع جانبه ، وحمى حامله ، كلما خبط بطحاء كتبت بالكتائب ، أو ركب جرعاء رقمت بالأراقم ، كان لهذه مدية ، ولتلك رقية وكلما كحل مقلة شوساء خشعت ، أو لمس كفا خشـناء بخعت ، أو وقع الى رئيس وضعه على رأسه ، أو دفع الى ذى بأس أخدمه من بأسه ، أو لحته شقراء حمحمت أو بصرت به بيضاء ترنمت، هو الحديقة تساق سوق الوسيقة ، أو اللطيمة فى ثنيها الغنيمة ، فثرت اليه قائما ، وأرقلت نحوه ساعيا ، وكان أول تحيتى له أن قبلتـه ، ووضعته على رأسى ، وحبست اليه أنفاسى،ثم فضحت ختمه واسترقت شمة ، ففتق على نسـيم العبير لخلخ به صـدور الدور ، وأهدى الى عبق الياسمين ، ذر عليه مسك دارين ، فأنعمت فى نشرطيه ، وضربت فى مدرج ليه فاذا ببنـات من البر مسلمة على ، وثغـور من الاكرام ضاحكة الى »(٣١) .

ولعل القـارىء لهذا الخطـاب يدرك أنه موجه الى المؤتمن رب نعمته ، وصاحب الفضل عليه ، لأنه حمله كثيرا من الكلمات التى حشدها للاعلان عن ثروته اللغوية ، وأصالته الفنية ثم هو اعلان عن اقتدار فى تصريف الكلام ، وتوجيه الخطاب الى الملوك والحكام ، وهو بين الحين والحين يسوق جانبا من شعره للاشعار بقدرته على النظم ، وغلبته على هذا الفن ، ثم هو بمدح المؤتمن أن عمه بخيره ، وحباه برفده ، فقد حملت الرسالة اليه كثيرا من الهدايـا والمنح عناها بقوله « فاذا ببنات البر مسلمة على ، وثغور من الاكرام ضاحكة الى » ثم يقول فى آخـر الرسالة ، فقلت : هكذا يكون الألوك ، وبمثل هذا تتفح الملوك .

(٣٣) الذخيرة القسم الأول جـ ١ ص ٢٠٤ المصدر السابق .

وابن شهيد يعلم انه أسرف فى حشد الكلمات ، ورصف الألفاظ والعبارات ، وأن هذا الطول المسرف يصيب القارىء بلون من السأم فيقول « ولما طال الكلام — أيد الله ، المؤتمن — ولم يبلغ مماليكه الغاية التى اليها قصد ، ولا استوفى من الايراد ما اياه اعتمد خشى أن يصيبه ما يصيب التطويل من السآمة المخصوصة به ، والملال الموقوف عليه ، ففصله بنظم فيه عون على الدرس ، وتنبيه لشهوة النفس »(٣٢) ونفس المنهج الذى سلكه ابن شهيد فى رسالته السابقة سلكه — أيضا — فى هذه الرسالة التى رد بها على رسالة أتته من مولاه ، ورب نعمته المؤتمن ، واذا كان ابن شهيد فى الرسالة الأولى يطلب ويستجدى فانه فى هذه الرسالة يشكر ويسترضى ، وكلاهما منهج يحتاج من صاحبه حشد العبارات ، واجتلاب الكلمات التى من شأنها أن تستحوذ على لب القارىء ، وتجعله يجود بما عنده ٠

واذا كان ابن شهيد قد سلك فى الرسالتين السابقتين مسلك المتفنن فى حشد الكلمات الكثيرة ، ليدلل بها على قدرته اللغوية ، واقتداره على نسج الكلام ونسقه فاننا نراه أيضا فى بعض نثره يقتبس كثيرا من القرآن الكريم ، وكلمات السابقين يضمنها نثره ، ويوشى بها كلامه ، فهو يقول — مثلا — « لا نعمة للخالق على المخلوق أجمل عاقبة ، وأحمد مغبة ، وأروق بهاء ، وأسبق رداء ، وأبعد مأثرة ، وأسير مكرمة من تقى يشعرها قلبه ، وأدب يزين به عقله ، ولسان مبين يفيضه عليه ، فيعرب به عن نفسه ، ويكشف عن حقيقة ذاته قال الله تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر ٩١) وقال « سلقوكم بألسنة حداد » (الأحزاب ١٩) ٠ وقال : « أو من ينشأ

---

(٣٢) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٠٥ ٠

فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » . (الزخرف : ١٨) وقال على رضى الله عنه : قيمة كل امرىء ما يحسن . وقال « المرء مخبوء تحت لسانه » ولذلك كانت الملوك تعدل بينيها عن التنعم الى شظف العيش ، وتدنى محالهم من البادية ، وتبوئهم منازل الفصاحة ، لتحتد افئدتهم وتمتد ألسنتهم ، وينسابوا فى لصاب الدهاء ، ومزاحف النكراء ، فيجيدوا الحز ويطبقوا المفصل ، ويسوسوا النوب ، ويكتبوا الخصوم ، ويخرجوا من الغماء ويمضوا قدما فى الشنعاء كما قال عمرو لمعاوية :

فان تعطنى مصرا فأربح بصفقة   آخذت بها شيخا يضر وينفع

وان امرءا يقابل ابن هند بهذا وهو لفضفاض قميص الأدب ، طويل نجاد المعرفة موقوف على ذروة الفضل »(٣٤) .

فالقارىء يبين من خلال هذه الكلمات التى بحث فيها ابن شهيد على تعلم الأدب لأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه أن ابن شهيد قد حشد لنا كثيرا من النصوص التى تؤيد رأيه ، وتقوى وجهة نظره فالانسان يحمد لتحليه بصفتين التقى والأدب ، ولأمر ما كان للخلفاء يبعثون أبناءهم الى المؤدبين ، فان ساسوا سادوا .

والقارىء يتبين من خلال هذه الكلمات أن اسلوب ابن شهيد هنا غير أسلوبه فى الرسالتين السابقتين ، فقد أطلق لسجينه العنان فلم يقيدها بذلك السجع المقيت ، ولم يقسرها على هذه المحسنات البديعية التى تكبل الأسلوب بأغلال التكلف ، وتسمه بميسم التصنع .

ولعلك تعجب من استرساله — أيضا — عندما تقرأ قوله فى أخريات حياته يعترف بما اقترفه من آثام ، وما ارتكبه من ذنوب ذهبت وبقى وزرها فهو يقول « أجل ما بيننا ارتضاع الكاس وشم الآس ، والجرى فى حانات الصبا ، والصيد بالسكر فى الربى ، وان كانت هنات مخلقة ،

(٣٤،٣٣) الذخيرة ق١ جـ ١ ص ٢٢٦ المصدر السابق .

وأوقات مريبة ، ذهبت وبقى وزرها ، وظعنت وأقام شرها فان المرجوع للتعليم الحكيم »(٣٥) .

لقد طوفت بك ايها القارىء فى نثر ابن شهيد الذى يمثل الجانب الأول منه جانب الرسائل والكلمات التى كتبها فى مناسبات مختلفة ، وما ذلك الا لأبين لك منهج ابن شهيد فى نثره ، والذى سنقف عنده فى نهاية البحث مسلطين عليه قوانين النقد ، ولن يستطيع القارىء متابعة ذلك الا اذا تصور جانبا منه ، حتى يمكنه اصدار الحكم ، أو قبـول ما يقــال .

ولم يكتف ابن شهيد بالجانب الأول من نثره بكتابة الرســائل والرد عيها ، أو بكتابة بعض الحكم والنصائح ، وانما جعل من نثره وسيلة تعليمية ، أو منهجا تلقينيا ، أو حمله بعض آرائه فى فنون الأدب التى اشتملت فى رسالة التــوابع والزوابع ، فهو يقول فى فصــل نقله ابن بسام عنه ـــ موضحا فيه أن اصابة البيان لا تأتى الا عن طريق الطبع السليم ، فالطبع عنده أهم من التعلم « واصابة البيان لا يقــوم بها الطبع مع وزنة من هذين : النحو والغريب ، ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه فى أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا ، يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها وأرق لبساتها ، ومن كان جسمه مستوليا على نفسه ـــ من أصل تركيبه ـــ والغالب على حســه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى الكمال ، وحسن الرونق والنظام ، فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن النظــام صور رائقة من الكلام تملا القلوب ، وتشعف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمــال تركيبها أسا لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير حسن كقول امرىء القيس :

---

(٣٥) الذخيرة : ١ جـ ١ ص ٢٢٧ المصدر السابق .

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فان هذه الديباجة اذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، وكقول أبى نواس :

طرحتم من الترحال ذكرا فغمنا فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا
ثم قال فيها :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد
هواك لعل الفضل يجمع بيننا

فهذا من الكلام الغث ، واللفظ الرث الذى لورامه حمار الكساح لأدركه ، ولكن له من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى »(٣٦) .

ان لنا — وقفة — مع ابن شهيد حول هذه الآراء التى ضمنتها نثره ، فهو يدعى أن اصابة البيان لا تكون بحفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، ثم يضع بعض الأسس النفسية ، لأن الأديب المطبوع هو الذى تكون نفسه مستولية على جسمه ، ثم يتحدث عن الجمال والجلال فى الأدب عندما يذكر بيت امرىء القيس ، وأبيات أبى نواس ، ثم يتحدث عن الجاحظ حديث فيه تهجم عليه ، وخاصة وعندما رأى الجاحظ يعلى من شأن معلمى الأدب فيقول فى كتابه البيان والتبيين « اننا اذا اكترينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع ما بعشرين درهما فى رأس كل شهر ، ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما قنع بألف درهم . فيرمى الجاحظ بأنه رفع من شأن معلمى البيان ، لأنه ألف كتاب البيان والتبيين ، ثم يرميه بأنه بخل أن يعلم الناس جانبا من علم البيان ، واكتفى فى كتابه بذكر وسائل البيان وهى المادة الأولية

(٣٦) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣١ — ٢٣٢ المصدر السابق .

التي يجب على طالب البيان أن يحفظها »،ثم يفتخر ابن شهيد بأنه سلك هذا الجانب ، وعلم التلاميذ كيف يكونون أدباء يقول ابن شهيد :
« وقد كنا أطعمنا من هذا الطعام بعض التلاميذ فاستطابه وعلم مقداره ، ولكن البطالة على الفتيان غالبة والسآمة عليهم مستولية » بل انه يذكر لنا درسا قام به ليعلم بعض أهل قرطبة الأدب وفن الشعر ، فيقول « جلس الى يوما يوسف بن اسحاق الاسرائيلى ، وكان أفهم تلميذ مربى ، وأنا أوصى رجلا عزيزا على من أهل قرطبة ، وأقول له :
« أن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلمات ، فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، واذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال لى : اى والله »(٣٧) .

ويستمر ابن شهيد يعلم تلميذه أصول علم البيان كتعليمه قوانين الفصاحة ويعقد مقارنة بين اختيار مليح اللفظ ، ورشيق الكلام وبين اختيار مليح النحو وفصيح الغريب ، والهرب عن قبيحه ، ثم يضرب له مثلا بأبيات من شعر بشار ، ويطبق له المثل على بعض ألفاظها وعباراتها ، ثم يذكر لنا أن القرطبى والاسرائيلى أتياه بشعر فأجاد الاسرائيلى ، وأخفق القرطبى لكنه — أى القرطبى — فهم مواطن الاجادة عند الاسرائيلى فكانت هذه ميزة فيه جعلته بعد ذلك يجيد قول الشعر ، ويبرز فيه .

وهكذا نرى ابن شهيد يتيه عجبا بهذا المنهج الذى اتبعه فى تعليم الناشئة أصول علم البيان ، وقول الشعر ، ولعل القارىء لهذا الموضوع يدرك مدى الاضطراب الذى وقع فيه ابن شهيد ، بل يدرك أن قول المترجمين له ، الذين أعلنوا انه لم يختلف الى معلم ، ولم يجدوا لديه

(٣٧) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ المصدر السابق .

كثيرا من الكتب والمراجع ، بل انه يجعلنا نقف أيضا عند حديثه عن الطبع عندما قال : « واصابة البيان لا يقوم بهـا حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، وانما يقوم بها الطبع »(٣٨) .

ويتحدث فى فصل آخر من نثره عن أهل صناعة الكلام، ويقسمهم أقساما ثلاثة : « فمنهم الذى ينظم الأوصاف ، ويخترع المعـانى . ويحرز جيد اللفظ الا انه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحته التأليف ، حتى انه ربما قصر فى الوصف ، وأساء الوضع »(٣٩) .

« ومنهم الكارع فى بحر الغزارة القادح بشعاع البراعة الذى يمر مر السيل فى اندفاعه والشؤبوب فى انصبابه » .

« ومنهم من يتجافى الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك فى أنحاء من الصـنعة ، وجل ما عنده تلفيق وحيلة ، وبذلك يصاحب الأيام ويجارى أبناء الزمان »(٤٠) .

وهو بهذا يجعل أهل الزمان طبقات ، وهذا جيد منه لكنه قد اتخذ من ذلك منطلقا الى صب جام غضبه على المعلمين الذين ناصبهم العداء فوصفهم بأنهم لم يحصلوا الا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة ، لكن لهم قلوبا كقلوب البعـران ، ويرجعون الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة لا منفذ لها فى شعاع الرقة ، ولا مدب لها فى أنـوار البيـان »(٤١) .

---

(٣٨) الذخيرة ج ١ ق ١ ص ٢٣١ المرجع السابق .
(٣٩) الذخيرة ج ١ ق ١ ص ٢٣٨ المرجع السابق .
(٤٠) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٣٩ المصدر السابق .
(٤١) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٣٩ المصدر السابق .

ثم انطلق بعد ذلك الى ذم الـوزير أبى القاسم الافليلى الذى سيأتى له حديث فى رسالة التوابع والزوابع ، فبعد أن قال عن المعلمين الذين يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة ، وتقصيرهم بالآلة عن طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم الباعثة لرقيق الـدم فى الشريانات الى القلب ، وزيادة غلظ أعصـاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى ... الى آخر هذه العاهات التى ذكرها لأولئك المعلمين . والتى قعدت بهم — فى نظره — عن الارتقاء الى مصاف الكتاب العظام . فهو يقول « وليس العجب فى هذه العصابة الا من أبى القاسم فانه زاد عليهم فى الصناعة ، وبزهم بوفور البضاعة دخل الشعراء فأخذ لباقتهم ، وصار فى جملة الكتاب فاستعار صلفهم ، ورشاقتهم .. الى آخر تلك الصفات التى وصف بها الوزير أبى القاسم الافليلى ، فهو — فى نظره — أنانى لا يريد لغيره أن يرقى الى سلم السلاطين ، وكل الكتاب الذين كتبوا للسلاطين ، وكل الشـعراء الذين قالوا فيهم شعرا رويت أشعارهم ، ودونت رسائلهم الا أبو القـاسم وحده ، وذلك لبخله برسائله ، وشحه بشعره ، حتى لا ينتفع به أحد من صبيان المتعلمين .

ومن عجب اننى عند قراءتى لديوان ابن شـهيد عثرت على بيتين يمدح بهما هذا الـوزير ، وقد كتب محقق الديوان عنـوانا لهما هو « مدح الوزير أبى القاسم الافليلى » قال :

غير أنى مع الوزير أبى القاسم
حـزب محض من الأحزاب
التقى النقى كهـلا وطفـلا
فارس الجيش راهب المحراب(٤٢)

---

(٤٢) ديوان ابن شهيد الأندلسى جمعه وحققه يعقوب زكى . ط دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة .

فهل حدثت هذه الجفوة بينهما بعد أن قال فيه هذا الشعر ؟ أم أن ابن شهيد لم يبن آراءه على حجج قاطعة وبراهين ساطعة فاذا به يضطرب فى شخصية كشخصية الافليلى فيمدحه تارة بالتقى والورع ، والمثابرة على العلوم ويهجوه أخرى بأنه لا يجيد البيان ، ولا يستطيع فهم مرامى الكلام ؟

رسالة التوابع والزوابع :

ذاك هو الجانب الأول من نثر ابن شهيد أما الجانب الثانى فقد تمثل فى تلك الرسالة التى سماها « التوابع والزوابع » والتى وجهها الى أبى بكر يحيى بن حزم شيخ من شيوخ الأدب ، وهو غير الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم .

غرض الرسالة :

ان الغرض العام لهذه الرسالة يتمثل فى تلك الآراء التى تقدمت فى نثر ابن شهيد والتى أراد صوغها فى رسالة خاصة يكون مسرحها عالم الجن ، والتى أراد بها الرد على خصومه وحساده فقد كان كثير الحساد والخصوم ، ولقى منهم عنتا . فانبرى لهم يدافعهم . ويناضلهم، وينتقص أدبهم ، ويبسط آراءه فى المنظوم والمنثور والفن والجمال ، فرسالة التوابع والزوابع ، لا تعدو هذا الغرض الذى يرمى اليه وهو الطعن على أنداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء ، وأهل السياسة والقلم ، ثم المنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نقاده ، ثم اظهار محاسنه فى المتقدمين والمتأخرين ، فقد عرض لمتابيه عند المستعين مندداً بضعفهم وعجزهم عن لحاقه وألح بالازراء على أبى القاسم الافليلى فنفس عليه بعلمه ومعرفته ، ودعاه الى مبارزته بالوصف شعرا ونثرا ، وسخر بأدباء بلده ، ونسب الغباوة الى أهل زمانه(٤٣) ، وقد

---

(٤٣) موسوعة تراث الانسانية جـ ٧ ص ٣٠١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

اختار ابن شهيد لرسالته اسم التوابع والزوابع ، لأنه جعل مسرحها عالم الجن ، وجعل أبطالها جميعا من الشياطين ، وليس بينهم من الانس سواه ومعنى ذلك — كما تقدم فى صدر البحث — أن الخيال أوحى الى ابن شهيد أن يرحل الى عالم الجن ، ليختصم اليهم ، ويكونوا الفيصل بينه وبين معاصريه « فاتصل بشياطين الشعراء ، وناقشهم وأنشدهم وأنشدوه ، وعرض من خلال ذلك لآرائه فى الأدب واللغة ، وذكر كثيرا من شعره ونثره ، كما نقد خصومه ، ودافع عن فنه ، وانتزع من ملهمى الشعراء والكتاب الأقدمين شهادات بتفوقه وعلو كعبه فى الأدب كل هذا مع كثير من بث الفكاهات ، ونثر الطرائف ، وايراد الدعابات »(٤٤) .

ولعلنا نستطيع أن نتبين موضوع الرسالة من كلام ابن شـــهيد نفسه ، فقد بنى الرسالة على مقدمة وموضوع :

أما المقدمة : فقد عرض فيهـــا لسبب تأليف هذه الرسالة ، وذلك على ما يبدو أن أبا بكر بن حزم الذى ذكره فى أول الرسالة بأدبه الجم ، وشعره الجيد فأبدى له أن هذا الكـــلام لا يستطيعه ســـائر البشر ، ولا يقدر عليه عامة الخلق فمن أين أتاه هذا الكلام ؟ فأجابه ابن شهيد بقوله : « لله أبا بكر ظن رميته فأصميت ، وحدس أملته فما أشويت ، أبديت بهما وجه الجلية ، وكشفت عن غرة الحقيقة حين لمحت صـــاحبك الذى تكسبته ، ورأيته قد أخذ بأطرف الســـماء فألف بين قمريهـــا ، ونظم فرقد يها »(٤٥) .

ثم يعترف ابن شهيد انه وهو فى أول عهده بالكتابة كان يحن الى الأدباء ويصبو الى تأليف الكـــدم « فاتبعث الدواوين ، وجلست الى الأسانيد ، فنبض لى عرق الفهم ، ودر لى شريان العلم بمواد روحانية،

---

(٤٤) د. أحمد هيكل الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٣٧٧ ط دار المعارف .

(٤٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٦ المصدر السابق .

وقليل الالتماح من النظر يزيدنى ، ويسير المطالعة من الكتب يفيدنى »(٤٦) .

ثم يذكر لصاحبه أبى بكر أنه مات له حبيب كان يهواه ، فجزع عليه ، وأخذ فى رثائه يوما بمكان يقال له الحائر فقال :

تولى الحمام بظبى الخدور
وفاز الدوى بالغزال الغرير

وعندما انتهى الى قوله :

وكنت مللتك لا عن قلى
ولا عن فساد جرى فى ضميرى

ارتج عليه وأفحم ، فاذا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه قد اتكأ على رمحه ، وصاح به « أعجزا يا فتى الانس ؟ قلت لا وأبيك للكلام أحيان وهذا شأن الانسان ؟ قال لى : قل بعده :

كمثل ملال الغنى للنعيم   اذا دام فيه وحال السرور

فاثبت اجازته ، وقلت له : بأبى أنت من أنت ؟ قال : أنا زهير بن نمير من أشجع الجن ، فقلت وما الذى حداك الى التصور لى ؟ فقال : هوى فيك ورغبة فى اصطفائك »(٤٧) .

وهكذا تعقد الآصرة بينهما ، ويصبحان صديقين ، ثم يلقنه الجنى أبياتا أن هو أراده يقولها فيأتيه الجنى .

وفى يوم من الأيام تذاكر هو والجنى الخطباء والشعراء ، وما كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقال له : هل من حيلة فى لقاء من اتفق

---

(٤٦) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٦ المصدر السابق .
(٤٧) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٧ المصدر السابق .

منهم ؟ قال : حتى أستأذن شيخنا وطارعنى ، ثم انصرف كلمح البصر ، وقد أذن له « فقال حل على متنن الجواد ، فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوفالدو (٤٨) ، حتى التمحت أرضا لا كأرضنا ، وشارفت جوا لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال لى : حللت أرض الجن أبا عامر »(٤٩) .

وهكذا تأتى المقدمة كاشفة عن تلك العلاقة التى نشأت بين ابن شهيد وبين زهير بن نمير الجنى الذى أحب ابن شهيد وأعجب بفنه ، والذى دعاه الى رحلة فى عالم الجن ، لقد صور ابن شهيد جنيه بأنه أشجع الجن ، وانه يجيد الشعر ، ويدرك مرامى الكلام ، وهو بهذا يضع بطلا لرسالته على غرار أبطال المقامات التى ألفها بديع الزمان وقد أمكن لابن شهيد أن يدير الحوار بينه وبين زهير بن نمير الذى رافقه فى رحلته الى عالم الجن ، ليلتقى بتابع من غير من الشعراء ، بل وتابع من غير من الكتاب ، فاذا كان العرب قد جعلوا لكل شاعر شيطانا فانه جر هذه الظاهرة على الكتاب أيضا ، لأنه شاعر وكاتب ، ولابد أن يعارض الشعراء والكتاب ، ويظهر التفوق عليهم ، ولعل هذا هو موضوع الرسالة ، فموضوع الرسلة — اذن — يتمثل فى هذه الرحلة التى قام بها والتى التقى فيها بشياطين الشعراء والكتاب ، وحاورهم وداورهم ، ثم تفوق عليهم وغلبهم .

لقد وقر فى قلوب مؤرخى الأدب ، والمشتغلين بالدراسات النقدية أن امرىء القيس أمير الشعراء وسابقهم قيد الأوابد ، وبكى واستبكى ، ووقف واستوقف ، وأتى بمعان اخترعها وقلدته فيها الشعراء ، ان هذا الأمر دفع ابن شهيد للبدء به وطلب رؤية تابعة فقال زهير بن نمير « يا عتيبة بن نوفل ، بسقط اللوى فحومل ، ويوم دارة جلجل الا ما

---

(٤٨) الدو : المكان الخالى :يقال ما فى الدار دوى أى أحد .
(٤٩) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٤٨ المصدر السابق .

عرضت علينا وجهك ، وأنشــدتنا من شــعرك ، وسمعت من الانس ، وعرفتنا كيف اجــازتك له ، فظهر لنا فــارس على فرس شقراء كأنها تلتهب ، فقال : حياك الله يا زهير ، وحيا صاحبك . أهذا فتاهم ؟ قلت : هو هذا ، وأى جمرة يا عتيبة : فقال لى : أنشد ، فقلت : السيد أولى بالانشاد ، فتطامح طرفه واهتز عطفه ، وقبض عنان الشقراء ، وضربها بالسوط ، فسمت تحضر طولا عنــا ، وكر فاستقبلنا بالصعدة هازا ، ثم ركزها وجعل ينشد :

سمالك شوق بعدما كان أقصرا

حتى أكملها ، ثم قال لى أنشد ، فهممت بالحيصة ، ثم اشــتدت قوى نفسى ، وأنشدت :

شجته معان من سليمى وأدؤر

حتى انتهيت فيها الى قولى :

ومن قبة لا يعرف الطرف رأسها
تزل بهــا ريح الصــبا فتحدر
تكلفتها والليل قد جــاش بحره
وقــد جعلت أمواجــه تتكسر
ومــن تحت حضــنى أبيض ذو
سفاسق وفى الكف من عساله الخط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا
مقيلان من حد الفتى حين يعثر
فذا جدول فى الغمد تسقى به المنى
وذا غصن فى الكف يجنى فيثمر

يقول « فلما انتهيت تأملنى عتيبة ، ثم قال : اذهب فقد أجزتك ، وغاب عنا »(٥٠)

لقد عمدت الى نقل هذه المقابلة التى تمت بين ابن شهيد ، وبين تابع امرىء القيس كى يتبين القارىء ما قام به ابن شهيد من فخر بنفسه ، ودل على الجميع ، حتى انه ينطق زهير بن نمير — عندما سأله تابع امرىء القيس — أهذا فتاهم ؟ قال : هو هذا وأى جمرة يا عتيبة وهذه العبارة يتضح منها اعجاب ابن شهيد بنفسه ، وفخره بشعره ، وعندما أنشد شعره قال ابن شهيد : تأملنى عتيبة « وهذا يعنى شدة الاعجاب به ، وكأنه يريد أن يقول : لولا ما أوتيه تابع امرىء القيس من عظمة الملوك ، وكبرياء الأمراء لهتف بى اعجابا ، ولكنه اكتفى بقوله « قد أجزتك » .

ويلتقى ابن شهيد بصاحب طرفة بن العبد ، ويسميه « عنتر بن العجلان » ، والذى يستنشده ابن شهيد فينشده قول طرفة :

لسعدى بحزان الشريف طلول

حتى يكملها ، ثم يستنشد ابن شهيد فينشده قوله :

أمن رسم دار بالعقيق طلول (٥١)

وعندهم يستمر ابن شهيد فى انشاد القصيدة حتى نهايتها يصيح

---

(٥٠) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٤٩ المصدر السابق ، والقصيدة فى الديوان ص ١٠٧ ولم يذكر محقق الديوان المصراع الثانى ، وعلق عليه بقوله : « انه ناقص فى اليتيمة » .

(٥١) القصيدة كاملة بديوان ابن شهيد ص ١٤٠ المصدر السابق وقد أوردها أيضا صاحب الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥١ المصدر السابق .

به « عنتر » لله أنت اذهب فانك مجـــاز ، وهى عبارة تنم عن اعجاب بشـــعر ابن شهيد ٠

ويكتفى ابن شهيد برؤية تابع امرىء القيس وطرفة من الجاهليين، ويريد الذهاب الى تابع أبى تمام من المحدثين فيستوقفهما تابع قيس ابن الخطيم وهو ينشد قوله :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

وبعد محاورة واعتذار منهما يطلب صاحب قيس من ابن شـــهيد أن ينشده ، وان هو أخفق لينزلن به أذى ، وهو تقديم يوحى بالاعتزاز بالنفس فينشده ابن شهيد قوله :

منازلهم تبكى اليك عفاءها(٥٢)

وفيها يقول ابن شهيد :

خليلى عـــوجا بارك الله فيكمـــا
بدارتهـــا الأولى نحيى فنـــاءها
فلم أر أسرابا كأسرابها الدمى
ولا ذئب مثلى قد رعى ثم شاءها

فلما انتهى من انشاده تبسم وقال له لنعم مـــا تخلصت ٠ اذهب فقد أجزتك ٠

ويستمران فى السيرحتى يصلا الى المكان الذى اتخذه تابع أبى تمام لنفسه مقاما ، فيبدو لهما ، ويحيى ابن شهيد وصاحبه ، ويسأله ابن شـــهيد عن سبب سكناه هذه العين ، ويجيبه بقوله « حيـــائى من التحسن باسم الشعر وأنا لا أحسنه ٠ وينشده قوله :

---

(٥٢) القصيدة بالديوان ص ٨٢ والمصراع الثانى من البيت قوله « ســـقتها الثريا بالقرى نجاءها »

أبكيت اذ ظعن الفريق فراقها(٥٣)

حتى ينتهى فيها الى قوله :

انى امــرؤ لعب الزمـــان بهمتى
وسقيت منكأس الخطوب دهاقها
وكبوت طرفا فىالعلا فاستضحكت
حمــر الأنام فما تريم نهـــاقها
واذا ارتمت نحــو المنى لأنالها
وقف الزمان لهـــا هناك فعاقها
واذا أبـــو يحيى تأخر نفســـه
فمتى أؤمل فى الزمان لحاقهـــا

ثم يطلب منه تـــابع أبى تمام أن ينشده من رثائه فينشده ، ثم يستزيده ، ثم يقول له الجنى « ان كنت ولابد قائلا فاذا دعتك نفسك الى القول فلا تكد قريحتك ، فاذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقل ، ونقح بعد ذلك ، وتذكر قوله :

وجشمنى خوف ابن عفان ردها
فثقفتهـــا حــولا كريتا ومربعـــا
وقد كان فى نفسى عليها زيادة
فلم أر الا أن أطيع وأسمعا(٥٤)

ثم يقول له الجنى « وما أنت الا محسن على اســـاءة زمانك » يقول ابن شهيد « فقبلت على رأسه وغاص فى العين » .

---

(٥٣) القصيدة كاملة فى الديوان ص ١٣٦ منقولة عن الذخيرة التى لم تذكر المصراع الثانى من البيت الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٥٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٥٦ ، والبيتان لسويد بن كراع انظر الشعر والشعراء والأغانى والبيان والتبيين .

وينطلقان لرؤية صاحب أبى نواس ، وفى الطريق يعرضان لصاحب البحترى ، ويستنشده بعد محاورة بينهما فينشد :

هذه دار زينب والرباب (٥٥)

حتى يكملها يقول ابن شهيد : « فكأنما غشى وجـــه أبى الطبع « صاحب البحترى » قطعة من الليل ، وكر راجعا الى ناورده دون أن يسلم ، فصاح به زهير أأجزته ؟ قال : أجزته لا بورك فيك من زائر ، ولا فى صاحبك أبى عمر(٥٦) .

وهى عبارة تنم عن افحام ابن شهيد لتابع البحترى .

ويسيران معا حتى ينتهيا الى أصل جبل دير حنة يقول ابن شهيد « فشق سمعى قرع النواقيس ، فصحت : من منازل أبى نواس ورب الكعبة العلياء ، وسرنا بختاب أديارا وكنائس ، وحانات ، حتى انتهينا الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصـــوك نعرافحه ، فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على دير حنة ! فقلت لزهير أو هل صرنا بذات الأكيراح ؟ قال : نعم ، وأقبلت نحونا الرهابين مشددة بالزنانير قد قبضت على العكاكيين بيض الحواجب واللحى ، اذا نظـــروا الى المـــرء استحيا ، مكترين للتسبيح عليهم هدى المسيح ، فقالوا : أهـــلا بك يا زهير من زائر ، وبصاحبك أبى عامر . ما يعنيك ؟ قال : حسين الدنان . قالوا : انه لفى شرب الخمرة منذ أيام عشرة ، ما أراكما منتفعين به »(٥٧) .

وذهب بهم الى بيت يصـــفه ابن شهيد وصفا دقيقـــا « اصطفت دنانة ، وعكفت غزلانه ... الخ » وهناك يجدان صاحب أبى نواس

---

(٥٥) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٧ والقصيدة منقولة عن اليتيمة يقول محقق الديوان ان المصراع الثانى ناقص بها الديوان ص ٨٥ .

(٥٦) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨ المصدر السابق .

(٥٧) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٩ المصدر السابق .

قد أتت عليه الخمرة ، فلم تبق فيه شيئا للحضرة ، ولكن ابن شهيد ينشده من قصائده فى الخمر ، فيفيق ، ويطلب منه مزيدا من شعره فى الرثاء وفى المجون ، ويجيزه وينصرفان الى تابع المتنبى ، والذى قال بعد أن سمع منه شعره « ان امتد به طلق العمر فلابد أن ينفث بدرر »(٥٨) .

ويكتفى ابن شهيد بمقابلة توابع هؤلاء الشعراء ولعله أراد أن يخبرنا أن هؤلاء يشكلون علامات بارزة فى سير الحركة الشعرية حتى القرن الرابع الهجرى الذى كان ابن شهيد قد تجوزه بقليل ساعة كتابة الرسالة .

ومن يقف على أسماء من قابلهم يدرك ذلك ، فقد التقى بتابع امرىء القيس ، وهو الذى أجاد الوصف ، وأحسن التشبيه فهو زعيم الشعر الجاهلى دون منازع ، والتفوق عليه من قبل ابن شهيد يعنى شهادة له بزعامة الشعر الأندلسى فى عصره .

ولا يكتفى ابن شهيد بشهادة تابع امرىء القيس من الجاهليين وانما يأخذ شهادة صاحب طرفة بن العبد الذى كان من أدق شعراء العصر الجاهلى استخداما للغة ، وقدرة على التصرف فيها ، لقد كان يفهم أسرار اللغة وهو لما يزل طفلا لم يتجاوز العشر ، فقد اعترض على المتلمس عندما قال :

وقد أتناس الهم عند احتضاره
بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال : استنوق الجمل وهى عبارة تنم عن قدرة لغوية تميز بين الناقة والجمل . ألم يصف الناقة فى معلقته وصفا لا يرقى اليه واصف ؟ انه الشاعر الذى فاق أقرانه ولو أنسىء له فى عمره لفاق الشعر طرا .

---

(٥٨) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٦٧ المصدر السابق .

ثم يعطينا مشـــهدا آخر تمثل فى لقـــائه عرضا بأبى الخطار تابع قيس(٥٩) بن الخطيم الشاعر اليثربى الذى أدرك الاســـلام ، وكأن ابن شـــهيد أراد منـــا أن نتصور أن الاســـلام قد تأثر به الشـــعراء المخضرمون من أمثال حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ولم يتأثر به قيس بن الخطيم الشـــاعر الماجن الذى قيل انه كان متزوجا باحدى المسلمات فكان يصرفها بعبثه ومجونه عن الصـــلاة ، حتى شكاه بعض الأنصار الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل الهجرة ، وفى بيعة العقبة لقيه رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطلب منه أن لا يؤذى امرأته ففعل ، وهو مشهد أيضا له فعـــاليته المتمثلة فى عبث ابن شهيد ولهوه فكأنهما رفيقا كاس ، وقرينا عبث ومجون •

وينطلق ابن شهيد لرؤية قرين أبى تمام وأبى نواس ، وهو فى طريقه يلتقى بقرين البحترى ، ثم قرين المتنبى ، وفى كل لقاء يعرض شعره ويستنطق جنه بتأييده واجازته وهو بهذا يعطى لنفسه فضـــلا على شعراء عصره •

وينتقل ابن شهيد من الشعراء الى الخطباء ، فقد قضى وطره من الشعراء ، وعليه الآن أن يعرف موقفه من الخطباء ، فهو شاعر ناثر ، وهو ــ أيضا ــ يعطينا حكما مسبقا بأفضلية الشعراء على الخطباء ، فقد جمعت له خطباء الجن بمكان يسمى مرج دهمان ، فيسأل ابن شهيد

---

(٥٩) قيس بن الخطيم : شاعر من شعراء الأوس ترجم له صاحب طبقات فحول الشعراء السـفر الأول ص ٢٢٨ وقال عنه كان قيس مقيما على شركه ، وأسلمت امرأته وكان يقال لهـا حواء ، فكان يصـدها عن الاسلام ، ويعبث بها فلما علم بذلك رســول الله صلى الله عليه وسلم • وهو بمكة قبل الهجرة ، أتى قيسا فى مضربه فى موسم الحج وكلمه فى ذلك فوعد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن لا يعود الى ذلك •

لم ذاك ؟ فيقول له تابعه للفرق بين كلامين اختلف فيه فتيان الجن ، وهو حكم للشعر على النثر ، وهى قضية تحتاج الى تمحيص وبيان .

والذى جعل الشعر فى نظره أفضل من النثر أن توابع الشـعراء قد عنى نفسه فى الوصول اليهم وأجهد عقله فى التعرف عليهم ، ولم يلتق بأحدهم الا بعد حث الخطا واجهاد الرواحل ، أما الخطباء والأدباء فقد كانوا فى استقباله ، حيث جمعوا له ، وحشدوا فى مكان جرت فيه المحاورة ، وتمت فيه المناظرة .

يصف لنا ابن شهيد هذا المكان بأنه ناد عظيم قد جمع كل زعيم ، وهى عبارة توحى بذلك الجمع الهائل الذى كان فى استقبال ابن شهيد وتابعته ، فسلم عليهم تابعـة ابن شهيد فردوا السلام ، وأشـاروا بالنزول ؛ وعندمـا اتسع لهم المجلس ، وأصـبحا مركز هـالته راع ابن شهيد منظر شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسـه قلنسوة بيضاء طويلة ، قد اتجهت اليه أنظار الحاضرين ، وشخصت اليه أبصار المتلحقين يقول ابن شهيد : « فقلت سرا لزهير من ذاك ؟ قال عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عيينة . قلت : بأبى هو ليس رغبتى سواه ، وغير صاحب عبد الحميد قال لى : انه ذلك الشيخ الذى الى جنبه ، وعرفه صغوى اليه ، وقولى فيه ، فاستدنانى وأخذ فى الكـلام معى فصمت أهل المجلس ، فقال : انك لخطيب ، وحائك للكلام مجيد لولا انك مغرى بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر »(٦٠) .

هذا الكلام قد أثار ابن شهيد لأنه هجوم عليه ، وعلى طريقته فى الكتـابة ، ونهجه فى البيـان ، فقال ابن شـهيد — قرعك — بالله — بقارعته ، وجاءك بمماثلته (٦١) .

وينتصر ابن شهيد لمنهجيه فى الكتابة ، ولطريقته فى النثر بقوله

---

(٦٠) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٦٨ المصدر السابق .
(٦١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٦٨ المصدر السابق .

« ليس هذا — أعزك الله — منى جهلا بأمر السجع ، وما فى المماثلة والمقابلة من فضل ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام [ودهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحرا أن أحركهم بالازدواج ، ولو فرشت للكلام] فيهم طولقا(٦٢) ، وتحركت لهم حركة مشولم(٦٣) لكن أرفع لى عندهم ، وأولج فى نفوسهم » فيجيبه تابعة الجاحظ بقوله « أهذا على تلك المناظر ، وكبر تلك المحابر ، وكمال تلك الطيالس ؟ يقول ابن شهيد : فقلت نعم : انها لحاء الشجر ، وليس ثم ثمر ولا عبق ، قال لى « صدقت انى أراك قد ما ثلت معى ، كما سمعت ، قال : فكيف كلامهم بينهم ؟ قلت ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدى اليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، انما لكنه أعجمية يؤدون بها المعانى تأدية المجوس والنبط ، فصاح : انا لله • ذهبت العرب وكلامهم ، أمهم يا هذا بسجع الكهان ، فعسى أن ينفعك عندهم [ويطير لك ذكرا فيهم ، وما أراك مع ذلك الا تقبل الوطأة عليهم كريه المجىء اليهم](٦٤) •

وتنتقل المحاورة من تابعة الجاحظ الى تابعة عبد الحميد ، وتطول بينهما ، حتى يقول له تابعة عبد الحميد أهكذا أنت باأطيلس تركب لكل نهجه ، ونج اليه عجه ، ثم يسوق له ابن شهيد نكته من نكاته ، فتبدو الألفة بينهم ، وتظهر المودة له منهما ، فيسألانه أن يقرأ عليهما من رسائله ، وهو أمر يدعو الى الاعجاب به والشهادة له ، فقد قالا له : « ان لسجعك موضعا من القلب ، ومكانا من النفس ، ولقد أعرته من طبعك وحلاوة لفظك ، وملاحة سوقك ما أزال أفنه ، ورفع غبنه »(٦٥) •

---

(٦٢) حاول محقق الذخيرة أن يشرح هذه الكلمة فأرجعها الى ما يقترن بالشعوذة أو بالدعوة الى بيع العقاقير أو التكلم ببذاءة •

(٦٣) المشولم : هو الراقى الذى يستخدم كلمة « شولم — شولم » فحركة مشولم هى حركة الراقى ، الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٦٨ •

(٦٤) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٦٩ المصدر السابق •

(٦٥) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٧٢ المصدر السابق •

والقارىء لهذه الكلمات التى أجراها ابن شهيد على لسان تابعة الجاحظ وعبد الحميد يتبين من خلالها الاضطراب فى الحكم — فضلا عن حديث ابن شهيد فى رسائله عن الجاحظ والهجوم عليه فبينما يقول تابعة الجاحظ : « انك مغرى بالسـجع فكلامك نظم لا نثر » اذا به يقول فى نهاية كـلامه « ان لسجعك موضـعا من القلب ، ومكانا من النفس ، وقد أعرته من طبعك وحلاوة لفظك ... الخ » وهو كـلام لا يتفق وما قاله فى أول حكمه ، فابن شهيد يحاول بذلك أن يجعـل القارىء يقف على أن كـلامه له منزلة فى نفوس النقـاد ، والمشتغلين بالقضايا الأدبية ، وهو كلام يحتاج الى مزيد من التمحيص والتدقيق .

ولم يكتف ابن شهيد بشهادة الجاحظ وعبد الحميد ، بل حـاول استعداءهما على معاصريه ووغر صـدرهما على مناوئيه ، فيجرى على لسانهما هذا الكلام « وقـد بلغنا انك لا تجارى فى أبنـاء جنسك ، ولا يمل من الطعن عليك ، والاعتراض لك ، فمن أشدهم عليك ؟ يقول ابن شهيد : « قلت : جران : دارهما صقب ، وثالث نايته نـوب ، فامتطى ظهر النوى ، وألقت به فى سر قسطة العصا ، فقالا : الى أبى محمد تشير ، وأبى القاسم ، وأبى بكر . قلت :أجـل . قالا : فأين بلغت فيهم ؟ قلت : اما أبو محمد فانتضى على لسانه عند المستعين ، وساعدته زراقة استهواها من الحاسدين »(٦٦) .

« وأما أبو بكر فأقصر واقتصر على قوله : « له تابعة تؤيده »، وأما أبو القاسم الافليلى فمكانه من نفسى مكين ، وحبه بفؤادى دخيل، على انه حامل على ، ومنتسب الى » .

بهذا الكلام عرض ابن شهيد وجهة نظره فى معارضيه ، ورأيه فى مناوئيه وهو بهذا يحاول استدرار عطف تابعة الجاحظ وعبد الحميد ، حتى يحولا بينه وبين خصومه وأعدائه ، فيطلبان تابعة أبى القـاسم

(٦٦) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٧٣ المصدر السابق .

الافليلى ، فيأتى اليهما متعاظما ، متفاخرا ، لأنه من قبيلة أنف الناقة منشدا بيت الحطيئة المشهور :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وتبدأ المحاورة بينهما تابعة الافليلى يقول فيه « فتى لم أعرف على من قرأ ، وابن شهيد يقول لنفسه هذا هو المنهج الذى اتبعه الافليلى فى نقده ، فالعصا من العصية ، إن لم تعربى عن ذاتك ، وتظهرى بعض أدواتك(٦٨) •

وتشتد الخصومة بينهما ، فيعلن له تابعة الافليلى انه لم يقرأ كتاب سيبويه ولا كتاب الخليل ، ولا ابن درستويه ، وبعيد عليه ابن شهيد تمسكه بهذه الكتب فهى لا تصنع أديبا ولا تصقل متحدثا وعندما يقول له انى تعلمت البيان من المؤدبين يجدها ابن شهيد فرصة ليقول له : ان علم البيان هذا مما اختص به الله ذاته « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » ، ثم يصف له البيان بقوله : « ليس من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، هيهات حتى يكون المسك من أنفاسك ، والعنبر من أنقاسك(٦٩) ، وحتى يكون ساقك عذبا ، وكلامك رطبا ، ونفسك من نفسك ، وقليبك من قلبك ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه ، والرفيع فتضعه ، والقبيح فتحسنه »(٧٠) •

وهنا تثور خصومة بينه وبين تابعه بديع الزمان الهمذانى ويتطارحان الوصف ، ويظهر ابن شهيد قدرته ، وبذه لصاحب بديع الزمان ،

---

(٦٧) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٧٣ المصدر السابق •

(٦٨) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٧٤ المصدر السابق •

(٦٩) انقاسك بالقاف أى مما يظهر أثره على كلامك ، لآن النقس هو المداد الذى يكتب به •

(٧٠) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٧٤ المصدر السابق •

فيضرب الأرض برجله حسرة وكمدا ، ويغوص فيها فلا يرى بعد ذلك ، ثم تنشأ محاورة أخرى بينه وبين صاحب الافليلى فى شعره ، فيقول له شعرا يعجب الجن قاطبة ، وفى نهـاية اللقاء يعجب الأستاذان من شعره ونثره فيجـيزانه على انه شـاعر خطيب ، وينفض المجلس ، والأبصار اليه ناظرة والأعناق نحوه مائلة •

واذا كان ابن شهيد قد اكتفى فى هذه المقابلة ببعض الآراء التى قيلت فى شعره ونثره ، فقد ذكر لنا فى نهاية اللقاء أن الجميع شهد له بالشاعرية والقدرة البيانية — فانه فى مقابلة أخرى يقص علينـا بعض الآراء التى قيلت حول شعر بعض الشعراء ، وهى توحى لنا بما كان يشغل به ابن شهيد من هذه المناظرات القديمة التى كان النقاد القدامى يرصدونها ، والتى وردت فى الصـدر الأول ، فقد كان النقاد حينذاك يشغلون بأشعر بيت قالته العرب ، أو بأغزل بيت ، أو بأشعر الشعراء ، ويتركون أحكامهم دون تعليل ، وأحيانا كانوا يشغلون ببعض المعـانى التى تعاورتها الشعراء ، وفاق بعضهم بعضا فيها •

فمن ذلك ما جاء فى قول ابن شهيد : « وحضرت أنا — أيضا — وزهير مجلسا من مجـالس الجـن فتذاكرنا ما تعاورته الشـعراء من المعانى ، ومن زاد فأحسن الأخـذ ، ومن قصر ، فأنشـد قول الأفوه بعض من حضر :

وترى الطـير على آثارنـا
رأى عـين ثقـة أن ستمار

وأنشد آخر قول النابغة :

اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طـير تهتدى بعصائب

تراهن خلف القوم خزرا عيونها
جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيله
اذا ما التقى الجيشان أول غالب

وأنشد آخر قول أبى نواس :

تتأبى الطير غدوته
ثقة بالشبع من جزره

وأنشد آخر قول صريع الغوانى :

قد عود الطير عادات وثقن بها
فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وأنشد آخر قول أبى تمام :

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى
بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها
من الجيش الا انها لم تقاتل

فقال شمردل السحابى : كلهم قصر عن النابغة : لأنه زاد فى المعنى ، ودل على أن الطير انما أكلت أعداء الممدوح ، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد ما نواه الشاعر ، وان كان أبو تمام قد زاد فى المعنى ، وانما المحسن المتخلص المتنبى حيث يقول :

له عسكرا خيل وطير اذا رمى بها عسكرا لم تبق الا جماجمة

وكان بالحضرة فتى حسن البزة ، فاحتد لقول شمردل ، فقال :

الأمر على ما ذكرت يا شمردل ، ولكن ما تسأل الطير اذا شبعت أى القبيلين الغالب • واما الطير الآخر فلا أدرى لأى معنى عافت الطير الجماجم دون عظام السوق والأذرع والقفازات والمصاعص ، ولكن خلص هذا المعنى كله ، وزاد فيه ، وأحسن التركيب ، ودل بلفظة واحدة على ما دل عليه شعر النابغة وبيت المتنبى من أن القتلى التى اكلتها الطير أعداء الممدوح ، فاتك من الصقعب فى قوله

وتدرى سباع الطير أن كماته
اذا لقيت صيد الكماة سباع

لهن لعاب فى الهواء وهزة
اذا جد بين الدارعين قراع

تطير جياعا فوقه وتردها
ظباه الى الأوكار وهى شباع

تملك بالاحسان ريقة رقها
فهن رقيق يشترى ويباع

وألحم من أفراخها فهى طوعه
لدى كل حرب والملوك نطاع

تماصع جرحاها فيجهز نفرها
عليهم ، وللطير العتاق مصاع(٧١)

---

(٧١) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن شهيد ص ١٢٣ تحت عنوان « فى مدح ممدوح غير معروف » وقد علق محقق الذخيرة على هذا الأبيات فقال : « أورد ابن خلطان (١ ــ ١١٧) يبين من هذه القصيدة ونسبهما لابن شهيد ، ولعله تابع فى ذلك صاحب المطرب : ١٦١ ، ونرى ابن شهيد هنا ينسب الأبيات الى جنى اسمه فاتك بن الصقعب • فهل هو يعنى نفسه ؟ ان جنيه هو زهير لافاتك ، فهل كان له غير تابع واحد ؟ يبدو ذلك ؟ لأن هذا الجنى نفسه هو الذى استطاع أن يأخذ =

فاهتز المجلس لقوله ، وعلموا صـــدقه ، فقلت لزهير : من فاتك بين الصقعب ؟ قال : يعنى نفسه . قلت له فهلا عرفتنى شأنه منذ حين ؟ [انى لأرى نزعات كريمة] وقمت فجلست اليه جلسة المعظم له فاستدار نحوى مكرما لمكانى — فقلت : جد أرضنا — أعزك الله — بسحابك ، وأمطرنا بعيون آدابك ، قال : سل عما شئت ، قلت : أى معنى سبقك الى الاحسان فيه غيرك فوجدته حين رمته صـــعبا عليك الا انك نفذت فيه ؟ قال : معنى قول الكندى :

سموت اليها بعدما نام أهلها   سمو حباب الماء حالا على حال

قلت أعزك الله : هـــو من العقم . ألا ترى عمر بن أبى ربيعة ، وهو من أطبع النـــاس حين رام الدنو منه والالمـــام به كيف افتضح فى قـــوله :

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ   حباب وركنى خيفة القوم أزور

قال : صدقت . انه أساء قسمة البيت ، وأراد أن يلطف الفواصل فجاء مقبلا بركن كركته أزور ، فأعجبنى ذلك منه ، ومازلت مقدما لهذا المعنى رجلا ومؤخرا عنه أخرى ، حتى مررت بشيخ يعلم بنيا له صناعة الشعر ، وهو يقول له : اذا اعتمدت معنى سبقك اليه غيرك ، فأحسن تراكيبه ، وأرق حاشيته ، فاضرب عنه جملة ، وان لم يكن بدفغى غير العروض التى تقدم اليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى منتك فتذكرت قول الشاعر وقد كنت أنسيته :

معنى امرىء اليقس « سوث اليها » البيت ، وأن يحله فى أبياته « ولما تمان من سكره » ، وهذا أمر معروف من فعل ابن شهيد والأبيات ثابتة له . فلماذا أختار ابن شهيد فى هذا الموقف أن يكون له تابعـــان ؟ الذخيرة جـ ١ ط ذيل الصفحة رقم ٢٨٥ .

لما تسامى النجم فى أفقه
ولاحت الجوزاء والمرزم
أقبلت والوطء خفيف كما
ينساب عن مكمنه الأرقم(٧٢)

فعلمت أنه صدق ، وابن ربيعه لو ركب عروضه لخلص ، فقلت أنا فى ذلك :

ولما تملا من سكره
فنام ونامت عيون العسس
دنوت اليه على بعده
دنو رفيق درى ما التمس
أدب اليه دبيب الكرى
وأسمو اليه سمو النفس
وبت به ليلتى ناعما
الى أن تبسم ثغر الغلس
أقبل منه بياض الطلا
وأرشف منه سواد اللعس(٧٣)

فقمت وقبلت على رأسه ، وقلت لله درأبيك ! .

---

(٧٢) هذان البيتان لاسماعيل بن يسار من قصيدة له فى الأغانى ج ٤ ص ٤١٦ والقصيدة التى منها البيتان مطلعها :

كلثم أنت الهم يا كلثم وأنتم دائى الذى أكتم

(٧٣) وردت هذه المقطوعة فى ديوان ابن شهيد ص ١٢٠ تحت عنوان « معارضة لامرئ القيس مع اختلاف فى الترتيب فقد جاء البيت الخامس رابعا فى الديوان والرابع خامسا .

ثم يستطرد ابن شهيد ليقص علينا موقفا حدث له مع ذلك الجنى ، ومع جنى قبالته ، فاستنشده فأنشد له من شعره ، ثم لما وجده قد تفوق عليه صاح صيحة منكرة من صياح الجن كاد ينخب لهـا فـؤاده فزعا منه(٧٤) •

وقد استنشده جنى آخر فأنشده كثيرا من شعره ، ثم قال له بعض الأشعار التى رواها الجنى لوالد ابن شهيد وأخيه وجده وعمه ، فلما انتهى ابن شهيد من نسبة هذه الأبيات الى ذويها قال له الجنى : والذى نفس فرعون بيده لا عرضت لك أبدا انى أراك عريقا فى الكلام ، ثم قل واضمحل ، حتى ان الخنفساء لتدوسه فلا يشغل رجليها(٧٥) •

وهذا الكلام لعل ابن شهيد كان يرد به على معاصريه وخصومه ، فهو رجل له باع طويلة فى الشـعر ، وله أصـالة حيث انه نشـأ فى أسرة شاعرة •

ولا يفوت ابن شهيد أن يعقد فصلا فى رسالته على ألسنة الطيـور والحيوانات من محر الجن ، وبغالها وأوزها ، وهو ملحظ من ابن شهيد له وجاهته فهو يريد أن يصور عالم الجن على انه عالم فيه كل مقومات الحياة كعالمنا ، ففيه الجبال والوهاد ، وفيه الأخضر واليـابس وفيه الماء والصـحراء ، وفيه الأبقـار والحمر والبغـال والأوز وغير ذلك ممايموج به ذلك العالم •

وبغال الجن وأوزه وحمره على جانب من الأدب ، فهى تعـرض للشعر ، وتسأل عن أحكامه وتخوض فى نقده ، لقد عرضت عليه أنثى بغل قصيدتين : احداهما لبغل من بغال الجن ، والأخرى لدكين الحمار ،

---

(٧٤) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٨٩ المصدر السابق وينخب لهـا فؤاده : أى ينزع لبا قلبه •

(٧٥) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٦ المصدر السابق •

وطلبت منه الحكم فيهما ، وبيان الفاضل والمفضول ، الا أنه اعتذر عن الحكم ، لأن مثل هذا الشعر لا يحكم فيه الا أنف الناقة ، ففهمت البغلة أنه يفضل قصيدة البغل على قصيدة الحمار(٧٦) لكن هذه البغلة تقول له : اما تعرفني أبا عامر ؟ قلت لو كانت ثم علامة ، فأماطت لثامها فاذا هي بغلة أبي عيسى ، والخال على خدها ، فتباكينا طويلا وأخذنا في ذكر أيامنا ، فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت ما ترين . قالت : شب عمرو عن الطوق ! فما فعل الأحبة بعدى ؟ أهم على العهد ؟ قلت : شب الغلمان، وشاخ الفتيان، وتنكرت الخلان، ومن اخوانك من بلغ الامارة ، وانتهى الى الوزارة ، فتنفست الصعداء ، وقالت : سقاهم الله سبل العهد ، وان حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود بحرمة الأدب الا ما أقرأتهم منى السدم . قلت : كما تأمرين وأكثر .

وهذه المحاورة يدلل بها ابن شهيد على أن مراكب الأدباء والشعراء توابع مثلها مثل من ركبها وأن توابع الشعراء تجيد فهم الشعر والأدب، وأنها تشاركهم ذلك النهج ، وتدخل معهم في كل معترك .

وأخيرا يقص علينا ابن شيد قصة تلك الأوزة الجنية التي اعترضت على حكمه السابق في الشعر الذى كان من بغل وحمار ، وهى صورة طريفة أنقلها للقارىء كي يقف على وصف ابن شهيد للأوزة وما دار بينهما من محاورة بقول ابن شهيد : « وكان في البركة بقربنا أوزة بيضاء شهلاء في مثل النعامة كأنما ذر عليها الكافور ، أو لبست غلالة من دمقس الحرير ، لم أر أخف من رأسها حركة ، ولا أحسن للماء في ظهرها صبا ، تثنى سالفتها ، وتكسر حدقتها ، وتلولب قمحدوتها ، فترى الحسن مستعارا منها ، والشكل مأخوذا عنها ، فصاحت بالبغلة : لقد حكمتم بالهوى ، ورضيتم من حاكمكم بغير الرضى ، فقلت لزهير :

---

(٧٦) الذخيرة ط ١ ج ١ ص ٢٩٧ ، والأبيات التى وردت الذخيرة ليست بالديوان .

ما شأنها ؟ قال : هي تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة ، وتكنى أم خفيف، وهي ذات حظ من الأدب ، فاستعد لها فقلت : أيتها الأوزة الجميلة العريضة : أيحسن بجمال حدقتيك، واعتدال منكبيك ، واستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام، وتلقى الطارىء الغريب بمثل هذا المقال ؟ وأنا الذى همت بالأوز صبابة ، واحتملت فى الكلف بها عض كل مقلة ، وأنا الذى استرجعتها الى الوطن المألوف ، وحببتها الى كل ظريف ، فاتخذتها السادة بأرضنا ، واستهلك عليها الظرفاء منا ، ورضيت بدلا من العصافير ، ومكلمات الزرازير ، ونسيت لذه الحمام ، ونقار الديوك ، ونطاح الكباش ، فدخلها العجب من كلامى ، ثم ترفعت وقد اعترتها خفة شديدة فى مائها فمرة سابحة ، ومرة طائرة ، تنغمس هنا ، وتخرج هناك [قد تقيب جناحاها، وانتصبت ذناباها ، وهى تطرب تطريب السرور] وهذا الفعل معروف من الاوز عند الفرح والمرح ، ثم سكنت وأقامت عنقها ، وعرضت صدرها ، وعملت بمجدافها ، واستقبلتنا جائية كصدر المركب . فقالت : ايها الغار المغرور : كيف تحكم فى الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟ ما الذى تحسن ؟ قلت : ارتجال الشعر ، واقتضاب خطبه على حكم المقترح والنصبة . قالت : ليس عن هذا أسألك ، قلت : ولا بغير هذا أجاوبك ، قالت : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال . وأنا انما أردت بذلك احسان النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام ومادة البيان ، قلت : لا جواب عندى غير ما سمعت ، قالت : أقسم أن هذا منك غير داخل فى باب الجدل ، قلت : وبالجدل تطالبينا [وقد عقدنا سلمه ، وكفينا حربه] وان ما رميتك به منه لأنفذ سهامه وأحد حرابه [وهو من تعاليم الله عز وجل عندنا فى الجدل فى محكم تنزيله : قالت : أقسم أن انما علمك الجدل فى كتابه ، قلت محمول منك أم خفيف ، لا يلزم الأوز حفظ أدب القرآن قال الله عز وجل فى محكم كتابه حاكيا عن نبيه ابراهيم عليه السلام (ربى الذى يحيى ويميت ،

قال أنا أحيى وأميت) فكان لهذا الكلام من الكافر جواب ، وعلى وجوبه مقال ، ولكن النبى — عليه الصلاة والسلام — لما لاحت له الواضحة القاطعة رماه بها وأضرب عن الكلام الأول ، قال (فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر) وأنا لا أحسن غير ارتجال شعر واقتضاب خطبة على حكم المقترح والنصبة ، فاهتزت من جانبيها ، وحال الماء من عينيها ، وهمت بالطيران ، ثم اعتراها ما يعترى الأوز من الألفة وحسن الرجعة فقدمت عنقها ورأسها الينا تمشى نحونا رويدا رويدا ، وتنطق نطقا متداركا خفيفا ، وهو فعل الأوز اذا أنست ، واستراضت ، وتذللت ، على أنى أحب الأوز وأستظرف حركاتها ، وما يعرض من سخافاتها] .

وأخيرا ينهى ابن شهيد حديثه مع الأوزة فيسألها رأيها قائلا : الأدب أفضل أم العقل ؟ فتجيبه : بل العقل ، فيداعبها بقوله : هل تعرفين فى الخلائق أحمق من أوزة ، ودعينى من مثلهم فى الحبارى ؟ تقول الأوزة لا . قلت فتطلبى عقل التجربة اذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ، فاذا أحرزت منــه ويؤت منــه بحظ فحينئذ نــاظرى فى الأدب فانصرفت وانصرفنــا(٧٧) .

آراء ابن شهيد النقدية :

بعد هذه الجولة العجلى فى نثر ابن شهيد يمكننا أن نستشف من خلالها آراءه النقدية ، والتى أراد من خلالها رمى معاصريه بالجمود ، وعدم اللحاق به بل انه فى غمرة الهجوم على معاصريه أمســك معوله لينقض على جميع السابقين من العلماء والمفكرين وصب جسام غضبه على المبرزين منهم ، وخصوصا الجاحظ الذى اتخذ منه ومن منهجه ذريعة

---

(٧٧) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٨ — ٣٠١ المصدر السابق .

للهجوم عليه ، بل وجعله فى بعض الأحيان أساسا لقاعدة نقدية بنى عليها كثيرا من الأحكام كما سترى •

ويبدو أن حدة الخصومة قد خفت عندما كتب رسالة التوابع والزوابع ، أو أنه كتب آراءه المتقدمة أيام أن كان فى فورة الشباب ، قبل أن تهدأ الفكرة ، ويلجأ الانسان الى التدبر ، واستعمال العقل ، ذلك لأننا رأينا ابن شهيد فى رسائله المتعددة ينحى باللائمة على معاصرية والسابقين عليه ، اما فى رسالة التوابع والزوابع فلم نر منه هذا الاتجاه النقدى المتطرف ، وان كان قد استطاع أن يجعلهم يجيزونه ، ويعترفون بأدبه شعرا ونثرا ، وهو ما كان يرمى اليه من رسائله •

بين ابن شهيد ومعاصريه :

لم تكن المعركة دائرة بين ابن شهيد وجميع معاصريه ، وانما كانت الخصومة بينه وبين صنف منهم تمثل فى علماء اللغة ، وجماعة المعلمين ، أولئك الذين كانوا يتعقبونه لابداء مساوئه ، وابراز سقطاته، ويبدو ان النحاة واللغويين كانوا يصنعون معه مثلما صنع أبو على الفارسى وغيره مع المتنبى فى المشرق مما دفع المتنبى الى قوله :

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصموا

لكن المتنبى اكتفى بمقولته « أنا أكبر من اللغة » وترك أعداءه يرمونه بكثير من القذائف التى جعلته يترك الساحة ، ويبتعد عن بلاط سيف الدولة الذى كان يحتضنهم ، وما ذلك الا لأنه لم يؤت ملكة النثر التى أوتيها ابن شهيد الذى اتخذ من لسانه وقلمه أداة للرد على خصومه وشانئيه •

وأول سهم وجهه ابن شهيد لخصومه أن البيان نفحة سماوية ولا

صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب فهو يقول : واصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، وانما يقوم بها الطبع مع وزنة من هذين النحو والغريب (٧٨) .

ثم يضع شرطا للطبع فيقول : ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه فى أصل تركيبه مستوية على جسمه كان مطبوعا روحانيا ، يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها ، وأرق لبساتها ، ومن كان جسمه مستوليا على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى الكمال والتمام ، وحسن الرونق والنظام ، فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائعة من الكلام تملأ القلوب ، وتشعف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها أسالم تعرفه ، وهذا هو الغريب ، أن يتركب الحسن من غير حسن كقول امرىء القيس :

تنورتهـــا من أذرعـــات وأهلهـــا
بيثرب أدنى دارهـــا نظر عـــالى

فان هذه الديباجة اذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لمتجده(٧٩)

وهذا الكلام مسبوق بكلام العلماء عن الطبع والصنعة ، أو البديهة والارتجال أو الجمال والجلال ، فقد تحدث قديمـــا عن ذلك ، حتى أن الجاحظ فى البيان والتبيين وفى الحيوان لمس هذا النوع .

ان هذا الحديث عن ابن شهيد يجرنا الى المطبوعين من الشعراء ، وأهل الصنعة منهم ، وهما صنفان من الشعراء نشآ منذ العصر الجاهلى

---

(٧٨) الذخيرة ق ١ ج ص ٢٣١ المصدر السابق .
(٧٩) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ المصدر السابق .

الذى بدأ الشعر فيه طبعا خالصا ، ثم تحول مع مرور الزمن ، وتعدد الأحداث ، وحاجة الشعراء الى التأنى ، فى أفكارهم ، والتأنق فى عباراتهم الى ما أطلق عليه بعض النقاد صنعة ، وان كنت أرى أن الصنعة التى أطلقوها على الشعراء الجاهليين فيها جانب من المشاكلة اللفظية ، فليست صنعة زهير كصنعة أبى تمام ، ولا بديهة امرىء القيس وارتجاله كبديهة البحترى وارتجاله • ان الصنعة فى الشعر الجاهلى تعنى التروى فى قول الشعر ، والتأنى فى اختيار الكلمة الدالة على المعنى ، أما الصنعة عند المتأخرين فتعنى ذلك الذى عناه ابن طباطبا فى حديثه عن الشعر ، واختيار أبياته ، واستعاراته وتشبيهاته (٨٠) •

بل ان الجاحظ ذكر كلمة الالهام التى استبدلها ابن شهيد بكلمة الروحانية يقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا اجالة فكرة ، ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف همه الى الكلام والى رجز يوم الخصام، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو الا أن يصرف همه الى جملة المذهب والى العمود الذى اليه يقصد فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه المعانى انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده ، وكانوا أميين لايكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر ، وأكثرهم عليه أقدر وأقهر » (٨١) •

ولقد اتخذ ابن شهيد من قانونه فى الروحانية أو الالهام — كما سماه الجاحظ — مجالا للهجوم السافر على المعلمين ممن عنوا باللغة نحوا

---

(٨٠) انظر كتابنا : صورة المرأة فى السبع الطوال ص ٢٥٠ ط مطبعة الأمانة •

(٨١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ١٣ ط دار الكتب العلمية • بيروت — لبنان •

وتصريفا ، فرماهم بأنهم أدركوا بالطبيعة وقصروا بالآله ، بل انه قد وضع مقياســا آخر هو أن الخلقة لهــا دخل كبير فى الالهام ، فالخلقة المستوية تلهم صاحبها جمالا فى التعبير ، وجلالا فى التفكير ، أما الخلقة المشوهة فانها لاتجر على صاحبها الا تشوها فكريا وتعبيريا .

وهذا منهج غريب ، ومقياس عجيب ، لعل أحدا من العلمـاء لم يتبعه اليه قبله الاما كان من علم النفس واستواء الأعضاء فى العصر الحديث لكن ابن شهيد اتخذ من هذا المقياس سلاحا سلطه على منافسيه من علماء اللغة ، فهو يقول : وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران : ويرجعون الى فطن حمئه ، وأذهان صدئة لا تنفذ لها فى شعاع الرقة ، ولا مدب لها فى أنوار البيان سقطت اليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها فيما يجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ومن لم تكن له آلة الصناعة فما هى مخصوصة بها لاتقوم تلك الصناعة الا بتلك الآلة (٨٢) .

ثم يقول : فهذه العصابة من المعلمين يدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ، وتقصــيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخــادمة لآلات الفهم البــاعثة لرقيق الــدم فى الشريانات الى القلب ، وزيادة غلظ لأعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى يعين على ذلك بالحدس ، وطريق الفراسة فساد الآلة الظاهرة كفرطحة الرأس ، وتسفيطه ، ونتوء القمحدوة والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة ، فنستعيذ بالله ألا يشوه خلقه

---

(٨٢) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٣٩ المصدر السابق .

قلوبنا ، ولا يجسى أجرام أكبادنا ، ويضم أوتارنا وأعصابنا ولا يعظم أنوفنا ، ولا يجعلنا مثلة للعالمين (٨٣)

ولقد سبق أن نبهت الى موقفه من أبى القاسم الاقليلى الذى رماه فى بعض رسائله بالجمود والتحجر ، وقفل باب السلاطين أمام أى راغب على الرغم من عدم ذيوع شعره ، أو شـيوع نثره لكنه يبدو أنه عند الحاجة تخف حدة الخصومة فقد مدحه ببيتين تقدم الحديث عنهما فهو يصفه فيهما بالتقوى والورع ، وأنه عالم جليل .

بين ابن شهيد والجاحظ :

واذا كانت الخصومة بين ابن شهيد ومعاصريه قد سلك فيها طريق التهكم والسخرية والاستهزاء بهذه العلوم التى درسوها ، والكتب التى حفظوها . فعندما يقول له أحدهم : ناقشنى فى كتاب الخليل يقول له ابن شهيد ساخرا « وعندى فى زمبيل ، وعندما يقول له آخر : هل حفظت كتاب سيبويه ؟ يقول له ابن شـهيد : خريت الهرة عليه وعلى كتـاب ابن درستويه . وهكذا ، وهو أسلوب ينم عن شخصية عجيبة لا تعترف بموروث السابقين ، وهذا يؤكد لنا أن ابن شهيد عندما قصر عن فهم هذه المعارف نحا بالأئمة عليها وعلى من أوتى حظا فيها .

اذا كان ابن شهيد قد صنع ذلك مع معاصريه فانه قد صب جام غضبه على الجاحظ ، تلك الشخصية الفذة ، والعقلية التى لا تجارى فى عصرها ، وفيما تلاه من عصور ؛ وما ذلك الا لأن الجاحظ قد أعلى من شأن البيان ، ورفع من قدر أربابه ، وكأنه كـان يريد منه أن يترك له الحديث عن هذا الأمر ينفرد به ، ويشدو بمعرفته ، يقول ابن شهيد : « وقول الجاحظ : انا اذا أكثرنا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما فى رأس كل شهر ، ولو اكثرنا من يعلمهم البيان لما

---

(٨٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٠ المصدر السابق .

تنع منا بألف درهم ، ولم يقل هذا الا وقد ألف « كتاب البيان » ولو كشف فيه عن وجه التعليم ، وصور كيفية التدريج لأرى كيف وضع بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع فانها معادن الصنعة ، ومواضع مفاتيح الطريقة ، ولكنه استمسك بفائدته ، وضن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بثمره الفهم ، وعرف أن النفع كثير ، والشاكر قليل ، فلم يفد بما أوضح من أمر البيان فائدة غير أهله ، ومن كرع في حوضه واستاف من نده ، وأما أن يخرج مبتدئا ، أو يعلم جاهلا فلا البتة »(٨٤) .

ثم أخذ ابن شهيد يسوق للناس جانبا من تعليمه بدأه بالنعى على التلاميذ في زمانه ، فالبطالة عليهم غالبة ، والسآمة عليهم مستولية ، وأخذ يسوق لنا طريقة تعليمه ، فهو يعلم التلاميذ أن للكلمات أنسابا ، وللحروف أرحاما ، فاذا جاوز النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، واذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر . أفهمت ؟ قال لي : اي والله » (٨٥) .

ويستمر في تعليم صاحبه قوانين الفصاحة والبلاغة ، وبين الحين والآخر يقول له أفهمت ؟ ويقول له تلميذه : اى والله ، وكأنه بهذا يريد أن يثبت في ذهن القارىء أن الجاحظ قد قصر في هذا المجال ، وبخل في هذا الميدان ، لأنه نظر في كتاب البيان فلم يجد فيه الا أخبارا رويت ، وحرادث كتبت ، ولم يدر أن الجاحظ صنع ذلك ليقوى ملكة البيان لدى المتلقين ، فهل أراد من الجاحظ أن يأتى بتلاميذ يعلمهم علم البيان على طريقته التى ابتكرها مع جاره ؟ ان ذلك المنهج قد يستعمل مع شخص أو آخر لكن الذى يريد عموم الفائدة يسجل للتلاميذ مادة علمية يستطيعون بها بلوغ مآربهم ، والوصول الى ما يريدون .

---

(٨٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ المصدر السابق .
(٨٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٤ المصدر السابق .

فنحن لا نوافق ابن شهيد على ما رآه فى كتاب البيان ، ونفهم منه — كما فهم الدكتور زكى مبارك — أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وانما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ فى التأليف ، فهو ينتقل من فن الى فن، ومن كلام الى كلام جريا على طريقته فى تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات، وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ، حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وانما نتمثله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شىء ، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقـافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العالم من الضياع ، ويكفيهم أن يدونوا ما يسمعونه ، أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال (٨٦) .

ولم يكتف ابن شهيد بهذا الهجوم على الجاحظ ، بل اننا رأيناه فى مكان آخر يرمى الجاحظ بالحمق ، وعدم العقل ، فقد ذكر عنده الجاحظ ، وسهل بن هارون واتخذ من هذه المناقشة مجالا لبيان الأدوات التى يجب أن يتحلى بها الكاتب فقيل له : وأى أداة نقصت الجاحظ ؟ فقال : أول أدوات الكاتب العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد تجد عالما غير عاقل وجدليا غير حصيف، وفقيها غير حليم وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر من نسبته الى الجاحظ ، لو شهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا ، ويعانى له اطفاء جمرة فتنة مســتضلعا فى ذلك بعقله وجودة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تســطير المقال فى صفة غراميل البغال ، وغير الكلام فى الجزدان وبنات وردان ، وتبين أن بين العالم والكاتب فرقا »(٨٧) .

والواقع أن أبا عامر يخلط خلطا واضحا بين السياسة القائمة على

---

(٨٦) د. زكى مبارك النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٦١ ط دار الجيل بيروت .

(٨٧) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ المصدر السابق .

الخداع ، والدجل ، وبين العلم المتجرد الذى لا يعرف الذلة ، ولا يفهم معنى الاستكانة ، ذلك أن عـزة العلم ، واباء أهله لا يتفقان والتذلل والخضوع للأمراء وذوى السلطان بقصد الحصول على عرض زائل ، ونفوذ حائل •

وكأن أبا عامر يريد الجاحظ أن يكون خداعا منافقا يتقرب الى الخلفاء بعلمه ودهـائه معتمدا كل وسـيلة لذلك يتكسب بهذا العلم فى اسلوب مزر من الذلة والضعف ، لا يتناسب وعلم الجاحظ وفضـله فى الثقـافة والأدب وبذلك بدأ أبو عامر فى صـورة الأديب الذى لا يفهم سوى لغة المنفعة المادية على حساب كل شىء(٨٨) •

« ان هذا الكـلام — كما يقـول الدكتور زكى مبـارك — يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة فالأدب والعلم عنده من وسـائل العيش والحظوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب فى دنياه يكون فضـله ، وهذا خطأ مبين •

لقد تكون دمامة الجاحظ هى التى قعدت به كما قصر بابن شـهيد نفسه ثقل سمعه وكما تخلف صاحبه الافليلى لبرم أنفه ، واذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول •

ولكن هل خطر ببال ابن شـهيد أن هناك اختـلافا بينا فى تركيب النفوس ؟ اننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمى اليه أمثال سهل بن هارون ، ولكن لاريب فى أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان ذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم فى مختلف الطبقات ، فليس من العيب أن يهتم بالصغائر فى العلوم لأن العلم فى أصـغر

---

(٨٨) د• حازم عبد الله خضر ، ابن شهيد الأندلسى حيـاته وشعره ص ٢٩٧ منشورات دار الثقافة والاعلام ، العراق •

جزئياته لا ينال من العالم غير الاكبار والاجلال ، ان من العـدل أن نزن الأمـور بميزان آخر غير النجـاح المؤقت الذى يظفر به الكتاب السياسيون يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود فى أعمالهم الأدبية والعلمية ، واذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون فى ميدان السياسة ، وما عمله الجاحظ فى ميدان العلم ، أما المـوازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال ، ريا ويل أهل الفضـل أن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات »(٨٩) ٠

وكلمة أخيرة نقولها فى هذا الصدد ذلك أن ابن شهيد الذى عـاب سلوك الجاحظ وحط من شأنه ، ورماه بالحمق فى رسائله لم يلبث عند كتابة رسالة « التوابع والزوابع » أن اتخذ من الجاحظ أستاذا لجميع الكتاب والأدباء ، بل انه حرص على اجازته له ليكون كاتبا شـاعرا ، وهذا ما يؤكد لنا أن ابن شهيد كتب رسالة التوابع والزوابع وهو فى سن التعقل ، بعد أن ساق آراءه المتقدمة وهو فى فورة الشباب ، وثورته على خصومه ومعارضيه ٠

آراء أخرى لابن شهيد :

على أن هناك آراء نقدية وقف عندها العلماء ، ورأوا فيهـا جدة وابتكارا نجملها فيما يلى :

١ ــ فقد أقر ابن شهيد بتغير العادة حسب تغير الأزمنة ، وبأن ما يصلح فى عصر ربما لا يصلح فى عصر آخر ، كذلك الحال فى الصناعتين الشعر والنثر « وكما أن لكل مقام مقـالا ، فكذلك لكل عصر بيـان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطـابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه ، وكما أن الدنيا

(٨٩) د٠ زكى مبارك ٠ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجـرى ج ٢ ص ٧٠ ــ ٧١ المرجع السابق ٠

بدلا فكذلك للكلام نقل وتغاير في العادة ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان فالصنعة معهم أفسح باعا وأشد دراعا ، وأنور شعاعا لرجحان تلك العقول ، واتساع تلك القرائح في العلوم ، ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقه ابراهيم العباس ، ومحمد بن الزيات ، وابني وهب ونظرائهم ، فرقت الطبائع ، وخف ثقل النفوس ، ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف ، وبرقة الكلام كلف ، فكانت احالة أخرى الى طريقة البديع وشمس المعالي ، وأصحابهما »(٩٠) .

ثم يقرر أن ما يجري على الكتاب يجري على الشعراء فيقول « وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان، وطلب كل ذي عصر ما يجوز فيه، وتهش له قلوب أهله ، فكان من صريع الغواني وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان من استعمال أفانينه والزيادة في تفريع فنونه،ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس، وخرج عن العادة ، وطلب ذلك منه ، وامتثله الناس ، فكل شعر لا يكون اليوم تجنيسا ، أو ما يشبهه تمجه الآذان ، والتوسط في الأمر أعدل ، ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام ، لأنه لبس ديباجة المحدثين على لأمة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب »(٩١) .

فابن شهيد هنا يتفق مع ما أعلنه النقاد المشارقة من أن للأزمنة والأمكنة دورا في نتاج الشاعر أو الكاتب فما يصلح في عصر لا يصلح في غيره،وما يصلح في مكن لا يصلح في غيره،نري ذلك عند الجاحظ الذي وقف من قضية المحدثين من الشعراء موقفا يحمد عليه حيث نعى على

---

(٩٠) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٣٧ المصدر السابق .
(٩١) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٣٧ المصدر السابق .

أبى عمرو بن العلاء والأصمعى موقفهما من الشعراء المحدثين ، وكذلك صنع ابن قتيبة ، والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى .

٢ — وابن شهيد يرتب أهل صنعة الكلام حسب اجـادتهم لهذه الصنعة ، فهم فى رأيه ثلاث طبقـات ، طبقة تجيد الكـلام ، وتخترع المعانى وطبقه ماهرة فى التلفيق والحيلة ، وطبقـه تبنى الكـلام على الانصباب مع التوفيق التام بين الفكرة الصعبة ، ومائية الشـكل فهو يقول « وأهل صـناعة الكلام متباينون فى المنزلـة متفاضلون فى شرف المرتبة على مقدار احسانهم وتصرفهم .

« فمنهم الذى ينظم الأوصاف ، ويخترع المعانى ، ويحرز جيد اللفظ الا انه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحته التأليف ، حتى انه ربما قصر فى الوصف وأساء الوضـع » فهذا المصـنف فى رأيه لا يمكن أن تواتيه الفكرة الا فى الأبيـات القليلة اما اذا طلب الاطالة والاستمرار وقف وانفل وتلاشى واضمحل .

« ومنهم الكارع فى بحر الغزارة الفادح بشعاع البراعة الذى يمر مر السيل فى اندفاعه والشؤبوب فى انصبابه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكل على طولى العمل ، لا تتاح له حاجة الا اقتنصها ، ولا تنازله طـائرة الا اختطفها جرأته كشفرته ، وبديهته كفكرته ، فذلك الألسن يوم حرب الكلام لا تخطىء ضربته ، ولا تصأب غرته » .

« ومنهم من يتجافى الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشـارك فى أنحاء من الصنعة ، وجـل ما عنده تلفيق وحيلة ، وبذلك يصاحب الأيام ، ويجارى أبناء الزمان » .

ومن خـرج — فى رأيه — من هذه الطبقات الثـلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل فى صناعة أهل الكلام(٩٢) .

---

(٩٢) الذخيرة ق ١ ج ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ المصدر السابق .

٣ — وهناك موضوع آخر لمسه ابن شهيد ، وألح عليه كثيرا، فقد قرر أن الناقد البصير ، أو الأديب الفحل هو الذى يدرك التناسب بين الكلمات والحروف ، فاذا أراد تركيب الكلام من حروف متنافرة فانه يبتعد بذلك عن العذوبة المطلوبة فى قوانين الكلام ، فهو يقول لصاحبه الذى أراد تعليمه صنعة الكلام « ان للحروف انسابا وقرابات تبدو فى الكلمات ، فاذا جاوز النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، واذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر، وطابت المخابر أفهمت ؟ قال لى : اى والله قلت له : وللعذوبة اذا طلبت ، وللفصاحة اذا التمست قوانين من الكلام من طلب بها أدرك، ومن نكب عنها قصر • أفهمت ؟ قال : نعم ، وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو ، وفصيح الغريب ، وتهرب عن قبيحه قال : أجل •

ثم يسوق له مثلا تطبيقيا يستنبط منه موقع الكلمات غير انه اكتفى بقوله وقعت لفظة كذا موقعا لذيذا ، ووضعت كلمة كذا وضعا مليحا ، وسرت جملة كذا مسرى لطيفا ، وهو منهج بدائى فى النقد ، وكان الأولى به أن يبين سر وقوع هذه الكلمة بين سابقتها ولاحقتها كما صنع الامام عبد القاهر الجرجانى فى نظرية العلاقات والنظم •

على انه مسبوق بهذا الكلام — أيضا — فقد كتب الصاحب بن عباد رسالته « الكشف عن مساوىء المتنبى » وقال فى مقدمتها : « وهأنا أجالس الكبراء وأكاثر الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجارى الشعراء بالجبال تارة ، وبالعراق مرة وآخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب فما رأيت من يعرف الشعر معرفته ، وينقده حق نقده غير الأستاذ أبى الفضل ابن العميد ،

فانه يجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن »(٩٣) •

٤ — ولقد لمس ابن شهيد موضوع البلاغة ، وانها فى نظره تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، فالبلاغة « صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب، فهى ترجع الى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكــون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى الى جميع النــاس فى جميــع الأحوال ، وانما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه الى الغرض الذى يرمى اليه عند الخطاب »(٩٤) •

يقول ابن شهيد « وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله ، فيصادف منا حالة لا تتسع له فى كبير مبرة ، فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يعتمد بها البقالين ، ومشيخة القصابين ، فاذا قرعت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم درحنبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص ذلك البائس فى عيونهم ، فما شئت اذ ذاك من خبزة وثيرة ، يحشى بها كمة ، ورقبة ثمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز نقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسد بهــا حلقومه ، وسنبوسقه ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذجة رطبة يحتك بها حنكه ، فلا يكاد البــائس يستتم ذلك ، حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يلطعهــا راغبــا فى أن نكشف له السر الذى حرك العــامة فبذلت ما عندها له ، وبادرت بدرها اليه ، وتعليمه ذلك النحو من أنحاء السحر لا نستطيعه ، لأن هذا الذى يريده هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب »(٩٥) •

---

(٩٣) الابانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤٣ تحقيق ابراهيم الدسوقى البساطى ط دار المعارف •

(٩٤) د• زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ المرجع السابق •

(٩٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ المصدر السابق •

واذا كان ابن شهيد يريد أن يقول : ان للعامة خطابا لا يحسون للخاصة ، وان للدهماء كلاما يجب أن يساق اليهم ليفهموه ، ويعلموا مضمونه ، وهذا الأمر لا يصل اليه الا من أوتى حظا وافرا من علوم البيان لكنه ساق لنا مثالا أشبه ما يكون بأدب بديع الزمان الهمذانى الذى كان يكدى به ، ويسوقه ليسلب ما فى أيدى السامعين ، وأدب الكدية والمكدين يمخرقون فيه بكلمات وألفاظ الغرض منها الاستحواذ على عطف النـــاس وعطـــاياهم ، ثم أن ابن شهيد يقوم بتعليم هؤلاء الناس بعض الأبيـــات التى يتسولون بها ، والتى تفهمها العـــامة من القصابين وأصحاب الحوانيت الذين لا يستطيعون فهم الشعر الرصين الذى لا يفهمه الا الخاصة من أرباب العقول ، وذوى العلم والآداب ، وبذلك ينزل بأدبه الى مستواهم ، وينحدر بشعره الى درجة الانحطاط، ولقد قيل أن ابن الرومى سئل يوما فقيل له : لم لا تقول ما يفهم ؟ فقال : ولم لا يفهم ما يقال ؟ فرد بذلك على من يريد منه النزول بشـــعره الى مستوى هو يكره النزول اليه .

« وهذا الذى يقوله ابن شهيد يحتاج الى تحـــديد فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ ، وقد تبدو البلاغة فى بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشـــاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن فى تلك المواطن وحدها يحتاج الى بيان الكتاب والخطباء والشعراء ، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهـــواء والميول يكون نجاحه فى درك ما يتعسر على سواد المنشئين ، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها ، وخبث ولؤم جوانب من الضعف ينفذ اليها القول ، حتى يصل المنشىء بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود ، وسر البلاغة لا يظهر الا فى المواطن التى تبدو مفروغا من الكلام فيها ، وميئوسا من فائدة العود الى شرحها ، وتفصيلها ، فان المنشىء لا يعجز الا حيث يكون الجو جو بداهـــة وظهور ، بحيث يظهر كل بيـــان وكأنه حديث مردد معاد ، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحول المســـائل

الظاهرة الى مشاكل عقلية وروحية ، واجتماعية ، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم الى جواء من البحث والتفكير ، ويقفهم موقف الحيرة والتردد من الخير والشر والبر والعقوق ، فليس البليغ هو من يأتى فقط بالبدع الطريف ، ولكن البليغ هو من يحول الموضوعات العادية الى شئون جدية طريفة تتخلل فيها عزائم أهل الشح ، أو تنهض ضمائر أهل الجمود وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم ، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجر القبيح .

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس الى مكان الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقحون أمام دعوات الخير أولبر والاحسان ، ففى كل نفس مهما لؤمت جوانب غافية يقدر على ايقاظها البارعون من أهل البيان »(٩٦) .

٥ ــ وهناك أمر آخر عرض له ابن رشيق تمثل فى توجيه النقاد توجيها يجعلهم لا ينخدعون بمظهر الكلام ، فمهمة الناقد هى الكشف عن مدى التلاؤم بين الفكرة الصعبة ، ومائية الشكل ، فهو ينص على أن الناقد يجب عليه ألا يستهويه الشكل وينسيه التفتيش عن المعنى « فقد ترى الشعر فضى البشرة » وهو رصاصى المكسر ذا ثوب معضد أو مهلهل ، وهو مشتمل على بهق أو برص مبنيا بلين التماثيل وصفوان التهاويل .

« ولعل أهم خداع تنبه اليه ابن شهيد هو الخداع العاطفى حيث يضطرم نيران الجوى ، ويلمع البرق ، ويسن الودق ، وتسفح الدموع ،

---

(٩٦) د. زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٦٦ المرجع السابق .

والكلام فى حقيقته كسراب بقيعة اذ الفنان الحق فى رأيــه هو الذى ، يتصرف تصرف الملح ، ويتلون تلون أبى براقش • وهذا كلام موهم ، ولكن ابن شهيد يعنى القدرة على القريض رغم تنوع الموضوع ، فيبقى كلام الشاعر فى الناس على مر الأدهـــار ، ويتخذونه اتخـــاذ الملح ، ويفسرونه بما يلائم تغير الأزمنة »(٩٧) •

وبعد فهذه جــولة جلناها فى نثر ابن شهيد الأندلس ، اقتضت طبيعة البحث أن نحث فيها الخطأ ، وتغز السير ، ولعل فى هذه الجولة غناء لمن يريد الوقوف على ذلك المنهج الذى سلكه ابن شهيد فى رسائله التى توجها برسالة التوابع والزوابع •

فاللهم هيىء لنا من أمرنا رشدا ، وأنت حسبنا ونعم الوكيل •••

أ ـــ د • عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بالمنوفية

---

(٩٧) د• احسان عباس : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص٤٨٢ ط دار الثقافة ببيروت •



ابن دراج القسطلي

شاعر المنصور بن أبي عامر

الدكتور عبد المنعم أحمد يونس .
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
بالمنوفية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وامام المرسلين وعلى آله وصحبه ، ومن نهج نهجهم ، وسلى طريقهم الى يوم الدين .

وبعد

فالشعر الأندلسى له طابعه المميز ، وسمته الواضحة ، وأصالته الدالة على ثبوت قدم ، ورسوخ فى مضمار الشعر ، فقد سار شعراؤه فى درب شعراء المشارقة وأجادوا فى أغراض كثيرة ، بل انهم بدوا المشارقة فى شعر الوصف الذى وهبتهم اياه طبيعة الأندلس الخلابة . جذبتهم رياضة فوصفوا أزهارها ورياضيها وتغنوا بورودها وأفانيتها . وشدوا بما شأنه امتاع النفس ، واشباع الغرائز ، وفتنتهم حياضه فهاموا بوديانه وأولعوا بمائه وخلجانه ، وقف ابن عباد مرة ينظر الى صفحة الماء وقد أتى عليها النسيم فتخيل أنها أشبه ماتكون بحلق الحديد التى تصنع منها الدروع ، وابن عباد شاعر وفارس فأخذ منه هذا المنظر ما أخذ فقال لابن عمار الشاعر الأندلسى أجز يا ابن عمار :

صنع الريح من الماء زرد

ولما لم يستطع ابن عمار الاجازة أجازته فتاة ذات خيال محلق اسمها اعتماد الرميكية كانت تملأ جرارا بالقرب منهما فقالت

يا له درعا منيعا لو جمد

وهكذا كان الأندلسيون ينعمون بخيال خصب نماه لديهم ذلك الجو الشاعرى الذى كانت تنعم به بلاد الأندلس ، فتغنى بها الشعراء ، وهام فى رياضها العشاق والمحبون ٠

ولقد رأيت أن أقدم للقراء شاعرا أندلسيا ذاع صيته ، وعلا فى سماء الشعر نجمه انه الشاعر ابن دراج القسطلى شاعر المنصور بن أبى عامر الذى صحبه فقال فيه روائع حفظها الزمن ووعاها التاريخ ٠

واذا كان الشعراء الأندلسيون ــ كما أسلفت ــ قد ساروا على نهج اخوانهم المشارقة فى كثير من الأغراض كالخمريات والغزل بالمذكر فان طبيعة بلاد الأندلس قد فرضت عليهم ألوانا خاصة من الشعر الرسمى ، والشعر الشعبى ، فمن الشعر الرسمى وصف مظاهر الطبيعة من ورد وأزهار وجبال ووهاد ، حتى انهم جعلوا هذا الوصف موضوعا مستقلا يتناولونه منفردا دون مزجه بموضوعات أخرى من ذلك قول عبد الله بن يحيى فى الورد وقصر مدته ٠

تخلت من الورد الأنيق حدائقه	وبان حميد الأنس والعهد رائقه
أقام كرجع الطرف لم يشف غلة	ولم يرو مشتاق الجوانح شائقه
فما كان الا لطيف زار مسالما	فسر ملاقيه ، وسوء مفارقه
على الورد من الف التصابى تحية	وان حرمت الف التصابى علائقه

أما الشعر الشعبى فان الأندلسيين أحدثوا فى الأدب فنا جديدا يضاف الى سائر الفنون الأخرى ، فبعد أن كان الأدب شعرا ونثرا صار لديهم شعرا ونثرا وموشحات ، ولقد صار فن الموشحات له مدارسه التى عنيت به ، وسارت عليه ، فقد سبقوا فيه المشارقة بما يقرب من ثلاثة قرون ــ اذا استثنينا مانسب لابن المعتز من موشحات لم يقم دليل قاطع على نسبتها اليه ٠

ابن دراج :

ابن دراج القسطلى : أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج الأندلسى القسطلى ولد فى آخر العقد الخامس من القرن الرابع الهجرى ٣٤٧هـ (١) نزح آباؤه الأقدمون من شمال افريقية ، ودخلوا الأندلس مع الفتح الاسلامى فهو ـ اذن ـ من أسرة بربرية صنهاجية ·

أما نسبته الى الأندلس فذلك راجع الى مولده بها ، فهو أندلسى المولد والنشأة والوفاة ، ولقد وصفه صاحب الذخيرة بقوله « كان لسان الجزيرة شاعرا وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها » (٢) ويقول عنه أبو حيان ·· أبو عمر ابن دراج القسطلى سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين (٣) ·

أما نسبته الى قسطلة فذلك راجع الى جده الأعلى ، فقد كان جده حاكما لقسطلة وهى تابعة لاقليم « جيان » المغربى ، ذكر ذلك ابن سعيد فى كتابه المغرب فى حلى أهل المغرب أما ماذهب اليه بعض الباحثين من أنه ينتسب الى قسطلة الغرب ، وهى التابعة للبرتغال حاليا فهو يتنافى مع أصله البربرى ، فقد ذكر أنه من أصل بربرى صنهاجى ، والبربر جماعة سكنوا شمال افريقيا ، وهم يقيمون بها حتى الآن ،وأهم

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ق ١ م ١ ص٥٩ ، وانظر وفيات الأعيان ·

(٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ق ١ م ١ ص٦٠ ، جـ ١ ص ١٣٥ تحقيق د· احسان عباس ·

(٣) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ،لابن بسام ق١ م١ ص٦٠

ووجودهم في الجزائر والمغرب ، والمصادر تؤكد أن البربر كان لهم دور كبير في فتح الأندلس ، ودخولها مع طارق بن زياد الذى ينتمى اليهم ، فقسطلة — اذن — هى قسطلة المغرب وليست قسطلة البرتغال ، وهو مارجحة الدكتور محمود على مكى محقق ديوان ابن دراج القسطلى ٠

وكتب التراجم لاتذكر شيئا عن حياة ابن دراج الأولى ،فنحن نعلم أن المؤرخين يعنون بدور الشاعر الرئيسى فى حياته ، ويهتمون بمرحلة النضج عنده ، وحياة الطفولة عند الشعراء تكون مجهولة لدى كثير من الناس ، فلا يعلمها الا الأدنون منهم وهؤلاء لايكونون — غالبا — من أهل العلم والتدوين ، والمستتبع لحيـــاة ابن دراج يمكنه الخـروج بنتيجة تعطينا تصورا عن حياته الأولى ، فلقد اتصل شـاعرنا بالمنصور بن أبى عامر رأس الدولة فى قرطبة ، ولايمكن لرجل بسيط أن ينـــال حظوة لدى الأمراء والوزراء الا اذا تزود بالعلم ، ونهل من حيـــاض المعـرفة . وتسلح بالشعر ، وهذا ماجعل الدكتور أحمد هيكل يقـــول عنه « انه نشأ نشأة أدبية فى بلده ، وتزود بثقافة لغوية وتاريخية وأقبل بنـوع خاص على شعر الجاهليين والاسلاميين ، وفتن بنـوع أخص بالاتجـــاه المحافظ الجديد فى الشعر الذى وصل الى قمته فى القرن الرابع الهجرى بزعامة المتنبى فى المشرق وابن هانىء فى المغرب ، وقد تأثر بهما » (٤)

ولعل القارىء لكلام الدكتور هيكـل يدرك أنه مبنى على الفـرض لا على اليقين ، فقد استشف من صلة ابن دراج بالمنصــور أنه لابد أن يكون قد تسلح بدراسة الشعر وخاصة الجـــاهلى منه ، واستشف من منهجه فى الشعر أنه لابد أن يكون قد عكف على شعر المحـــافظين ، أو

---

(٤) د٠ أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٠٣ ط دار المعارف ٠

ماسموا بالمحدثين من الشعراء مثل أبى تمـام والبحترى والمتنبى ، ولأن الثعالبى يلحق ابن دراج بالمتنبى فى المشرق رأى الدكتور هيكل أن ابن دراج عنى بدراسة شـعر المتنبى فى المشرق ، وابن هانئ الأندلسى فى المغرب وتأثر بهما ، فصاحب اليتيمة يقول عن ابن دراج « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشـــام ، وهو أحد الشـعراء الفحـول يجيد ماينظم » (٥)

أما الدكتور محمود على مكى فيقول فى مقدمة الديوان ٠٠ على أننا نستطيع أن نتصور حياة ابن دراج فى مستهل حياته اذا تأملنا الظروف التى كانت الأندلس تعيش فى ظلها فى ذلك الوقت ، فقد ولد ابن دراج فى السنوات الأخيرة من خلافة عبد الرحمن الناصر أول خلفاء بنى أمية ـ حكم النـــاصر بين سنتى ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ وقضى فتـــرة تعليمه فى السنوات التى وافقت خـــلافة الحكم المستنصر ـ بين سـنتى ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ ـ وجانبا من خلافة ابنه هشام المؤيد ، ونحن نعـرف أن هــذه الفترة من حياة الأندلس كانت أزهر عصور التاريخ الاسلامى فى هــذه البلاد على الاطلاق (٦) ٠

لقد كانت الأندلس ابان حـكم الناصر والمستنصر سـوقا رائجة لشتى ألوان الفنون ، فعـرب الأندلس كانوا يتنـــافسون فى أخذ حظ وافر من العلم لأن ذلك سبيلا الى الرياسة والوجاهة ، ثم ان الثقـافة

---

(٥) الثعـــالبى ـ يتيمة الدهـــر جـ ١ ص ١٠٣ ، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٠

(٦) مقدمة ديوان ابن دراج حققه وقدم له الدكتـــور محمود على مكى طبع على نفقة صاحب السمو العالم الجليل الشيخ على بن عبد الله آل ثانى حفظه الله ط الأولى ١٣٨١ ـ ١٩٦١ منشورات المكتب الاسلامى بدمشق ٠

العربية الخالصة المتمثلة فى حفظ القرآن الكريم ، ورواية الحديث وطلب الفقه قد جعلت هؤلاء القوم يعبون منها عبا ، فاذا مانشأ وليد فى هذه البيئة فلابد أن يتأثر بها ، فبيئة الأندلس – كما يقول الدكتور حسن جاد « بيئة تهفو الى العلم ، وتفيء الى موارد الأدب ، ويشدو أبناؤها على الثقافة والمعرفة ، وقد انضم اليها بيئة عامة – فى حياة شاعرنا الأدبية – تلك هى قرطبة التى صارت عاصمة البلاد منذ الفتح ، والتى ناهضت بغداد فى شرف العلم ، وزهو الأدب ، واستدراج العلماء ، واستنهاض الشعراء، وعقد مجالس الأدب ، وكثرة دور الكتب ، والغرام بمطارحة الشعر ، والمبادهة به ، والولع بالخروج الى الرياض ، والتلهى بجمالها ، ووصف محاسنها ومجالسها ، ومشاركة المرأة فى تلك المجالس ، وتاديبها بأدب الرجال ، وهو ماحفزهم الى الظهور أمامها بمظهر الكمال فى الذوق والظرف والأدب .

يضاف الى ذلك روح كانت تسرى فى نفوس الخلفاء من ايثار الأدب والتعويل على العلم ، فاقترنت الوزارة بالأدب ،وكان الوزير كاتبا وشاعرا ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلم من وسائل الوصول الى الوزارة . فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والآدب ، وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزارة فى الدولة ، بل كانت الوزارة وقفا على كل أديب ، وأن لم يكن عربيا أو مسلما » (٧) .

لعلنا نستشف من كلام الدكتور حسن جاد عن ابن زيدون .

---

(٧) د. حسن جاد حسن . ابن زيدون حياته وعصره وأدبه ص٤٨ ط المطبعة المنيرية .

تلك البيئة العامة التى كان ينعم بهـــا أهل الأندلس ، والتى تحفـزاهم حفزا الى طلب العلم والمثابرة عليه ، وتدفعهم دفعا الى العب منه عبا ، حتى ينعموا بجاه أو وزارة ، أو يظفروا بسلطان أو امارة ، وتحثهم حثا الى تلمس مصادر الشعر ، والعكـوف على حفظ دواوين السـابقين ، فتجود قريحتهم بما من شأنه تقريبهم من بلاط الخلفاء ، وانضمامهم الى حواشى الأمراء ، بل ان طبيعة الأندلس قادرة على صقل ملكاتهم ،وتنبيه عواطفهم ، واذكاء مواهبهم ٠

واذا كانت بيئة الأندلس وقرطبة هنا شأنها فان ابن دراج نشـأ فى بيئته الأولى نشأة أدبية شعرية ، فبلدة ابن دراج « جيان » ومنطقتها كانت على مايبدو – لنا – تربة خصبة للشعر والشعراء ، فقد كان منها أول شاعر أندلسى تميز بالاصالة وقوة الشخصية ، ونعنى به يحيى بن الحكم الغزال الذى نبغ فى أيام عبد الرحمن الأوسط خـلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وأما فى القـرن الرابع فلعـل أهمهم شعراء جيان كانوا بنى فرج وهم ثلاثة اخوة أحمد وسعيد وعبد الله أبناء محمد بن فرج ، والى أولهم يرجع فضل تاليف كتـاب الحدائق الذى عارض به مؤلفه كتاب « الزهرة » لأبى داود الأصفهانى ، وجمع فيه من أشعار الأندلسيين ما أراد أن يظهر به للمشارقة أن الأندلس على حداثة عهدها بالاسلام لاتقل فى هذا ٠٠ الميدان عن أى قطر عربى آخر ، (٨)

فى بلاط المنصور بن أبى عامر :

ان حياة العظماء الأولى قد يعمها النسيان ، أو تاتى عليها الأيام - أو تنحسر مع بلوغ العظماء فجر العظمة ، فلا تكـاد تذكر أمام انبهـار

(٨) د٠ محمود على مكى – مقدمة ديوان ابن دراج ص ٣٥ المرجع السابق ٠

الناس بما يظهرونه من ألوان الذكاء والنجـــابة ، فيرصدون تفوقهـم وتبوغهم ، ويبدون اعجابهم بسيرتهم وجهادهم .

هكذا فعلَ المؤرخون بحياة ابن دراج الأولى ، فلم يعيروها اهتمامهم ولم يولوها عنايتهم ، وانما اهتجوا بحياته في بـلاط المنصـور بن أبي عامر ، فبعد أن تمرس على الشعر وتدرب على أفانينه ، واشتد ساعده صنع كما يصنع سائر الشعراء الذين عاشوا في كنف العظماء ، ونعموا بما يضفونه عليهم من عطاء وتكريم .

يمم ابن دراج وجهه صوب المنصور بن أبي عامر كي ينعم عنـده بما ينعم به سائر الشعراء الذين كانوا يفدون عليه ، ويكللون هامته بأكليل المدح والثناء فيرجعهم الى أهليهم محملين بألوان العطايا والمنح ، لقد كان بلاط المنصور أشبه ببلاط سيف الدولة الحمـداني الذي وفد عليه المتنبي فقال فيه روائع وعاها التاريخ وحفظهـا ديوان شـعره ، فأغدق عليه سيفُ الدولة سحائب كرمه ، وكريم عطاياه أموالا بددتها الرياح ، وذهبت بها الأيام .

رصد المؤرخون تلك الواقعة التي حدثت لابن دراج وهو يتحسس خطاه في بلاط المنصور فهو يعلم أن هذا البلاط ملء بالحساد والشانئين وغاص بالعلماء والمتـأدبين ، ولابد له ـ والأمر كذلك ـ بن عمـل أدبي يبهر السامعين ، ويشد اليه أنظـار الحاضرين فمدح المنصـور بقصيدته التي قال فيها :

أضـــاء لها فجر النهى فنهاها	عن الدنف المضنى بحر هواها
وضللها صبح جلا ليلة الدجى	وقد كان يهديهـــا الى دجاها
ويشفع لى منها الى الوصل مفرق	يهـــل اليه حلهـا وحــلاها

فيا للشباب الغض النهج برده ... وبالرياض اللهو جف سقاها

وماهى الا الشمس حلت بمفرقى ... فأعشى عيون الغانيات سناها

وأخذ ابن دراج يصف تلك الصعاب التى واجهته وهو يتجه نحو المنصور – على عادة الشعراء القدامى الذين كانوا يصفون الراحلة وما يعانونه من متاعب للوصول الى الممدوح حتى قال :

فحطت بمغنى الجود والمجد رحلها ... وألقت بربع المكرمات عصاها

لدى ملك احدى لواحظ طرفه ... بعين الرضا حسب المنى وكفاها

هو الحاجب المنصور والملك الذى ... سعى فتعالى جده فتناهى

سليل الملوك الصيد من سرد حمير ... توسط فى الأحساب سمك زراها

لباب معاليها وانسان عينها ... وبدر دياجيها وشمس ضحاها

معظمها منصورها وجوادها ... وفارسها يوم الوغى وفتاها

ووارث ملك أثلته ملوكها ... وجامع شملى مجدها وعلاها

نماه لفود الخيل تبع فخرها ... وأورثه سبى الملوك « سباها »

ذوو الملك والتيجان والغرر التى ... جدير بها التيجان أن تتباهى(٩)

لقد هزت هذه القصيدة أعطاف المنصور فوجد فى هذا الفتى الناشىء طلبته ، فاجزل له العطاء حتى تجود قريحته بحر الشعر ، وبديع الوصف ، لكن حساده كادوا له عند المنصور واتهموه بالسرقة والانتحال وأرادوا ابعاده عن بلاط المنصور حتى لايفسد عليهم صلتهم به ، وحتى يظفروا هم بخيره ورفده ، فيذكر الحميدى (١٠) « أن المنصور عرض عليه بعض الموضوعات ليقول فيها شعرا ، فارتجل القسطلى شعرا فى

---

(٩) ديوان ابن دراج القسطلى ص ١٠ المصدر السابق ·

(١٠) انظر الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٠٣ ، ١٠٤ تحقيق محمد بن تاويت الطنبخى ط السعادة مصر ١٩٥٣م ·

كل ما اقترح عليه المنصور من موضوعات فأعطاه المنصور مائة دينار ذهبا ، وضمه الى ديوان الشعراء ، وأجرى عليه الرزق ٠

ويزداد المنصور حبا لابن دراج ، ويرى ابن دراج بذكائه ذلك فى ملامح المنصور فيعمق ذلك الاحساس لدى ممدوحه ، فيرتجل قصيدة أخرى فى نفس المجلس يقول فيها :

حسبى رضاك من الدهر الذى عتبا   وعطف نعماك للحظ الذى انقلبا
يا مالكا أصبحت كفى وما ملكت   ومهجتي وحياتى بعض ما وهبا

ثم يذكر ذلك الاتهام الذى وجه اليه ، ويعرض بجسارة وشانئيه، ويتهمهم بالدس والخديعة ، ويعلن لهم أن هذه الشائعات ظلام بدده اشراق النور ، وأن أقوال هؤلاء الوشاة ذهبت هباء فيقول :

ودسسوا لى فى مثنى حبائلهم   شنعاء بت بها حران مكتئبا
من بعد ما أحزم الواشون جاحمة   كانت ضلوعى وأحشائى لها حطبا
حتى هزت فلا زند القريض كبا   فيما لدى ولا سيف البدنة نبا
وأشرقت شاهدات الحق تنشر لى   نورا غدت فيه أقوال الوشاة هبا

ثم يقول انه ليس بدعا فى نوعه ، وليس فريدا فى جنسه فان كبار الشعراء قد أصابهم من ذلك ما أصابه ، لقد تربع امرؤ القيس على عرش القريض وعزف الأعشى على قيثاره ، وعلى الرغم من ذلك فقد وجه اليهما الحاسدون كثيرا من التهم التى هم منها براء فيقول :

ولست أول من أعيت بدائعه
فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا
ان امرأ القيس فى بعض لمنهم
وفى يديه لواء الشعر — ان ركبا

والشعر قد أسر الأعشى وقيده

دهرا وقد قيل والأعشى اذا شربا

وكيف اظمأ وبحرى زاخر فطنا

الى الخيال من الضحضاح قد نضبا

فان نأى الشك عنى أوفها أنذا

مهيا لجلى الخير مرتقبا

عبد لنعماك فى كفيه فجر هدى

سار لمدحك يجلو الشك والريبا

ان شئت أملى بديع الشعر أو كتبا

أو شئت خاطب بالمنثور أو خطبا

كروضة الحزن أهدى الوشى منظرها

والماء والزهر والأنوار والعشبا

أو سابق الخيل أعطى الحضر متئدا

والشد والكر والتقريب والخببا (١١)

وهكذا أخذ بن دراج طريقه الى قلب المنصور وبلاطه ، فألحقه بديوان الانشاء وقربه اليه ، لقد أصبح ابن دراج من أكبر شعراء المنصور ، فقد مدحه بروائع قصائده وسجل أمجاده وانتصاراته ، وعلى أية حال فقد شق شاعرنا الفتى طريقه فى بلاط المنصور الحاجب العامرى ، وأتيحت له الفرصة للانشاد بين يديه ، وكان ذلك - وحده - كسبا عظيما بالنسبة اليه ، فقد كانت سدة المنصور تزدحم بالشعراء وتغص بالنقاد الذين ماوفد عليهم شاعر او أديب الا تعقبوه بالنقد

---

(١١) ديوان ابن دراج اقسطلى ص ٣٦٣ المصدر السابق .

والتجريح ، وقد كان ابن دراج عندئذ فى غضاضة الشباب اذا قسناه بمن كان فى بلاط المنصور من فحول الشعراء ويكفى مع ذلك أنه استطاع أن يلفت اليه أنظار الجميع فاقبلوا يتساءلون : من أين نجم عليهم هذا الشاب الناشىء الذى أتى يزاحم جلة الشعراء الواقفين على باب المنصور واستطاعت ألسنة السوء أتراه منتحلا لشعر غيره ، متلبسا بغير ثوبه » ..

ثم يقول محقق الديوان « ونحن نعلم كيف كان المنصور على الرغم من كثرة غزواته ، واتصال جهاده واضطلاعه بأعباء الحكم — محبا للعلم مؤثرا الأدب مفرطا فى اكرام من ينتسب اليهما ، ويفد عليه متوسلا اليهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ، ومشاركته فيهما واذا كان كما يقول ابن بسام « غير ذى تحرير ، ولايصر بالنقد مشهور » وهو حكم يبدو لنا بالغ القسوة ، فانه لم يكن يسمح لشاعر بالمثول بين صفوف حاشيته من أهل الأدب الا بعد أن يجرى عليه اختبارا قاسيا شديدا » (١٢) .

المنصور بن أبى عامر :

والحديث عن ابن دراج القسطلى يتطلب الحديث عن المنصور بن أبى عامر ودوره فى اثراء النهضة الادبية والشعرية بالأندلس ، لأن معرفة هذا الجانب ضرورية لفهم شعر ابن دراج فهو الحاجب المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر محمد بن الوليد بن

---

(١٢) د. محمود على مكى مقدمة ديوان ابن دراج ص ٤١ المصدر السابق .

يزيد بن عبد الملك المعافرى (١٣) فهو من قبيلة يمنية الأصل ينسب الى قبيلة معافر اليمنية ، وقد كان جده الأعلى أحد الجنود العرب الداخلين الى الأندلس ابان الفتح الاسلامى لها على يد طارق بن زياد ، وقد ذكر المؤرخون له أن جده أظهر كفاءة فائقة مما كان سببا فى منحه اقطاعات جليلة فى جنوب الأندلس ، واستمر أبناؤه من بعده فبرز منهم القضاة والعلمـــاء ، والولاة ، وكان والده عبد الله من رجال العلـــم والدين ، ووالدته كانت من أسرة عربية معروفة بقرطبة ، فحاز الشرف بطرفيه : حتى قال فيه ابن دراج

تلافت عليه من تميم ويعــرب	شموس تلألأ فى العـلا وبدور
من الحمير بين الذين أكفهــم	سحائب تهمى بالندى وبحـور

عاش المنصور بن أبى عامر فترة ازدهار الحكم الأموى فى الأندلس فقد ولد سنة ٣٢٨هـ ورحل الى قرطبة يطلب العلم بها ، وكانت قرطبة حينئذ مقرا للحكم الأموى الذى دام زهاء ثلاثة قرون كان القـرن الرابع الهجرى على قمتها ، واستطاع الخليفة الناصر والمستنصر أن يقيمـا دولة قوية تعتمد على العلم والمعرفة يســـندها جيش قوى يحمى ثغورها ، ويدافع عن حياضها ، لقد أسهم حكام الأمويين فى الأندلس فى ارســاء نهضة علمية وثقافية ، وأخذت بحظ وافر من العلوم والمعارف ، حتى انها بذت ـ أحيانا ـ بغداد فى نهضتها وحضارتها ، أو اننا نقـول ان كلا من الأندلس وبلاد المشرق قد تمثلت روح الاســـلام الذى يدعو الى

(١٣) الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص٥٦ تحقيق د. احســـان عباس بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٩م وانظـر نفح الطيب جـ ١ ص ٣٩٦ تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٨ ، وانظر المغـرب فى حلى أهل المغرب جـ ١ ص ١٩٩ تحقيق د. شوقى ضيف دار المعارف .

العلم ، ويحث على طلب المعرفة ، فكان ذلك الرصيد الضخم من المعارف الذى مازلنا حتى اليوم نعيش عالة عليه .

وكان السبب المباشر فى نهضة الأندلس هؤلاء العلماء الذين رحلوا منها الى الشرق يقطفون من ثماره ، وينهلون من بحاره ، لقد كان هؤلاء العلماء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم ، ثم يعودون ، ليشيعوا ماتعلموه بين أهليهم ، وفى أرجاء وطنهم .

ولم تكن عملية التأثر قاصرة على العلماء والأدباء الذين رحلوا إلى المشرق ، فقد ذهب جمع غفير من العلماء والأدباء ورجال الفن الى الأندلس رغبة منهم فى الاقامة بها ، والحصول على رفد أمرائها .

والقارىء لشعر الأندلس فى الفترة الأولى يجده لايختلف فى شكله أو مضمونه عن شعر فحول شعراء المشرق من أمثال أبى تمام والبحترى ، وهذا ماجعل الدكتور شوقى ضيف يقول : « ونحن لانبالغ اذا قلنا بأن شخصية الأندلس فى الأدب العربى ليست من القوة كما ينبغى ، وخاصة اذاء أهملنا جانب البيئة ، فمما لاشك فيه أن هذا الجانب أثر أثرا واضحا فى طبيعة الأدب الأندلس شعره ونثره ، غير أننا اذا تركنا هذا الجانب لم نكد نجد شيئا آخر ، فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق نحو تقليد المشارقة بكل مافيه ، وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة ، أما بعد ذلك فصورته كله بما فيه من أفكاروأخيلة وأساليب هى الصورة المشرقية ، ونحن لانغلو اذا قلنا ان الأدب الأندلسى مدين فى نهضته للتراث العربى العام ، وهو تراث كان مشتركا بين الاقاليم العربية كلها لايختص به اقليم دون اقليم وكانى بالأندلس لم تجد من الوقت ماتتعمق به الثقافة الرومانية التى

تثقفتها قديما على الرغم من اتخـــاذها اللاتينية ، فلما جاء العرب لـم يجدوها تحرز تراثا لاتينيا واســـعا تستطيع أن تحتفظ به لنفســها ، وتدمجه فى التراث العربى العام ، وما أرانى أبعد اذا قلت ان الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها فى ذلك شـأن الأقاليم الأخرى » (١٤) ٠

وقد نكون ظالمين للشعر الأندلسى ان نحن وافقنا الدكتور شوقى ضيف على تلك النتائج التى خرج بها من دراسته للشعر فى الأندلس ، ذلك أن الشعر العربى وان كان وعاء عاما استخدمه جميـــع المتحدثين باللغة العربية الا أن كل اقليـم طبعه بطـابعه المميز ، ووسـمه بميسمه الخـــاص ، والأندلس صنعت أكثر من ذلك اذ أن شـــعرها كانت له خصائص تختلف فى كثير عن خصائص الشعر العربى التى تفردت بها عن سائر المناطق ٠

ولكن الأمـر الذى يجب أن ننبه اليه هو أن شـــخصية الشـــعر الأندلسى لم تتضح معالمها ، ولم تتكشف اتجاهاتها الا فى فترة متـأخرة حين استقر للأمويين الملك وثبتوا دعائم دولتهم ، واتخذوا لهم بلاطا فى قرطبة يشبه بلاط الرشيد والمأمون فى بغـــداد عندئذ أخذ الشـــعراء والكتاب يطرقون بابهم ، ويغشون جنابهم ، وقد كان ذلك واضحا ابان القرن الرابع الهجرى ٠

كذلك فنحن لانوافق الدكتور أحمد هيكل الذى قـرر فى دراسته

---

(١٤) د٠ شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤١٢ طبعة دار المعارف ٠

للأدب الأندلس أن التجـــديد بدأ فى شـــــعر الأندلس مـــع بداية التجديد لدى العباسيين ، ذلك أن ظهور الخمريات فى الشعر الأندلسى والطبعيات والزهديات كان تقليدا للشعراء العبـاسيين الذين ثاروا على المقدمة الطللية ، فبدأوا قصائدهم بوصف الخمر ، والقـــارىء لكـل الأشعار التى قيلت فى الفترة المبكرة يرى فيهـا أثـرا واضحا للتقليد ، فالشعراء مازالوا يرتبطون ارتباطا وثيقا بالشرق ، ولم تؤثر فيهم تلك البيئة الجديدة التى نزحوا اليها ، ونحن لن نستطيع توجيه اللوم لهم على ذلك فالانسان لا يتأثر ببيئته الجديدة لاول وهلة ، وانما يأتى التأثير بعد فترة طويلة ، وهذا ماحدث للأدب الأندلسى ٠

وعلى أية حال فقد عاش المنصور بن أبى عامر فترة ازدهار الأدب الأندلسى ، أو قل فترة ارتقاء العقلية الأندلسية وبلورتها ، واستطاع أن يتخذ له بلاطا مشـــابها لبلاط سيف الدولة الحمدانى ، أو لبلاط البرامكة ، بل انه نافس الخليفة سلطانه فاقام لنفسه قصرا ينزل فيه ، فبنى مدينة الزاهرة على نهر قرطبة على غرار مدينة الزاهرة التى بناها الحاكم المستنصر ، وبالغ فى رفع أسوارها ، وحشد الصناع وجلب اليها الآلات وانتقل اليها عام ٣٧٠ هـ بأسلحته وأمواله وعلمائه ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال ، وتوسع مع الأيام فى تشييد بنيتها ، وكتب أن يحمل اليها الجبايات وأقام الشرطة على بابها فقصدها أصحاب الولايات وأصحاب الحاجات ، وهكذا عطل قصر الخليفة بعد أن أشاع أن الخليفة فوض اليه النظر فى أمر الملك وتخلى لعبادة ربه » (١٥) ٠

« كان المنصور بن أبى عامر ذا عقل ورأى وشجاعة وبصر بالحروب ، وقد حدثه طموحه بالتغلب على هشام ، فاتخذ الدماء طريقا الى ذلك ،

---

(١٥) انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٤٠٢ المصدر السابق ٠

حتى غلب على هشام ، ومنع الوزراء من الوصول اليه الا فى النادر من الأيام يسلمون عليه وينصرفون » (١٦) .

وكان الرجل محبا للجهاد كثير الغزوات حتى قيل ان غزواته بلغت اثنتين وخمسين غزوة (١٧) وأنه كان يغزو كل عام مرتين مرة فى الشتاء وأخرى فى الصيف ، ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم يهزم قط فى حرب شهدها ، أو يعود بدون غنائم وسلاب ، وكان جوادا كثير البذل وله فى ذلك قصص كثيرة .

« ولقد كان المنصور بن أبى عامر أديبا شاعرا محبا للعلوم مؤثرا للأدب . وكان يبالغ فى اكرام من يقبل عليه من العلماء والأدباء والشعراء ، وجوده مع أبى العلاء صاعد اللغوى البغدادى حين قدم عليه سنة ٣٨٠ هـ مشهور ، ومن ذلك أنه اتخذ له مرة قميصا من رقاع الخرائط التى كانت تصل اليه فيها الأموال منه ، وجعل ذلك حيلة الى بلوغ الغاية من كرمه ، ولقد ألف له أبو العلاء صاعد كتبا غريبة فى السياسة والأدب على غرار كليلة ودمنة »(١٨) .

عاش المنصور بن أبى عامر حياة حافلة بالجهاد والكفاح فى جانب وزاخرة بمجالس العلماء والشعراء والاغداق عليهم من جانب آخر ، وقد اشتد على المنصور علته التى اختلف الأطباء فى تشخيصها ، فلقى ربه فى شهر صفر ، وقيل فى شهر رمضان سنة ٣٩٢ هـ ودفن بمدينة سالم فى أقصى شرق الأندلس ، وذلك عند منصرفه من بعض غزواته ، وقد دام

---

(١٦) د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ٨٦ ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٦

(١٧) انظر فتح الطيب جـ ١ ص ٤٠٢ المصدر السابق .

(١٨) د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ٨٨

ملكه ستا وعشرين سنة كلها جهاد وكفاح من أجل الاسلام والمسلمين » (١٩) ٠

ولقد أوصى المنصور ابنه بقوله « يابنى لست تجد أنصح لك منى تعدين مشورتى فقد جردت له رأيى فاجعلها مثالا بين يديك ، قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وخلفت جباية تزيد على ماينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الانفاق ، ولا تقبض لظلمة العمال فيختل أمرك سريعا ٠٠٠ والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن الى لين الجنية ٠ وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه والآفة ممن يتولاه، ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأصحابك شىء بقيكم الحنث فى يمين البيعة الا بما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه فانى أرجو أنى واياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة » (٢٠) ٠

ولعل القارىء لهذه الوصية يرى تحامل ابن بسام عليه عندما قال « غير ذى تحرير ولا بصر بالنقد مشهور » فان الوصية تنم عن سعة أفق ودقة بيان ٠

واذا أردنا أن نتعرف على دور الشعر فى بلاط المنصور فعلينا أن نرجع الى القرن الرابع الهجرى لنتبين ملامح النهضة الشعرية والأدبية

---

(١٩) انظر فتح الطيب ج ١ ص ٣٧٣، ـ ٣٧٦ المصدر السابق ٠
(٢٠) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٧٦ ـ ٧٧ المصدر السابق ٠

ابان حكم الأمويين ، ولعلنا لانبالغ اذا قلنا ان ارتقاء الشعر في هذا القرن ، وعناية الحكام به ، وحفاوتهم بالشعراء والأدباء جعل الأندلس تنعم بنخبة كبيرة من هؤلاء الشعراء فابن هانىء الأندلسى وابن خفاجة وابن شهيد وابن دراج ومن بعدهم ابن زيدون ، وكثير غيرهم من أعلام الشعر والأدب .

ولقد كان المنصور كما أسلفت حاجبا او وزير للمستنصر ، ثم لابنه هشام الذى تولى الخلافة بعد أبيه ولما يبلغ العاشرة من عمره ، فكان لابد والأمر كذلك من اقامة بلاط خاص به يستقبل فيه الأدباء والشعراء والعلماء ، وقد كان المنصور بطبيعته محبا للعلم والأدب فقد كان له مجلس علم يضم كبار علماء عصره ، وكان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضرها هو مدة اقامته بقرطبة ، وكتب التراجم تذكره ذلك ، وتذكر أيضا أنه استقبل اللغوى المشرقى الأديب صاعدا البغدادى الذى وفد الى الأندلس ابان حجابته (٢١) ، وهو فى ذلك وصاعد البغدادى هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى البغدادى أبو العلاء عالم بالأدب واللغة قصاصا من الكتاب الشعراء ، وله معرفة بالموسيقى والغناء ولد بالموصل ونشأ ببغداد وانتقل الى الأندلس يتشبه بالخليفة الناصر الذى استقبل أبا على القالى صاحب الأمالى الذى قيل انه أملاه بالأندلس ، فاذا كان الناصر قد استقبل العالم اللغوى الأديب أبو على القالى فانه لايقل عنه حبا للعلم واللغة فى استقباله « صاحب البغدادى » .

ونحن نلاحظ أن سائر الحكام الذين كانوا يفتحون قصورهم للشعراء ويجزلون لهم عظيم العطاء كانوا يصنعون ذلك من أجل الاشادة

---

(٢١) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٨ ـ ٩ المصدر السابق .

بأمجادهم ، وتسجيل مفاخرهم ، ولم يكن استقبالهم للشعراء نتيجة حبهم للشعر فحسب ، والمتتبع للتاريخ العربى يرى ذلك واضحا جليا ، فعمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة ، وقالوا له ان الشعراء بالباب قال : مالى وللشعراء فهو لايريد افتخارا بعمل يعلمه من أجل الرعية . وانما يترك ذلك لله سبحانه وتعالى ، أما سائر الحكام فانهم بحاجة الى أبواق تذيع ما يقدمون به من انتصارات ، وتسجل مايحدث لهم من أمجاد صنع ذلك أبو تمام والبحترى والمتنبى الذى كان يسير مع سيف الدولة فيسجل انتصاراته على الروم ، وديوان المتنبى حافل بذلك ، والمنصور واحد من أولئك الحكام الذين أرادوا من الشعراء أن يكونوا ألسنة دعاية لهم ، فوقف الشعراء والأدباء ببابه ، ووفدوا عليه من شتى البلاد يمدحونه فيثيبهم على مدحهم ، وقد كان الرجل جوادا مع هؤلاء الشعراء والا لما وجدنا هذه الكثرة الطائرة التى تزاحمت على بابه ، وقد ذكرت كتب التراجم (٢٢) أمثلة كثيرة على كرمه ووجوده فقد قيل ان المنصور أراد ختن أولاده فختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبى ، ومن أولاد الضعفاء عدد لاينحصر ، فبلغت النفقة عليهم فى هذا الاعذار خمسمائة ألف دينار .

والمحلل لهـــذا الخبر يتبين له أن النفقة لم تكن لمن ختنوا هؤلاء الأولاد ، وانما كانت لتلك المآدب التى أقيمت ، والحفلات التى كانت حافزة لهمم الشعراء أن يقولوا فيها روائع شعرهم ، وأن تضاف تلك الروائع الى أمجاد المنصور العسكرية .

---

(٢٢) انظر نفح الطيب ج ١ ص ٥٩٦ المصدر السابق .

ولقد قيل ان المنصور صحب فى احدى غزواته أربعين (٢٣) شاعرا من طبقات مختلفة غير أن كتب التراجم لم تذكر لنا أسماءهم وأشعارهم وطرفا من أخبارهم غير أنها وعت لنا أسـماء الأعلام منهم كابن دراج القسطلى والرمادى ، والوزير الحاجب المصحفى عبد الملك الجزيرى ، والأديب اللغوى المشرقى صاعد البغدادى » ٠

لقد نهض الأدب فى زمن المنصور حتى صار حلية الشباب وزينة المنشأة الأندلسية ٠

نظرة فى ديوان ابن دراج :

بعد هذه اللمحة التى ألمحناها عن حياة المنصور بن أبى عامر مخدوم ابن دراج كان علينا أن نعود أدراجنـا نحو ابن دراج ننظر فى ديوان شعره : أغراضه وخصائصه الفنية ، فهى المهمة الأولى لهذا البحث ، وقد عرفنا أن ابن دراج أصبح شاعر المنصور بن أبى عامر يمدحه ، ويسجل انتصاراته ، وظل كذلك حتى وفاة المنصور ، بل انه استمر فى خدمة ابنه المظفر عبد الملك حتى نشبت الفتنة ، ودالت دولة بنى أمية ، وكان ابن دراج صاحب خلق ودين لايتتبع سوءات الناس جادا حساسا ، وقد انطبع كل ذلك على شعره الذى يتقلب فيه بين المدح والرثاء والوصف ، أما الهجاء فقد قل فى ديوانه لأنه ابتعد عما يغضبه أو يغضب الآخرين منه اللهم الا ما كان من لوم أولئك القوم الذين رموه بالانتحال والسرقة فى أول عهده ببلاط المنصور بن أبى عامر ٠

وقصائد المدح عند ابن دراج تسير فى ثلاثة اتجاهات :

المقدمة وقد سار فيها على عـادة الشـعراء القدامى الذين بدأوا

---

(٢٣) د٠ أحمد هيكل ٠ الأدب الأندلسى ص ٢٨٢ المرجع السابق ٠

قصائدهم بالغزل ، أو بوصف الراحلة ، يقول ابن دراج فى افتتاحية قصيدته التى يعارض بها قصيدة أبى نواس :

أجـــارة بيتينـــا أبوك غيــور
وميسور ما يرجى لديك عســـير (٢٤)

يقول :

دعى عزمات المستضـــام تســـير
فتنجد فى عرض الفــلا وتغور
لعل بما أشـــجاك من لوعة النوى
يعـز ذليل أو يفك أســـير
ألم تعلمى أن الثـــواء هو النـوى
وان بيوت العـــاجزين قبـور (٢٥)

فهو يذكرنا بعروة بن الورد الذى لامته زوجة عندما أراد السعى وراء الغنى فقال لها ان المجتمع لايعترى بالفقير ، فهو يحصى عليه أخطاءه وبلاته فقال :

دعينى للغنى أســـعى فانى
رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعـــدهم وأهونهم عليه
وان أمسى له حسب وخير

---

(٢٤) ديوان أبى نواس ص ٤١٧ برواية الصولى تحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثى ، دار الرسالة للطباعة ١٩٨٠.

(٢٥) ديوان ابن دراج القسطلى ص ١٣ ــ ١٤ تحقيق محمود على على المصدر السابق ، الثواء : الاقامة . النوى : الهلاك .

ويقصـــيه الندى وتزدريه

حليلته وينهـــره الصـــغير

ويلفى ذو الغنى وله جـــلال

يكاد فؤاد صـــاحبه يطير

قليـــل ذنبـــه والذنب جم

ولكن للغنى رب غفـــور (٣٦)

فهو يرفض الحياة الخاملة ، ويطلب المغـــامرة ، ثم هو يواسى زوجه بقوله لها لعل آلامك التى تعانيها من لوعة الفراق ، وألم البعـد يخففها ما نجنيه من ورائها ، بل لعلنا نخفف بما نحصل عليه من خير آلام المحرومين ، فنبدل ذلة قومنا عزا ، وفقرهم غنى ، ان الاقامة فى مكان واحد هى الهلاك بعينه ، ان العاجزين لايقيمون الا فى قبور تضم أجسادهم ، أو بيوت شبيهة بالقبور فى خرابها وظلمتها .

ويستمر ابن دراج فى الحديث عن زوجه فيعتذر لها ، أو بالأحرى يسجل آلامها النفسية ساعة الوداع فيقول :

ولـما تدانت للوداع وقد هفا

بصـــــدرى منهـــا أنة وزفير

تناشـــدنى عهد المودة والهوى

وفى المهد مبغوم النداء صـــغير

عيى بمرجوع الخطاب والهـــوى

بموقـــع أهـــواء النفوس خبير

---

(٣٦) ديوان عروة بن الورد ص ٢٤ ط دار صادر ، بيروت .

تبوأ ممنوع القلوب ومهـــدت
له أذرع محفـــوفة ونحـــور

فكل مفــداة الترائب موضـــع
وكل محيـــاة المحـــاسن ظـير

عصيت شـفيع النفس فيه وقادنى
رواح لدأب السرى وبكـــور

وطار جناح البين بى وهفت بهـــا
جوانح من ذعر الفـــراق تطير

لئن ودعت منى غيـــورا فاننى
على عز متى من شجوها لغيور (٢٧)

لقد نقل لنا ابن دراج لحظة الوداع ، وصورها تصويرا ينم عن قدرة فنية بارعة استمع الى أنات صدر زوجه ، وسرعة أنفاسها المتتابعة، وهى تناشده عهد المودة والهوى أن يرجع عما اعتزمه ، وأن يقيم الى جوارها يرعى أولاده ، وخاصة أن فيهم طفلا صغيرا هو بحاجة الى عطفه ورعايته ، ثم يصور لنا محاولة اثنائها اياه عما اعتزمه ، فهى تضع بين يديها طفلا صغيرا لايستطيع الكلام ، ولكن نظراته اليهما تنم على أنه خبير بأهواء النفوس ، لقد تبوأ هذا الطفل مكانا لايتبوأه غيره ، فهذه الرعاية التى حظى بها ، وتلك الأيدى التى أحاطت به ، والصدور التى حملته ، والمرضعات التى عنيت به كل ذلك ألا يكون جـــديرا بحبك وحنانك ، وبعطفك ورعايتك لكنه ازاء هذا الأمر الذى اعتزمه لايستجيب لتوسلاتها • لقد انطلق الى غايته لايلوى على شىء ، ولكنه فى الوقت نفسه يكاد يتمزق حسرة والما على فراقها ، انه ليس أقل منها شجوا •

---

(٢٧) ديوان ابن دراج القسطلى من ص ١٣ ـ ١٤ المصدر السابق•

وهنا يجد نفسه بحاجة الى ذكر ما تجشمه من مخاطر حتى وصل الى بلاط المنصور ، وهو الاتجاه الثانى ، وهى صورة مأخوذة من الشعر القديم - أيضا - فلئن كان الشاعر الجاهلى وصف ناقته التى ركبها للوصول الى ممدوحه ، وما عاناه واياها من مشاق وأخطار فان ابن دراج وصف تلك الأخطار التى واجهته ، والمفازات التى قطعها حتى وصل الى بلاد الأندلس ، وها هو يخاطب زوجه فيقول :

ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى
على ورقراق السراب يمور

أسلط حر الهاجرات اذا سطا
على حر وجهى والأصيل هجير

وأستنشق النكباء وهى لوافح
وأستوطىء الرمضاء وهى تفور

وللموت فى عين الجبان تلون
وللذعر فى سمع الجرىء صفير

لبان لها أنى من الموت جازع
وأنى على مض الخطوب صبور

أمير على غول التنائف ما له
اذا ربع الا المشرفى وزير

ولو بصرت بى والسرى جل عزمتى
وجرس لجنان الفلاة سمير

وأعتسف الموماة فى غسق الدجى
وللأسد فى غيل الغياض زئير

وقد حومت زهرة النجوم كأنها
كواكب فى خضر الحدائق حور

ودارت نجوم القطب حتى كأنها
كؤوس مهـــا والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة أنهـــا
على مفـرق الليـل البهيم قتـير
وثاقب عزمى والظـلام مروع
وقد غض أجفان النجوم فتور
لقد أيقنت أن المنى طوع همتى
وأنى بعطف العـــامرى جـدير (٢٨)

هذه صورة أخرى نقلها ابن دراج الى سامعيه كي يعطفوا عليه ، أو يخففوا من هجومهم ، أو يستدر بها عطف المنصور بن أبى عامر ، أو قل انه أراد بها التخفيف عن آلام الفراق التى أصابت زوجه ساعة رحيله ، أو بعد غيابه عنها ، فهو يقول لها : ان المعاناة الرهيبة التى عاناها جديرة بأن تجعلك تخففين من أشجانك ، وتعلمين أن الخطب جلل ، وأن الأمر جد خطير فما أنت فاعلة لو أنك كنت معى وأنا أسير فى شدة الهاجرة ، انها نار تلظى ، لقد بدا لى السراب وفراقا ، وأنا أسلط حر الهاجرات على حـــر وجهى ، وأقابل زفرات الهجير ، فهو يستنشق الرياح اللوافح ، ويستوطىء الرمضاء ، ان الذين يسيرون فى مثل هذه الظروف عليهم أن يتصوروا الموت وهو يتلون لهم كما تتلون الحرباء ، ولابد أن يحسوا مرارة الذعر ، أو أصواته تسد آذانهم وتصك مسامعهم ، لو أنك تصورت ذلك لعلمت أننى لم أكن مختارا لفراقك والبعد عنك وانمـــا دفعنى الى ارتكاب الأهوال ، وتحمل الصعاب ما تعانيه من فقر وحرمان .

---

(٢٨) ديوان ابن دراج المصدر السابق .

ويستمر ابن دراج يصف ما صادفه من مخاطر حتى يخلص الى مدح المنصور بن أبي عامر بقوله :

لقد أيقنت أن المنى طوع همتى وأنى بعطف العامرى جدير

وهذا هو الاتجاه الثالث فى قصيدة ابن دراج ، وأقل فى قصائده التى مدح بها المنصور فكلها تسير على نفس النهج يقول فى مدح المنصور :

مجير الهدى والدين من كل ملحد
وليس عليه للضلال مجير

تلاقت عليه من تميم ويعرب
شموس تلاقى فى العلا وبدور

هم يستغلون الحياة لراغب
ويستصغرون الخطب وهو كبير

ولما توافروا للسلام ورفعت
عن الشمس فى أفق الشروق ستور

وقد قام من زرق الأسنة دونها
صفوف ومن بيض السيوف سطور

رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها
وآيات صنع الله كيف تنير

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس
وقام بعبء الراسيات سرير

فجاءوا عجالا والقلوب خوافق
وولوا بطاء والنواظر صور

يقولون والاجلال يخرس ألسنا
وحارت عيون ملؤها وصدور

لقد حاط أعلام الهدى بك حائط
وقدر فيك المكرمات قدير (٢٩)

فهو يمدح المنصور بأحب مايمدح به قائد أو عظيم : انه مجير الهدى والدين من كل ملحد فهو قائم على شئون الملك يحمى ساحته من أن تمس وذلك بجهاده وحروبه ضد الفرنجة ، وهو قائم على شئون الدين بحمية من كل ملحد وخارج ، ولايستطيع أحد أن يجيره من محاربة الضلال ، وكأنه لمس المعنى الذى لمسه خليفة رسول الله : الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه . فهو يجير الدين من كل خارج عليه ، وليس عليه مجير للضلال ، فهو يقاوم الضلال ، ويضرب على أيدى الخارجين على تعاليم الدين .

ثم يذكر لنا صورة لممدوحه ، وقد تجمع الناس عليه ، وأراد القوم من تميم ويعرب أن يستغلوا نفوذه لصالحهم انهم يريدون منه أن يحيا حياتهم ، لكنه بعيد عن ذلك ، فقد رغب عن الحياة ، وهانت عليه الدنيا وود لوأن المنية عاجلته وهو يجاهد فى سبيل الله ، ومن هنا فقد كان عظيما فى نظر الجميع ، لقد تمثلت عظمته يوم أن أتى القوم للسلام عليه فخرج عليهم يشع ضياء ، ويعم المكان نورا ، انها الشمس التى ما ان تظهر حتى تتبدد الظلمات ، وتغيب الأقمار ، وزيادة فى تعظيم ممدوحه فقد جعله شمسا حقيقية لكنها تحيط بها اسنة الرماح ، وتلتف حولها بيض السيوف ، انها هالة عظيمة صنعتها طاعة الرحمن ، فان المنصور عندما أطاع ربه اعتز بهذه الطاعة فزاده الله اشراقا ونورا ، لقد تحكم المنصور فى البر والبحر ، وأحاط بجميع أطراف مملكته ، وعندما رأى الناس ذلك أسرعوا اليه يلبون أمره ، ويطيعون حكمه ء انهم أتوا اليه

---

(٢٩) ديوان ابن دراج المصدر السابق .

كي يروا هذه العظمة ، ويستيقنوا من قوة المنصور نرجوا وألسنتهم لاتكاد تبين . لقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ولسان حالهم يقول :

لقد حاط أعلام الهدى بك حائط وقد رفيك المكرمات قدير

ولعل هذا المدح قد أعجب المنصور ، فهو ليس مدحا بكرم الأحساب والأنساب كما صنع في قصيدته الأولى التى قالها يوم أن قدم على المنصور ، وانما هو مدح ينم عن عمق وبصيرة بما للممدوح من مكرمات انه شبيه بمدح عبد الله بن قيس الرقيات لمصعب بن الزبير عندما قال فيه .

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عز ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

وهذا المدح هو الذى يحبه الملوك والعظماء ، لأنه يخلد مآثرهم ويرفع بين الأنام شأنهم لكننا نجده أحيانا يتخذ طريقا أخرى للمدح : فقد أشيع أن الخليفة هشام بن المستنصر أراد أن يتفرغ للعبادة فى شهر رمضان : فقال قصيدة يمدح فيها الخليفة ، ويصف روضة سوسن فى شهر شعبان :

جهز لنا فى الأرض غزوة محتسب

واندب اليها من يساعد وانتدب

واحمل على خيل الهوى شيم الصبا

واعقد لجيش اللهو ألوية الطرب

واهتف بأجناد السرور وقد بها

نحو الرياض وأنت أكرم من ركب

جيشـــا تكـــون طبـــوله عيـــدانه

وقرونه النـــايات تســـعدها القصب

واهـــزز رمـــاحا من تبـــاشير المنى

واســـلل ســـيوفا من معتقة العنب

وانصـــب مجانيقـــا من النيـــم التى

أحجـــارهن من الرواطـــم والنخـــب

شرقاتهـــا من فضـــة وحنـــاتهـــا

حـــول الأمير لهم ســـيوف من ذهب

متـــرقبين لأمـــره وقـــد ارتقـــى

خلل البنـــاء ومد صـــفحة مـــرتقب

كأمير « لـــونه » قد تطلـــع اذ دنا

عبـــد المليـــك اليـــه فى جيش لجب

فلئن غنمت هنـــاك أمثـــال الدمى

فهنا بيـــوت المســـك فاغنم وانتهب

تحفـــا لشـــعبان جـــلا لك وجهـــه

عوضـــا من الورد الذى أهـــدى رجب

واســـتوف بهجتهـــا وطيب نسيمها

فاذا دنا رمضـــان فاســـجد واقترب

وصـــل الجهـــاد الى الصيام بعـــزمة

من ثـــائـــر يـــرضى الاله اذا غضب

فالنصر مضمـــون على بـــر الهـــدى

وعـــواقب الـــراحات أثمـــار التعب

وارفــع رغـائب مانــويت الى الذى

مــازلت ترفعهـا اليـه فلـم تخب

حتى تشـوب وقد نظمت فـلا نـدا

فـوق المنـابر لا تغيرها الحقـب

بجواهر من فخـر يومك فى العـدى

ينأى بها فى الدهر تيجـان العـرب

فتح تكـاد سـطوره من نـورها

تبـدو فتقـرأ خلف طيـات الكتب

واقبـل هدية عبـدك الراجى الذى

أهـدى اليك الدر من بحـر الأدب (٣٠)

فالقارىء لهذه القصيدة يرى قدرة ابن دراج الفائقة على الوصف.. فقد مزج وصف المعركة بوصف ليلة شراب ، فجاءت المقدمة تحمل كل مامن شأنه امتاع النفس واسعاد القلب ، ولكن فى صـورة معـركة عسكرية بدأها بقوله : هيىء لنا فى الأرض غزوة نحتسب أجرها عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن البيت الثانى يناقض ماقاله فى البيت الأول حيث قال : واعقد لجيش اللهو أعلام الطـرب انه جيش لهو ، وليس جيش غزو ويحتسب أجره عند الله ـ سـبحانه وتعالى ـ بل انه فى الشطر الأول من البيت الثانى يقول : عليك أن تحمل كل متعة وبهجة على خيل الهوى ، وهذا أمـر يدعو الى التعجب ويسـتمر ابن دراج فى وصف مجلس الأنس ، فجنود هذا الجيش جنـود السرور ، وليسـوا جنود العبور ، وقيادتها نحو الرياض لانحو الثغـور ، انه جيش لايدق طبول المعارك ، وانما يؤدى نغمات السعادة والحبور ، فطبوله عيدانه.

---

(٣٠) ديوان ابن دراج القسطلى من ص٣٥ ـ ٣٧ المصدر السابق.

وقرونه النايات ، ورماحه من تباشير المنى ، وسيوفه لاتسل من جرابها ، وانما تسل من معنقة العنب ٠

والقصيدة كلها تسير على هذه الوتيرة ، وسيأتى دورها عند حديثنا عن قدرة ابن دراج الفنية لكن الذى يجب أن ينتبه له القارىء هو أن هشاما ليس من قواد الجيش ورواد المعارك ، وانما أشيع عنه أنه من النساك ، فلعله أراد لمس هذا المعنى ، أو لعله مدح بما يشبه الذم ، فكأنه أراد أن يقول له : ان دورك محصور فى اللهو والطرب فى غير رمضان ، وفى العبادة فى رمضان فدع المعارك الحربية لأهلها فهذا هو المنصور بن أبى عامر يكفيك هذا الشرف ، ويتولى عنك قيادة الجيش فى معارك عسكرية يخوض غمارها ، ويصطلى بنارها ، أما أنت أيها الخليفة فلك دور آخر ٠

نعود مرة أخرى الى افتتاحيات ابن دراج فنرى منهجه فيها ، فقد استطاع بمقدماته أن يبذ أقرانه ، وأن يتفوق على خصومه ، فقد طور الافتتاحيات التقليدية ، أوقل تصرف فيها بذكاء فهاهى ذى أول قصائده التى قالها فى مدح المنصور بن أبى عامر يقول فى مقدمتها :

أضاء لها فجر النهى فنهاها
عن الدنف المضنى بحر هواها

وضللها صبح جلا ليلة الدجى
وقد كان يهديها الى دجاها

ويشفع لى منها الى الوصل مفرق
يهل اليه حليها وحلاها

فيا للشباب الغض أنهج برده
وبالرياض اللهو حف سقاها

(٩ م - ٩)

وماهي الا الشمس حلت بمفـرقي

فاعشى عيون الغانيـات سـناها (٣١)

يصف حال زوجه عند رحيله الى المنصـــور بن أبى عامر ، لكنه يعطينا تصورا لحال زوجه ، وقد اختلطت عليها الأمور ساعة الوداع ، لأن الخطب جلل ، والفراق صعب ، فهى تعلم أنه ما فارقها عن قلى لها ، وأنه ماتركها بغضا أو كرها ، لكن هذه الساعات تختلط فيها الأمور ، وتتعقد الأحداث حتى أن الأهداف الواضـحة تستحيل غامضة وخفية ، والمعالم البارزة تصبح وكأن ظـــلاما دامسا لفها فلا تكاد تظهر ، وعلى الرغم من محاولة اخفـــائها مايعتمل فى نفسها فقد أحسن ذلك منها ، وعلمه علما لا لبس فيه ، والذى يشفع له أنه متأكد من حبهـــا ، فهى لا تريد فراقه أو البعد عنه انهـا تريد أن يكونا قريبين ينعمان بالحياة ، ويسعدان بالشباب ، فما بالكم بهذا الشباب وقد أضحى خلقا باليا . وما بالكم بتلك الرياض وقد جف ماؤها الذى كان يرويها انها لابد أن تتحول الى حالة من الذبول ، وعندما رأى الشمس وقد بدت للنـاظرين فاعشت عيونهم ، وملأ ضوؤها أنظارهم نسى كل شيء ، أو تسلى بها عند فراق أهله وأحبابه .

مقدمة جيدة فيها جدة وحسن تصرف ، وقد يدخل فى الموضـــوع مباشرة دون مقدمات او يقدم للموضوع بذكر النتائج التى تنتظر منه ، فمن قصيدة يمدح بها المنصور بن أبى عامر ،ويذكر تجهيزه الجيـوش الى زيرى بن عطية زعيم قبيلة مغراوة البربرية :

لك الله بالنصر العزيز كفيـــل   أجد مقـــام أم أجد رحيـــل

هـــو الفتح أما يومه فمعجـــل   اليك وأما صـــنعه فجـــزيل

(٣١) ديوان ابن دراج ص ١٠ المصدر السابق .

وآيات نصر ماتزال ولم تزل بهن عمايات الضلال تزول
سيوف تنير الحق أني انتضيتها وخيل يجول النصر حيث تجول
الا في سبيل الله غزوك من نحوى وضل به في الناكثين سبيل (٣٢)

فقد دخل في الموضوع دون مقدمات ، بل انه بشر ممدوحه بالنتائج التى بذ فيها الجميع من غزواته هذه ، بل انه جعل النصر مكفولا له من قبل الله — سبحانه وتعالى — فى حله وترحاله . ويستمر ابن دراج فى تبشير ممدوحه بالنصر المعجل ، والمثوبة عليه يوم القيامة. فهو فتح لمرضاة الله — سبحانه وتعالى — لانه يمحو به الضلال ، ويزيل به الكفر ، فسيوفه رصدت لتوضيح الحق ، بل انها تنير الحق فى أى وقت تقلدها ، وخيله يجول النصر فى جولاتها ، ويختم مقدمته ببيان أن غزوه من غوى وضل ، ورجع عن الدين انما هو غزو فى سبيل الله سبحانه وتعالى . وكأنه بذلك يرد على من يقول لماذا يغزو المنصور خصومه من المسلمين ، ألا يتجه بغزوه الى الروم وهو ماتعوده الناس معه ؟

وأحيانا يجعل افتتاحية قصيدته رجاء من ممدوحه أن يسمح له بانشادها ، فذلك أمر يجعله يتيه عجبا ، لأن وقوفه بين يدى المنصور هو غاية مايرجى ويتمنى يقول :

هل أنت مدرك آمالى فمحييها ومبدلى فى الورى من ذلتى فيها؟
بلحظة تقتضى منى مكارمها هدية لك حاز السبق مهديها
جواهر من بحور العلم ليس لها الا استماعلها قدر يساويها
حتى ترى الطرف فى كرات فارسه والكاعب الرود فى أثواب حاليها

---

(٣٢) ديوان ابن دراج ص ٣ ، ٤ المصدر السابق .

عسى الذين تأوا عنى أخبـــرهم بأن نفسى مبلـــوغ أمانيهـا (٣٣)

فهى افتتاحية نفسية ضمنها أمورا ثلاثة : الأمر الأول أن قبـول الممدوح لهذه القصيدة وانشـــادها بين يديه يحيى آماله ، ويرفـع من شأنه ٠ وهما أمران عمل لهما ابن دراج كثيرا ، ألم يتـرك أهله وولده فى سبيلهما ؟ ألم يتجشم الصعاب والمشاق من أجلهما ؟ فآماله الدفينة سيبعثها قبول المنصور لشعره ، وضعفه وذلته سـيتحولان الى زهـو وفخر أمام الجميع ، ولاينس ابن دراج أن يذكر للممدوح فى هذا الصدد أن مديحه التى يريد انشادها انما جاءت بعد معاناة الشعر ، ومكـابدة له ، فجاءت قصيدته رائعه فى بابها عظيمة فى معناها ومبناها ، وهـو الأمر الثانى الذى أراده ، وقد الح على ذلك كثيرا وكأنه يقول لخصومه وشانئيه انه أقوى منهم شاعرية وأرق منهم نسيجا ، فكلمـاته جواهر من يجود العلم لايساويها قدر الا اســتماعك لها ، وأكبر تقدير لهـذا الشعر أن تستمع اليه ، وتعجب به ، وتطـرب لانشـــاده ، انك ترى ذلك وضحا على حركات منشدها ، وانك ترى فى هذا الشعر الحمـاسة والطرب ، فقد مثل للحماسة بقوله « فى كرات فارسـه » ومثل للطرب بقوله « والكاعب الرود فى أثواب حاليها » فهذا الشعر يتنقل بك من الجد الى اللهو ، ومن القـــوة الى اللين والرخاوة ، وهو أمر لايستطيعه الا فحول الشعراء ٠

أما الأمر الثالث ــ وهو نفسى أيضـــا ــ فقد أراد الشـــاعر به استدرار عطف الممدوح ، وذلك فى قوله : ان قبـولك هذا الشـعر فيه رفع لمعنويات صاحبه ، فقد ترك أهله وولده من أجلك وقد كانوا يريدون اثناءه عن ذلك ، وكأنهم كانوا يقولون له : انك لن تجد لك مكـانا فى

---

(٣٣) ديوان ابن دراج ص ٩ المصدر السابق ٠

بلاط المنصور العامر بالشعراء والأدباء وأين أنت من هؤلاء ؟ فاذا قبلت هذه الشعر فانني سأخبر أولئك الذين ابتعدوا عني أنني قد بلغت آمالي، وحققت ما كانت تصبو اليه نفسي .

وهكذا تأتي مقدمات ابن دراج وقد ضربت في أفانين الشعر فكان جديراً بهذه المكانة التي وصل اليها ، وخليقا بان يأخذ مكانه في بلاط المنصور بن أبي عامر الحافل بالشعراء والأدباء .

الـوصف :

أما الوصف عند الأندلسيين فقد أوفى على الغـــاية ، فقد وصفوا طبيعة بلادهم الغنية بكل مفاتن البهجة ، والحافلة بكل مايعجب النفس، ويبهج القلب ويسر الخاطر ، وقد يقول قائل : ان المشــــارقة كانـوا أساتذة للأندلسيين في فن الوصف فأبو تمــــام والبحترى والمتنبى قد وصفوا فأجادوا ، فقد وصف أبو تمـــام الربيع ، والبحترى كذلك ، ووصف المتنبى شعب بوان وصفا رائعا ، لكننا نقول أن الأندلسيين قد أجادوا في موضوعات أخرى ، « فقد توسعوا في شعر الطبيعة ، ونوعوا موضوعاته توسعا وتنوعا فاق كل اعتبار ، كما أنهم كانوا فيه أكثـــر براعة وابتكارا وتجديدا ودقة تصوير » (٣٤)

« ومرجع ذلك أولا أن طبيعة الأندلس هذه الطبيعة الرائعة الخلابة التي عبرت فيها الأرض عن نفسها أجمل تعبير مما أطلعته على سطحها ونثرته في شتى أرجائها من طيب التربة ، وخصب الخباب ومن الأنهار الغزار ، والعيون العذاب ، ومن البر والبحر والســـهل والوعر ، ومن

---

(٣٤) د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ص٢٩١ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٦

الحقول والبساتين ، والحدائق والرياحين ، ومن الاعتدال الغالب فيها على الهواء والجو والنسيم ، وعلى الربيع والخريف ، والمشتى والمصيف . ومن المدن الحصينة والقلاع المنيعة والمصانع الجليلة واستبحار التمدن والعمران ، ثم من ابيضاض الانسان ، ونبل الأذهان ، وشهامة الطباع » (٣٥)

فالأندلس هي الفردوس الأرضي ، وجنة الدنيا التي نعم بها أهلها دهرا ، وسعد بها سكانها زمنا فكانت كما قال ابن خفاجة :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت ٠٠ هذا كنت أختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار (٣٦)

واليك أيها القارىء ثلاثة نماذج للوصف وكلها في وصف الأزهار : أحدها في وصف النرجس ، والثاني في وصف الورد ، والثالث في وصف السوسن ، وقد وردت في ديوان ابن دراج متتابعة لعلها تشكل صورة فنية للوصف عنده ٠

١ – يقول في وصف النرجس :

شكلا له من راح وروضة نرجس
يتنازعان الشبه وسط المجلس (٣٧)

---

(٣٥) د٠ عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ص٢٩١ المرجع السابق ٠

(٣٦) لاتختشوا : لاتخافوا ٠

(٣٧) الشبه : الشبيه المماثل ٠ والشبه ضرب من النحاس ٠

متبـــاهين تلـــونا بتلـــون

متبـــارين تنفســـا بتنفس

لـكن هنى بين أحشـــاء الفتى

نـــار ، وهـــذا جنـــة للأنفس

فكأنهـــا من حـد ســيفك تلتظى

وكـانه من طيـــب خلقـك يكتسى

يامن عـــلا من رتبـــة فى رتبـــة

حتى غدا وســط النجـوم الخنس

وابن الذين هداهـــم ونهـــاهم

أدب الملـوك وأســوة للمؤتسى (٣٨)

وله أيضا رحمه الله فى الورد :

ضـــحك الزمان لنا فهـــاك وهاته

أو ما رأيت الـورد فى شـــجراته ؟

قد جاء بالنـــارنج من أغصـــانه

وبخجلة المعشـــوق من وجنـــاته

وكســـاه مـولانا غـــلائل سـيفه

يـــوما يسربله دمـاء غـــداته (٣٩)

من بعـــد مانفخ الحيـــا من روحه

فيه وعـــرف المســـك من نفحـــاته

---

(٣٨) ديوان ابن دراج ص ٣٨ ، ٣٩ المصدر السابق .

(٣٩) الغلالة : ثوب يلبس تحت الثوب وتحت الدرع ويجمـع على غلائل .

ان كان أبدع واصف في وصفه

فلقد تقاصر عن بديع صفاته

كمديح سيف الدولة الأعلى الذى

أعيا فاعيا في مدى غاياته

ملك ينير الجود في لحظاته

واليمن والايمان في عزماته

وحياته ان كان أبقى حاجة

لمن ارتجاه غير طول حياته (٤٠)

وله أيضا رحمه الله في السوسن :

ان كان وجه الربيع مبتسما — فالسوسن المجتلى ثناياه

يا حسنه من ضاحك عبق — بطيب ريح الحبيب رياه

اخلق عليه الحسود عاشقه — فاشتق من ضده فسماه

وهو اذا مغرم تنسمه — خلى على الأنف منه سيماه

كما يخلى الحبيب غالية — في عارضى الفه لذكراه

يا حاجبا مذ براه خالقه — توجه بالعلى وحلاه

اذا رآه الزمان مبتسما — فقد رأى كل ما تمناه

وان رآه الهلال مطلعا — يقول : ربى وربك الله (٤١)

ثلاثة الوان من الوصف يقدمها لنا ابن دراج القسطلى : أحدها في وصف النرجس الذى عقد مقارنة بينه وبين الخمر التى تقدم للشربة في مجلس قدم ممدوحه المنصور بن أبى عامر ، فالراح وروضة النرجس

---

(٤٠) ديوان ابن دراج ص ٤٠ ـ ٤١ المصدر السابق .
(٤١) ديوان ابن دراج ص ٤١ ـ ٤٢ المصدر اسابق .

يتنازعان اللون الذهبي الذى يجمعها ، فكــل منهمـا يريد أن يحظى باعجاب الحضور يتباهيان بلونهما ، ويتباريان فى امتـــاع الجالسين ، فاذا كانت الخمر تحدث شعاعا عند صبها فى الاناء فترسل زفراتها الى عقول الشاربين فان النرجس يفوح أريجه فيعم المكـــان ، ويضفى عليه لونا من البهجة والسرور ، وان السرور الذى يجده شـارب الخمر غير السرور الذى يسعد به مستنشق النرجس ، فالخمـر نار فى أحشــاء شاربها تقطع أمخاءه أما النرجس فهـــو جنة للأنفس تتمتـع فيها بكل ألوان السعادة والنعيم ، ويستمر ابن دراج يقارن بين الخمر والنرجس، فالأولى شبهها بحد السيف وكأنهـــا تأخذ حرارتهـــا من حد سـيف المنصور بن أبى عامر ، أما النرجس فيأخذ حليته من طيب خلقه ، وهنا وجد مناسبة لمدح المنصور فقال : انه عالى المرتبة ، فهو نجم بين النجوم العوالى ، وهو ابن الذين تأدبوا بآداب الملوك وتحلوا بأخلاق العظماء ، وجدير بمن يقترب منهم أن يتأسى بهم .

أما المقطوعة الثانية فقد وصف فيها الورد ، وقد استطاع بأسلوب الاستفهام التعجبى أن يلفت انتباه السامع الى جمـال الورد ، ومن من الناس لايروعه منظر الورد ، وقد اختلفت ألوانه ، وســطعت بالعبير أردانه ، لقد نعم الجميع برائحة الورد التى أذكت الجو وكأنه معطـــر برائحة النارنج فنعم الجميع بها ، وسعدوا بشــذاها ، أما براعم الورد فكانت شبيهة بالحمرة التى تبدو على وجنـات المعشوق ، أو شبيهة بالدماء التى ظهرت على سيف ممدوحه بعد أن أعمله فى رقاب أعدائه لقد عمه المطر فنفخ فى روحه فجـــاءت رائحته شبيهة برائحة المسك ، فمهما وصفه الواصفون ، أو أبدع فيه المبدعون فقد تقاصر وصفهم عن بديع صفاته ، انهم حتى الآن لم يقولوا الكلمة الفصل فى وصف الورد

تماما كما حاول المادحون مدح سيف الدولة ـ المنصور بن أبى عامر ـ ولكن صفاته أعيتهم ، وشمائلة غلبتهم ، انه ملك عظيم ينير الجود فى لحظاته ، واليمن والايمان فى عزماته لقد نعم الجميع بحياته ، فلم يبق حاجة لمحتاج ، ومن أجل ذلك فان الجميع يتمنى طول حياته ليسعدوا بجميل نواله ، وعظيم عطاياه ·

وتأتى المقطوعة الثالثة لتصف السوسن ، وقد جعله بمثابة الثنايا التى تكون فى فم الانسان فتضفى على ضحكاته جمـالا ، فاذا ابتسم الربيع . وعم الكون جماله ، وتبسم نوره للناس فان السوسن ، يجمله ويزينه ، وما أجمله من سـن ضـاحك يرتوى بطيب رائحة الحبيب ، لقد سمى بالسوسن حتى لايحسد فهو مشتق من الوسواس وقد استـعيذ منه ، فهو مشتق من ضده أى من الحسود ، ثم يقول : انه اذا تنسمه عاشق فان رائحته تستمر مدة لا تفارق صاحبها ، وكأنها تشير اليه أنه تنسم عبير السوسن فهو يترك علامة دالة عليه كما يترك الحبيب علامة دالة على حبه فى عارضى الفه حتى يذكره بها دائمـا ، وعندما ذكر السوسن والأنف والغالية ناسب أن يذكر الحاجب وهى تورية جميلة، فالمعنى القريب هو حاجب الحبيب ، والمعنى البعيد هو الحاجب المنصور ابن أبى عامر الذى كان من خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ متوجا بالعلا ، فاذا تبسمت الدنيا كلها ، واذا رأيته كذلك فقد رأيت كل ماتتمنـاه ، واذا رآه الهلال فى طلعته لايسعه الا أن يقول متعجبا من جمال طلعته ، مما أجمل صنع الله الذى أتقن كل شىء ·

وهذه الأوصـاف كلها لمجالى الطبيعة آتى بها ابن دراج ليستـنتج منها وصفا لممدوحه المنصور ثم يعطينا صورة للوصف عند الأندلسيين

الذى يكون حسيا تارة ، ونفسيا تارة أخرى ثم هو يعطينا تصورا لهذه المجالس التى كانت تعقد فى بلاد الأندلس فقد بدأت مجـــالس الأنس كظاهرة اجتماعية فى أخريات دولة الأمويين بالأندلس ، ثم أخذت هذه الظاهرة فى الشيوع والانتشـــار فى عصر ملوك الطوائف وماتـلاه من عصور وشارك فيها الخاصة والعامة على السواء .

« ومن هذه المجالس ما كان يعقد فى المساء فيدوم طوال الليل ، وما كان يعقد فى الصباح فيدوم طوال النهار ، وكلا النوعين من مجالس الأنس كان يشترك فى وصف أمور بعينها ، ثم ينفرد كلاهما بعد ذلك بأمور : كأن يشتركا فى وصف الخمر وســقاتها وأدواتها من كئوس وأباريق ، ثم تنفرد مجالس الليل بوصف مجـــالى السماء من كـواكب ونجوم بضيائها ولألائها ، كما تنفرد مجـــالس النهار بوصف مجالى الأرض ممثلة فى رياضها وأزهارها وأنهـــارها وجداولها وغير ذلك من مباهج الأرض التى تقع تحت أبصارهم وينفعلون بها »

« ومن هذه المجالس مجـــالس الملوك والأمراء ، وكانت تعقد عادة فى قصورهم ، أو فى زوارق على الأنهـــار ، ونحف بها السفن ، وهذه وتلك كان يدعى اليها أعيان الوزراء ، ونبهاء الشعراء وأهل الموسيقى والغناء ، وبذلك يتعاون الشعر والفن والشراب فى اضفاء جو من الأنس والطرب والبهجة على هذه المجالس » (٤٢)

ولقد مر بنا وصف ابن دراج لمجلس أنس عنـــدما مدح الخليفة هشاما ووصف روضة سوسن وذلك فى قوله :

---

(٤٢) د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص٢٠٨ المرجع السابق .

جهز لنا فى الأرض غـزوة محتسب

واندب اليهـا من يسـاعد وانتدب

واحمل على خيل الهوى شيم الصبا

واعقد لجيش اللهـو ألوية الطـرب

واهتف بأجنـاد السرور وقد بهـا

نحو الرياض وأنت أكـرم من ركب

جيشـا تكـون طبـوله عيدانه

وقرونه النـايات تسعدها القصب

حتى يقـول :

فاذا غنمت هنـاك أمثـال الدمى

فهنا بيـوت المسك فاغنـم وانهب

تحفـا لشعبان جـلا لك وجهـه

عوضـا من الورد الذى أهدى رجب

فاقبـل هديته فقـد وافى بهـا

قدرا الى أن الصـيام اذا وجب (٤٣)

ولا يقتصر شعر ابن دراج على المدح والوصف بألـوانه المختلفة ، وانمـا نراه يخوض فى بحور الشـعر المختلفة ، واغراضه المعروفة فنراه أحيانا يتغزل فى فتاة غدرت به ، وأسـاءت به الظن خوفا منه فيعتب عليها فعلها هذا ، ويستعظم صنيعها ، ويأتى ذلك منه غاية فى الرقة ونهاية فى العذوبة ، يقول ابن دراج ٠

---

(٤٣) ديوان ابن دراج ص ٣٥ ـ ٣٧ المصدر السابق ٠

سأمنع قلبى أن يحن اليك ... وأنهى دموعى ان تفيض عليك

أغدرا ولم أغدر ، وخوفا ولم أخن ... لقد ضاع صدق الوفاء لديك

بفعلك عيب الخسف عندى وان غدت ... مهاة النقاد والشمس مشتبهيك

أصد بوجهى سنا الشمس طالعا ... لأن صار منسوب الصفات اليك

واستقطع الشهد اللذيذ مذاقه ... لطعمه الموجود فى شفتيك

واصرف عن ذكراك سمعى ومنطقى ... ولو نازعتنيها حمامة أيك

ولو عن لى ظبى الفلا لاجتنبته ... لتمثال عينيك وسالفتيك

وهذه الأبيات غنية عن التحليل ، فهى لون فريد من الغزل والصبوة ، فقد أطلق الشاعر لفنه وقلبه العنان فجاءت الأبيات غاية فى قوة العاطفة وفنية التعبير ٠

ونختم جولتنا مع ابن دراج بهذه القصيدة التى قالها فى رثاء السيدة أم هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله :

بقاء الخلائق رهن الفناء ... وقصر التدانى وشيك التنائى

لقد حل من يومه الاقتراب ... وقد حان من عمره لانتهاء

هل الملك يملك من المنون ... أم العز يصرف صرف القضاء ؟

هو الموت يصدع شمل الجميع ... ويكسو الربوع ثياب العفاء

يبز الحياة ببطش شديد ... ويلقى النفوس بداء عياء

ألم تر كيف استباحت يداه ... كريم الملوك وعلق النساء ؟

ووافى بسيدة السيدات ... مأوى البلى ومناخ الفناء ؟

هو الرزء ألوى بعزم القلوب ... مصابا ، وأودى بحسن العزاء

فما فى العويل له من كفىء ... ولا فى الدموع له من شفاء (٤٤)

---

(٤٤) ديوان ابن دراج القسطلى من ص : ١١٩ ـ ١٢٣ المصدر السابق ٠

لعل القارىء لهذه الأبيات يدرك منهج ابن دراج في الرثاء ، وعلى الرغم مما يؤخذ عليه من تجاوزات عقدية ؟ حيث جعل الانســـان رهن الفناء ونحن نؤمن بأن الموت ، انتقال فقط من دار الفناء الى دار البقـاء « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » لكنه قد يكون أراد بالفناء الموت ، لكنه بعد ذلك يركز على التسليم بقضاء الله وقدره ، فلن يستطيع انسان مهما بلغ من جاه وسلطان أن يفر من المـوت « أينمـا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » ويضرب مثلا على ذلك بسيدة السيدات التى اختطفها الموت وأودعها قبرها ، فلـم يجد البكاء ولا العويل .

وهكذا نختتم جولتنا فى ديوان ابن دراج القسطلى التى أردنا بها اعطاء القارىء صورة عامة لشعره ، ودوره فى مسيرة الشعر الأندلسى .

سمات شعره الفنية :

عرض الدكتور شوقى ضيف لحديث النقاد القدامى عن ابن دراج فذكر كلام صاحب اليتيمة الذى قال فيه : كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ماينظم » ، ثم ذكر قول ابن بسام « كان لسان الجزيرة شاعرا ،وأولا من عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها .. » ، ثم قـال : « وواضح من آراء النقـــاد جميعا أن ابن دراج كان شاعرا ممتازا ، حتى ليجعله أبو حيان خاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين ، وهى مبالغة من بعض الوجوه ، ولكنها تدل على حقيقة مطوية فيها ، وهى أن ابن دراج يعد من الشعراء الأفذاذ الذين ظهروا فى الأندلس ، ونرى صاحب التيمية يقرنه بالمتنبى ،ويظهر أنه كان يتأثره فى شـعره تأثرا شديدا لا يقل عن تأثير ابن هانىء، وان

كنا نلاحظ أنه لم يستظهر فى شـــعره شيئا من العبـــارات الشيعية والصوفية غير أنه بعد ذلك يستظهر جميع خصائص المتنبى ، فهو يميل الى الغريب فى شعره من جهة ، كما يميل الى التصنع للثقافات من جهة أخرى ، ثم يعود بعد ذلك كابن هانىء يعنى باللفظ الطنان وقعقعاته ، وقد تعلق مثل المتنبى فى مطلع مدائحه بشكوى الدهر ، والسخط على الناس فى عصره ، وســـاعده على ذلك أنه كان عصر فتن وثورات على الأمويين واستعداد لظهور ملوك الطوائف » (٤٥)

لعلنا من خلال حديث الدكتور ـ شــــوقى ضيف عن ابن دراج نستطيع أن نتبين ملامحه الفنية ، فقد اتفق معظم الذين ترجموا له أنه يشبه المتنبى فى الشرق ، ولعلهم أرادوا بذلك أنه عكف فى أول حيـــاته على مدح المنصور بن أبى عامر ، ثم مال به الزمن ، وقلبت له الأيام ظهر المجن ، فأخذ يسير يمينا وشمالا علّه يجد ممدوحا يقدر فنه ، تماما كما حدث للمتنبى عندما ترك ســـيف الدولة ، ورحل الى كافور ومنه الى العراق ، ثم بـــلاد فارس ليمدح عضد الدولة بن بويه ، ووزيره ابن العميد ٠

ولكن هل كان ابن دراج يحذو حذو المتنبى فى كل شعره ؟ وهل نستطيع أن نقول انه صورة أخرى للمتنبى فى الأندلس ؟ ان التـــأثر بشاعر أو أديب لايعنى أن يكون المتأثر صورة لمن تأثر به ٠

ان القارىء لشعر ابن دراج الذى عرضناه يتبين منه منهجه فى ذلك ، فقد التزم المنهج المحافظ فى شعره ، او قل انه سار على مذهب

---

(٤٥) د٠ شــــوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشـــعر ص ٤٢٥ ط دار المعارف ١٩٦٠م

أهل البديع ، ولكنه أكثر من الجناس غير أنه اقترب من المتنبى فى شكواه من الدهر ، ولعل الذى دفعه الى ذلك فقر نزل به فقلب نعيمه بؤسا وسعادته شقاء — يقول من قصيدته التى يعارض بها المتنبى والتى قالها فى مدح ابن العميد ومطلعها :

من مبلغ الاعراب أنى بعدها
جالست رسطاليس والاسكندرا
ولقيت بطليموس دارس كتبه
متبديا فى ملله متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
رد الاله نفوسهم والأعصر
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما
وأتى فذلك اذا أتيت مؤخرا (٤٦)

قال ابن دراج معارضا له :

أبنى لاتذهب بنفسك حسرة
عن غول رحلى منجدا أو مغورا
فلئن تركت الليل فوقى داجيا
فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
وحللت أرضا بدلت حصباؤها
ذهبا يرق لناظرى وجوهرا

---

(٤٦) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٣٦٤ — ٢٨٠ . وضعه عبد الرحمن البرقوقى . دار الكتاب العربى بيروت — لبنان .

ولتعلم الأملاك أنى بعدهـا
ألفيت كل الصيد فى جوف الفرا

ورمى على رداءهم من دونهم
ملك تخير للعلا فتخيرا

ضربوا قداحهم على ففاز بى
من كان بالقدح المعلى أجدرا (٤٧)

فاذا كان المتنبى قد تاه عجبا بانه وجد فى ابن العميد برسطاليس والاسكندر وبطليموس وهى أسماء أعجمية أراد بذكرها أن يحوز اعجاب ابن العميد لمعرفته هذه الأعلام ، وأن يستحوذ على عطفه ، وأن يقول لسيف الدولة الحمدانى العربى اننى وجدت عند الفرس تكريما لم أحصل عليه عند العرب فان ابن داج كان عربيا لحما ودما ، فهو يخاطب المنصور بن أبى عامر العربى ، فلا بد أن يفتخر بكل ما هو عربى ومن أجل ذلك أتى بالمثل العربى المشهور « كل الصيد فى جوف الفرا » واستخداما ينم عن قدرة فنية رائدة ، واتخذ من عادة ضرب القداح العربية سبيلا الى امتلاك قلب المنصور أيضا ؛ وكأنه يقول للسامعين انه يعرف أمجاد العرب ومفاخرهم ، وهى أمجاد لا تبلى مع الزمن ، وانما تتجدد استخداماتها ، ولهذا فاننا لانرى مجالا لنقد الدكتور شوقى ضيف ، فقد عاب على ابن دراج استخدامه لهذا المثل المعروف ، كما عاب عليه اتيانه بفكرة القداح المعروفة عند العرب القدماء .

ولقد نبغ ابن دراج فى لون آخر من الشعر لم نجده عند المتبنى ، فقد برز فى شعر ابن دراج حبه لاسرته والعمل الدائب من أجلها ، فهو

---

(٤٧) ديوان ابن دراج ص ١٢٩ المصدر السابق .

يتجشم الصعاب ، كي يوفر حياة كريمة لأبنائه ، ولعل القارئ قد استيقن من ذلك من ما قرأ شعره الذى تقدم وخاصة فى افتتاحيات قصائده التى جاءت تعمق جانب الاحساس بأسرته : زوجه وأبنائه ، ولقد تقدم تحليل لتلك القصيدة التى يعارض بها قصيدة أبى نواس فهو يقول مخاطبا زوجه

دعى عزمات المستضام تسـير

فتنجد فى عض الفـلاد تغور

لعل بما أشجاك من لوعة النوى

يعز ذليل او يفك أسـير.

ثم يصف ساعة فراق زوجه وصفا دقيقا ، فهو يسليها ، ويخفف عنها لأواء الفراق ومرارة البعد ·

وانظر الى ابن دراج وهو يعقد مقارنة بين موقفه من بنيه وموقف ممدوحه من جنده · حيث يقول :

وقد عاذ أبطال الجـلاد بعطفه

كما عاذ أطفال الجلاء بعطفيـا

وقد قصرت عنه رماح عـداته

كما قصرت عنهم رياش جناحيا

ولكن أواسى بين عـار ولابس

أقصر عن ذيـا لأثنى عن ذيـا (٤٨)

فقد صور أبناءه وهم يتعلقون به كما يتعلق الجنود بقائدهم ، لكن قائدهم مقتدر يستطيع أن يعمهم بعطفه ، ويشملهم بفيضه أما هو فعاجز عن ذلك ، فبينما هذا القائد يدفع عنه جنوده رماح أعدائه فلا تصل اليه

---

(٤٨) ديوان ابن دراج ص ١٧٩ المصدر السابق ·

اذا به هو يقصر عن شمول أطفاله بجناحيه فلا تكاد تشملهم لضيق ذات اليد ، ولا يستطيع أن يحضر لهم ثيابا تستر أجسادهم فيحاول المواساة بين العارى والكاسى ، أو يحاول تقصير ثياب بعضهم ليجد فضلة يستر بها جسده الآخر ، وهى أبيات يتضح من خلالها عطف ابن دراج على اسرته وهذا ما لم نجده عند المتنبى ٠

ثم هو أحيانا يصور الآلام النفسية التى تصيب أبناءه عن شعورهم بالغربة فيقول :

يتأوهون اذا رأت أوهامهم
دارا لساكنها بها استقرار
ويهيم عين لهن مرابض
ويشوقهم طير لها أوكار (٤٩)

وهذه النماذج التى قدمتها تجعل ابن دراج منفردا فى جوانب عدة فقد فاق غيره فى مواضع متعددة ، لكنه أحيانا يميل الى كثرة الجناس والترصيع ، ولعل هذا فرضته عليه صلته بالملوك والأمراء ، فلقد أحدث هؤلاء الحكام فى الحياة العربية أحداثا لم تكن مألوفة من قبل ، وتحول المجتمع من البساطة التى درج عليها العرب الى تعقيد فى كل مناحى الحياة ، حتى ان نظرة الناس وعنايتهم بالسلطان جعلتهم يميلون الى المبالغة فى ملبسهم ، بل وفى مآكلهم ومشربهم ولقد سمعنا عن تلك الحلل الرسمية التى عنى بها الوزراء ليقابلوا فيها الخلفاء ٠

هذا الكلف فى الحياة الاجتماعية صحبه كلف فى الأدب ، فان الأدباء

---

(٤٩) ديوان ابن دراج ص ١٥٧ المصدر السابق والعين جمع عيناء واسعة العينين وهى الأبقار الوحشية ٠

يتعاملون مع مجتمعهم ، ولابد لهم من زخرفة أسلوبهم وتوشية أدبهم بمثل مايدرج عليه المجتمع في ماكله ومشربه وملبسه ، فاذا قرأنا لأحد الكتاب يصف مجلسا ، وقد استعمل كثيرا من ألوان السجع والتشبيه والاستعارة في قوله : قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات التاريخ ، وانطلقت ألسنة العيدان ، ولعبت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وامتدت سماء الند ، فاننا نتصور مدى ما أصاب أسلوب الحياة الاجتماعية ، ان هذه التزاويق اللفظية صدى للتزاويق والحياة الاجتماعية .

اننا اذا تصورنا ذلك فاننا لاننكر على ابن دراج استخدامه للجناس ، وألوان البديع المختلفة في شعره ، فقد مرت بنا قصيدته التي يمدح فيها هشاما ، ويصف مجلس أنس ، وهو صادق مع نفسه ومجتمعه فماذا يقول أمام أمير المؤمنين وهو يصف هذا المجلس انه لابد أن يتخير الألفاظ والزينات المناسبة لجمال الموقف ، فهو يقول :

واهزز رماحا من تباشير المنى

واسلل سيوفا مو معتقة العنب

وانصب مجانيقا من النيم التي

احجارهن من الروابط والنخب

شرفاتها من فضة وجماتها

حول الأمير لهم سيوف من ذهب

لقد عاب الدكتور شوقي ضيف على ابن دراج استخدام هذا اللون من البديع ، فأورد جانبا من قصيدته التي مطلعها :

أبنى لاتذهب بنفسك حسرة عن غول رحلى منجدا أو منورا

يقول الدكتور شوقى ضيف : واستمر فى القصيدة فستراه يقول :

كلا وقــد آنست من هودهدى
ولقيت «يعرب» فى القبول وحميرا

وأصبت فى ســبأ مورث ملكها
يسبى الملوك ولا يدب لها الضرا (٥٠)

فكأنما تابعت تبع رافعـــا
أعـــلامه ملكا يدين له الورى

والحارث الجفنى ممنوع الحمى
بالخيل والآساد مبذول القرى

وحططت رحلى بين نارى حــاتم
أيام يقرى موسرا أو معسرا

ولقيت زيد الخيل تحت عجاجة
تكسو غلائلها الجياد الضمـــرا

وعقدت فى يمن مواثق ذمة
مشدودة الأسباب موثقة العرى

وأتيت بجدول وهو يرفع منبرا
للدين والدنيا ويخفض منبرا

• وأظن صوت ابن دراج اتضح لنا الآن تمام الوضوح ، فهو يغنى — كما قال ابن شهيد — بالنسب اذ يرد ممدوحه (منذر بن يحيى) الى

---

(٥٠) الضرا : الاستخفاء يريد أنه يهجم على أعدائه جهارا لقوته وشجاعته .

اليمن فينسبه الى ملوكها ، ومشاهيرها ، وهو فى أثناء ذلك يصنع للجناس ابن هود وهدى ، وسبا ويسبى ، وتابع وتبع ، أرأيت الى ابن دراج ؟ انه كان — كما قال ابن شهيد — يصنع للبديع كما يتصنع للغريب والأمثال كهذا المثل المعروف « يدب له الضرا » ولايكتفى بذلك بل نراه يتصنع فى آخر هذه الأبيات للرفع والخفض المعروفين فى علم النحو ، وواضح مافى ذكرهما من تكلف وتصنع » (٥١) ٠

وواضح مما قدمت أن ابن دراج صادق مع نفسه وفنه ، فهو يمدح أميرا عربيا يمنيا ، ولا بد له من ذكر أعلام العرب الذين يعتز بهم ممدوحه فالحارث الجفنى ، وحاتم الطائى ، وزيد الخيل له من ذكر أعلام العرب ومفاخرها ، ولابد له أيضا من توشية شعره ببعض الزينات اللفظية التى تناسب جمال الموقف ٠

الم يقف أبو تمام من قبل هذا الموقف عندما قال :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم . فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

وعندما قيل له : لم تزد على أن شبهت الأمير بصعاليك العرب قال مرتجلا :

لا تنكروا ضربى له من دونه

مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره

مثلا من المشكاة والنبراس

ونحن اذ نقول ذلك لانوافق الشاعر الذى يسرف فى مثل هذه

---

(٥١) د ٠ شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٤٢٧ المصدر السابق ٠

الزينات ، أو يحول قصيدته الى بديعية من البديعيات التى نشأت فى عصر المتأخرين يوم أن أعيتهم الحيلة ، وأنهكتهم الوسيلة الى الشعر الجيد فرحوا فى أغلال التقليد المميت ، لكننا نقول ان الشاعر يوم أن يرد فى شعره شىء من البديع عفوا ودون تكلف أو استكراه فهذا أمر لايعيبه عليه عائب ٠

ولا أظننا ننهى بحثنا عن ابن دراج دون أن نقف وقفة مع آراء النقاد المحدثين والقدامى أما المحدثون فقد انقسموا فريقين : فريقا يتجه باللائمة على ابن دراج ، بل على الشعر الأندلسى بعامة ويأتى فى مقدمتهم الدكتور شوقى ضيف الذى قال فى نهاية حديثه عن ابن دراج : « وأكبر الظن أن منهج ابن دراج اتضح لنا الآن ، وتكشف عن جميع صفاته وخصائصه ، وهو ليس منهجا جديدا ، فالأندلس لاتستطيع أن تمد الأدب العربى بمنهج جديد لا من حيث الموضوعات ولا من حيث المعانى ، ولا من حيث الأخيلة والأساليب انما كل ماهناك أنها تستطيع أن تفخر بشعراء يعيشون فى اطار الشعر العباسى العام ، وهم يعيشون فى هذا الاطار معيشة مضطربة اذ ترى الشاعر الواحد يخلط بين مذاهب الفن العباسى خلطا شديدا ، فهو تارة صانع يفيض بالشعور ، ولايجعل للزخرف سبيلا اليه كما رأينا عن ابن دراج فى وداعه لزوجه وطفله وتارة نراه متصنعا يعنى بالتصنيع للثقافات كما يعنى بالغريب والانساب والأمثال والاقتباس من القرآن الكريم على نحو ما رأينا عند ابن دراج أيضا ، ثم هو أخيرا مصنع يشفع شعره بألوان التصنيع والزخرف العباسى من جناس وطباق وتصوير على نحو ما مرينا عند ابن دراج وهكذا ترى الشاعر الأندلسى يجمع فى شعره بين جميع المذاهب العباسية ، وهذا هو معنى مانقول من

ان الشعراء الأندلسيين يخلطون خلطا شديدا بين المذاهب الفنية للشعر العربى اذ يستعيرون منها جميعا بدون تفريق ولا اختلاف فى التطبيق(٥٢)

هذا هو رأي الدكتور شوقى ضيف . أو وجهة نظره فى الشعر الأندلسي ، بل يمكن أن تكون وجهة نظره فى الشعر العربى بعامة لقد اختط لكتابه الفن ومذاهبه فى الشعر ، تلك الخطة التى عبر عنها بمذهب الصنعة ، ومذهب التصنيع ، ونفى أن يكون هناك شعر مطبوع فى الشعر العربى من لدن العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحاضر ، وهو إذ يصنع ذلك مع الشعر العربى يرمى الأندلس بأنها مقلدة للشعراء في كل فنون شعرها ، لكننا نراه حينا آخر يقول عن الأندلس : « ولعل أهم مايميز الأندلس ترفها ونعيمها » ووصف شعرائها لطبيعتها وحسن مناظرها ، فقد ذهبوا يشيدون بمساجدها ومواطن الجبال والفتنة فيها ويشيدون بها أيما اشادة كقول ابن سفر المريني :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء
ولا تفارق فيها القلب سراء
وكيف لاتبهج الأبصار رؤيتها
وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة والمسلك تربتها
والخز روضتها والدر حصباء(٥٣)

---

(٥٢) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٤٣١ المرجع السابق .

(٥٣) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٤١١ المرجع السابق .

لقد تفنن الأندلسيون تفننا واسعا فى هذا الجانب ، وبذلك تركوا مادة كبيرة فى شعر الطبيعة ، وساقهم ترفهم الى وصف الخمر مع وصف الزهر ، ثم وصف مجالس الشراب وما تنطوى عليه من قيان ــ وهذا ما رأيناه عند ابن دراج ، واستتبع ذلك الترف عندهم غناء واسعا كان من آثاره ظهور الموشحات والأزجال ، وهى الصورة العــامة لشخصية الأندلس وهى شخصية رسختها البيئة والطبيعة .

ان الحروب التي قام بها الأمراء والخلفــاء في الأندلس خلفت — أيضا — لونا جديدا فى الشعر ، واذا قال قائل ان الشعراء فى المشرق قاموا بهذا الدور من قبل فاننا نقول لهم ان شعراء الأندلس توسعوا فى هذا الجانب ، فقد كان المنصور بن أبي عامر عندما يسير الى غزو أعدائه يصطحب معه مجموعة كبيرة من الشــعراء يتبــارون فى وصف هذه الانتصارات التي عرف بها ، بل ان هناك لونا جديدا تفردت به الأندلس من بعــد وهو بكاء المــدن الزائلة ، فما سـقطت بلدة ، او انحرفت على السقوط حتى قالوا فيها شعرا قويا حزينا ، وربما كان من خير الامثلة على ذلك قصيدة ابن عبدون :

الدهر يفجع بعـــد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصــور
أنهــاك أنهــاك لا آلوك معـــذرة
عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان أبدى مســالمة
والسود والبيض مثل البيض والسمر

وقصيدة أبي البقاء الرندي كان لها القدح المعلى في هذا الجانب ومطلعها :

لكل شيء اذا ما تم نقصـــــان

فلا يغر بطيب العيش انســان

هي الأمور كما شــــاهدتها دول

من سره زمن ســـــاءته أزمان

أما الدكتور أحمد هيكل فقد أنصف الأندلس وشـــعراءها عندما قال : « ذلك أن الأندلسيين ما عاشوا في تلك السهول الخصيبة ذات الجمال الطبعي الفاتن ، وقد انعكس هذا على الناس خصوبة في خيالهم وجمالا في طباعهم ، ورقة في أحاسيسهم ، وأخرج منهم أناسا يغلب عليهم طابع المحبين للجمال مشاهدة وتمثلا ، ثم محاكا وتصويرا » (٥٤) .

بل رأينا الدكتور حسن جاد حسن في بحثه القيم عن ابن زيدون يضع الشعراء الأندلسيين في مقدمة شعراء الوجدان ، والاحساس بما للطبيعة من أثر في اثراء فن الشعر والخيال . » والواقع الذي شاهده من نفسه أن الأندلسيين قد فاقوا المشارقة في شعر الطبيعة كما وكيفا ، وتوسعا ونوعوا في موضوعاته توسعا وتنوعا فاق كل اعتبار ، كما أنهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكارا وتجديدا ودقة تصوير » (٥٥) .

أما النقاد القدامى فقد وضعوا ابن دراج في مقدمة فحول الشعراء فقد تقدم قول صاحب اليتيمة عنه ، كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع

---

(٥٤) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٥٠ ـ ٥١ ، ط دار المعارف .

(٥٥) د. عبد العزيز عتيق . الأدب العربي في الأندلس ص ٢٩١ المرجع السابق .

الشام ، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ماينظم ، ولا يشك انسان في جيدة الثعالبى ، فقد وضعه أولا مساويا للمتنبى ، ثم قال عنه انه أحد الشعراء الفحول ٠

أما ابن بسام فعلى الرغم من أنه عرض لآراء ابن شهيد فى ابن دراج والتى اعتمد عليها الدكتور شوقى ضيف فى نقده لابن دراج ، وآراء ابن شهيد كما نعلم ساقها فى معرض افتخاره على الشعراء جميعا ، بل انه تخيل أنه ذهب الى وادى الجن وأحضر شياطين الشعراء السابقين فغلبهم واذا صنع ذلك مع الشعراء السـابقين فجدير به أن يغلب الشـعراء المعاصرين ، على الرغم من كل ذلك فان ابن بسام يقول عن ابن دراج : « كان لسان الجزيرة شاعرا ، وأولا حين عد معاصريه من شـعرائها المشهورة ، وأخر حامل لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها له عقد فخرها المحمول وسهم ، وبه بدىء ذكرها الجميل وختم حل اسمه من الأماني محل الأندلس ، وسـار نظمه ونثره فى الأقاصى والأدانى مسير الشمس ، وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدره» (٥٦)

هذا هو ابن دراج القسطلى شاعر المنصـور بن أبى عامر اقدمه للقراء فى هذا البحث علهم يجدون فيه ما يروقهم ، أو يدفعهم الى مزيد من البحث ، فلم أدع أننى وافيت على الغاية ، أو أتيت بالقول الفصـل وهذا ما لايستطيع باحث قوله ٠

والله أسأل أن يهدينا — جميعا — سواء السبيل وهو حسـبنا ونعم الوكيل ٠٠

الدكتور عبد المنعم احمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
بالمنوفية ٠

---

(٥٦) الذخيرة لابن بسام ق ١ جـ ١ ص ٤٣ المصدر السابق

رد على ما جاء في دائرة المعارف البريطانية

من قضايا تتعلق بالاسلام

الدكتور/عبد المنعم أحمد يونس

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى

وبعد

فقد وقفت طويلا قبل ان اقوم بكتابه هذا التعقيب على ما ترجمه الأستاذ محمود كرام من موضوعات وردت فى دائرة المعارف البريطانية ان قبولا وان رفضا ، ان حقا وان باطلا ، وعدت بذاكرتى الى ماض عشته فى سنوات من سنى حياتى ، تلك التى كنت فيها مدرسا فى وزارة التربية والتعليم ، وقد حاولت يومئذ أن أقف فى وجه بعض مدرسى التاريخ — من غير المسلمين — اولئك الذين كانوا يستخدمون الفاظا لا تليق عندما يعرضون لهجرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، أو عندما يعرضون لقضية تعدد زوجاته — صلى الله عليه وسلم •

ولقد علمت بعدئذ أن هؤلاء كانوا أبواقا لسادتهم من المستشرقين أو من أولئك الذين رضعوا من ثدى الاستعمار ، فأرادوا تشويه تلك الصور الجميلة التى رسمها المسلمون الأوائل ، والتى قادها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فكون بذلك أمة ، وبنى حضارة ، وأسس دولة اسلامية رادت العالم فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تعيش فى ما يسمى بعصور الظلام •

ترجم المادة الأستاذ محمد محمود كرام • مدرس اللغة الانجليزية المنتدب بالكلية •

والحملة على الاسلام وعلى رسوله — صلى الله عليه وسلم — ليست وليدة اليوم انها تضرب بجذورها الى عهد الرسالة ، وما تلك الحملات المسعورة التى قادهـا المشركون الا بدايـة لكل الحملات التى توالت بعد ذلك من الشعوبية وأعداء الاسلام ، هذه الحملات التى تمثلت فى معارك ضـارية حينا على يد الصـليبيين والتتار ، وخافته حينا على يـد أولئك الذين نفذوا مخطط الاستعمار فى تشويه بعض تعاليم الاسـلام — وكان المسـلمون يدحضونها ، ويبطلون أهدافها ، وقد يلجأ الاسـتعمار الى بعض ضـعاف النفوس فيتخذهم وسائل لتنفيذ مخططه الذى يهدف منه الى زعزعة العقيدة الاسلامية فى قلوب المؤمنين بها كما حدث فيما أتت به القديانية والبهائية والتى رباها الاستعمار ، ومولها ، وهم فى كل ما أتوا لا يصدرون عن حقائق وانما هو افتيات على الاسلام والمسلمين .

لقد قام الأستاذ محمود كرام بترجمة بعض ما كتبته دائرة المعارف البريطانية تحت مادة « اسلام » ، لأن المادة طويلة وتحتاج الى جهد كبير ، لذا فانه يقول « لقد شرفنى الأستاذ الدكتور شوقى حمادة عميد كلية اللغة العربية بالمنوفية بأن أراجع ما كتبته دائرة المعارف المذكورة ، وأعقب على ما أوردته من عظمة الدين الاسلامى ، وما وقعت فيه من أخطاء .

ثم يقول « ولما كان هذا الباب يشغل عشرين ومائة صفحة ، ويحتاج الى كتاب كامل للرد عليه فقد آثرت أن أقوم بترجمة البند الأول من هذا الباب ، ويشـمل الحديث عن العقيدة الاسلامية — ترجمة دقيقة لأبرز ما ذكرته دائرة المعارف من محاسن العقيدة الاسلامية وأعقب على ما جاء فيها من أخطاء » .

ولكنه عندما ترجم هذه المادة وجد أنه بحاجة الى جهـد بعض أعضاء هيئة التدريس فى الكلية ليقوم بعملية التعقيب فأسند الى ذلك فى الوقت الذى مثلت فيه المجلة للطبع ، بل وطبـع جزء كبير منها ولكننى قمت

بهذا التعقيب على أمل أن تتاح لى فرصة أكبر للرد على كل ما جاء بدائرة المعارف البريطانية عندما يفرغ الأستاذ كرام من ترجمة المادة كاملة فأقول وبالله التوفيق :

ان عادة أولئك الذين يكتبون عن الاسلام دون أن يتعمقوا أسراره أو يتفهموا تعاليمه لا يدققون فى اختيار الكلمات التى تناسب المقام » اما جهلا بأسرار اللغة العربية ، وما تؤديه مفرداتها من معان ، فقد يمكننا ايراد كلمتين تحملان معنى واحدا ، ولكن المقام يقتضى اختيار احداهما عن الأخرى ، ولكن الذين يجهلون أسرار اللغة العربية قد يعتقدون أن كلتا الكلمتين تؤدى ما تؤديه الكلمة الأخرى فيترجمون مثلا كلمة هاجر على أنها « فر » أو « هرب » وهم لا يفهمون ، أو لا يحاولون الفهم بأن الهجرة تختلف عن الفرار أو الهرب ، فالهرب يصاحبه خوف من أذى قد يلحق الانسان من خصوم الداء يبيتون له شرا ، ثم ان هناك عاملا نفسيا يصاحب الهرب ذلك أنه لا يركن الى قوة تحميه سواء أكانت هذه القوة داخلية أو خارجية ، ولا يركن أيضا الى ايمان عميق بما يؤديه من رسالة يؤمن بها ويدين بصدق تعاليمها ، فتأتى كلمة الهرب هنا مناسبة لمقام ذلك الخوف الذى يعترى المرء ، أما اذا آمن بأن هناك قوة تحميه ، وايمانا يقيه بطش أعدائه ، وأراد الانتقال من مكان لم يجد فيه ما يشجعه على الاستمرار ومواصلة الدعوة الى مكان يرى أن الله قد يفتح عليه فيه فيجد صدورا منشرحة ، وقلوبا متفتحة فلا تستعمل هنا كلمة الهرب وانما نستعمل كلمة هاجر ٠

وهكذا نجد أن هذه الأخطاء التى وقع فيها واضعو دائرة المعارف البريطانية تأتى أحيانا عن جهل باستخدام مفردات اللغة العربية ، وأحيانا تأتى عن جهل أيضا بمبادىء الاسلام التى لا يستطيع فهمها الا من آمن بها ، وتعمق فى فهم أسرارها ٠

١ ـ من ذلك ما ترجمه الأستاذ كرام عن الخصائص العامة والحدود

المتعارف عليها تقول دائرة المعارف البريطانية « الاسلام دين عالمى ينتمى الى العائلة السامية ، ولقد بشر به وأذاعه النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم فى القرن السابع الميلادى ولفظ المصطلح العربى اسلام معناه الحرفى التسليم ، أو الاستسلام ونبرز الفكرة الدينية الجوهرية » وكلمة اسلام معناها : « أن المؤمن الذى يدعى مسلما » وهو اسم فاعل من أسلم يقبل الاستسلام لمشيئته الله ، والله تعنى بالعربية الله هو الاله الفرد الخالق الذى يمد خلقه بأسباب الحياة ، ويحفظ ويحيى العالم ، أو مشيئته أو ارداة الله قد فسرها القرآن ـ ذلك الكتاب الذى أنزله الله على رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يعتقد المسلمون أنه آخر الأنبياء (آدم ـ نوح وموسى ـ وعيسى ورسل أخر) وختمت به الرسالات ونسخت فى نفس الوقت ما انزله الله على أنبيائه السابقين » .

هـذا الكلام يجعلنا نوقن فعلا بأن واضعى الدائرة لم يفهموا معنى الاسلام ، ولم يتعمقوا تعاليمه ، حقيقة كما قال كاتب المادة أن الاسلام دين عالمى ، لأنه صالح لكل زمان ومكان ولأن الله قال عن رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

وقولهم ينتمى الى العائلة السامية . لعلهم أرادوا به أن الاسلام قد أتى به رسول سامى وليس آريا ، ذلك أن الثابت فى جنس الرسل أنهم من الجنس السامى ، ولم نعلم أن هناك رسولا آريا ، فالرسل جميعا ساميون ، أما كون الاسلام نفسه ينتمى الى العائلة السامية فهذا خطأ أوقعه فيه عدم فهم لتعاليم الاسلام ، لأن الاسلام دين يخاطب جميع الأجناس البشرية ـ سامية كانت أو آرية ، أو حامية ـ ولذلك فاننا نجد كثيرا من آيات القرآن تلح على ذلك قال تعالى « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » فالآية لم تفرق فى خطابها بين جنس وجنس ، أو بين جماعة وجماعة ، بل الكل أمام الله سواء

ـ لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أحمر الا بالتقوى والعمل الصالح « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ٠

وتاريخ الاسلام يشهد بذلك ، وتطبيقه لمبادئه يعرفها العدو والصديق فقد عامل الاسلام العرب والعجم معاملة واحدة ، ولم يفرق بين مسلم ومسلم، فبلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى جميعهم كانوا يحظون بالمساواة التامة فى جميع الحقوق والواجبات ، حتى ان أباذر الغفارى العربى لم يسلم من لوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ٠ ساعة أن عير بلالا بأمة فقال له يابن السوداء فقال له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم « أعيرته بأمة انك امرؤ فيك جاهلية » ٠

ولأن الاسلام جاء بهذه الديانة العالمية ، والصالحة لكل زمان ومكان جعل تعاليمها عامة لكل البشر ، بل ان الله سبحانه وتعالى جعل تعاليم الاسلام مشتملة على جميع ما أتى به الرسل السابقون ٠ قال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » ٠ وقال تعالى « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » سورة آل عمران ٠

وما ذلك الا لأن الله سبحانه جعل جميع الديانات السابقة ، أو بالأخرى جعل جميع الرسل السابقين ممهدين للرسالة الخاتمة والرسول الخاتم ، فتعاليمهم كلها قد أتى بها الاسلام وقد حملها دستوره العظيم وهو القرآن الكريم حتى يجعل جميع الناس يدينون بديانة واحدة وهى الاسلام ٠

٢ ـ وبعد أن يذكر كاتب المادة العقائد الجوهرية المنبثقة من الشهادة ـ كما جاء فى الترجمة ـ يعلن أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم قد حرص « على أن يغرس معنى الاخوة ، ورابطة العقيدة بين أتباعه ، وقد ساعد كلاهما على أن ينمى بينهم الشعور بمتانة هذه الرابطة التى نماها شعورهم بالاضطهاد كمجتمع حديث الولادة بمكة ، ومن الواضح أن القناعة بالرابطة

الاجتماعية والاقتصادية بتطبيق أركان الاسلام (مثل الزكاة) قد ونق عقد الرابطة الدينية — ففى سنة ٦٢٢ ميلادية عندما هرب محمد — صلى الله عليه وسلم — الى المدينة تقبل أهلها الدين الجديد من فورهم — ومن تاريخ فراره الى المدينة — وهو الذى يسمى بالتاريخ الهجرى بدأ المسلمون يؤرخون بهذا التاريخ ·

هذا الكلام من كاتب المادة يجعلنا نقف على ما يعتمل فى صدر هؤلاء من كراهية وبغض للاسلام وللمسلمين فهو يعلم أن المسلمين يؤرخون بالتاريخ الهجرى ، ويعلم أن هذا التاريخ مأخوذ من الهجرة التى تعنى انتقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — من مكة الى المدينة ، ولو أنه لم يذكر تاريخ المسلمين بالتاريخ الهجرى لقلنا ان قوله « عندما هرب محمد — صلى الله عليه وسلم — الى المدينة » جاء لعدم معرفته باستخدام الألفاظ استخداما سليما فلم يدر أن هرب لا تعنى هاجر ولا تشترك معها الا فى مجرد الخروج من مكان الى مكان ، وكذلك قوله « ومن تاريخ فراره الى المدينة) ·

لكن استعماله لمادة التاريخ الهجرى فى كلامه يجعلنا نوقن أن هذا الكاتب دفعه الى ذلك ما يعتمل فى صدره من كراهية للاسلام والمسلمين ، وهو يريد بذلك أن يجعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى موقف الخائف على حياته الهارب من وجوه خصومه ، الفار من أذى المتربصين به ، وكأنه مجرد انسان خشى على حياته بين قوم ففر منهم ليلجأ الى قوم آخرين يجد بينهم الأمن والأمان ، وما يدرى هذا الكاتب أن الرسول كما أسلفت ما كان يهمه أن يترك مكة خوفا من أذى قريش بالقدر الذى كان يحرص فيه على أن ينتشر الاسلام بين قوم آخرين ، حتى تتسع آفاقه ، وتتأصل تعاليمه·

ولقد اتضح ذلك من موقف الرسول وأبى بكر وهما فى الغار عندما وجد الرسول الخوف ينطبع على جبين أبى بكر فهدأ الرسول من روعه معلنا له أن عناية الله ترعاه « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر لا تحزن

ان الله معنا ؛ وقد سجل القرآن الكريم ذلك فقال تعالى : الا تنصره فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » التوبة آية ٤٠ ·

٣ ـ ولكن الحق أبلج والباطل لجلج ·· فاذا بنا نجد هذا الكاتب الذى يتصيد الكلمات التى تؤذى المسلمين ينطلق لسانه بعد ذلك فى ابراز قيمة الاسلام والعلاقة بينه وبين الديانات الأخرى فيقول : « وفى تلك الحقبة المبكرة اكتسب الاسلام خواصه من روح الشعب كدين تتوحد فيه كل من الناحيتين الروحية والدينية ، ويسعى الى تنظيم اتصال حياة الفرد بالله من خلال الضمير) وليس ذلك فحسب ، ولكن تنسيق العلاقات الانسانية فى اطار اجتماعى ، ومن ثم فانه يكون مؤسسة دينية على نمط منظم راسخ الجذور من سلوك الجماعة ، ويعتبر ذلك جزءا أساسيا من حضارتها، بل أنه كذلك قانون اسلامى ودولة اسلامية ذات دساتير تحكم المجتمع (وحديثا فقط تميزت المسائل الدينية الخاصة والدنيوية العامه فى رأى بعض المفكرين المسلمين ، وانفصلت السلطتان عن بعضهما (كما فى تركيا) ·

ثم يقول « وهذه الميزة الدينية والاجتماعية المزدوجة التى اتصف بها الاسلام والتى عبر عنها بأنها مجتمع اسلامى ، وذلك ليهب للعالم قيمة هذا النظام عن طريق الجهاد يفسر لنا النجاح المدهش للأجيال الأولى من المسلمين : ففى خلال قرن من الزمان بعد وفاة رسول الله (صلى الله (صلى الله عليه وسلم) عام ٦٣٢ ميلادية وضع الاسلام جزءا كبيرا من العالم من أسبانيا عبر وسط آسيا الى الهند ـ تحت راية الامبراطورية الاسلامية العربية ، وبدأ أول عهد للفتوحات الاسلامية وتكوين الامبراطورية العربيه ، وانتشار الدين الاسلامى نتيجة للمساواة بين أفراد مجتمعه المخلصين

وكذلك حصافة مبادئه فى حسن التمييز بين مجتمعه والمجتمعات الأخرى، من الناحيتين الدينية والرسمية »، وبذلك كسب مسلمين جددا ·

ولعل هـذا القول غنى عن التعليق فقد نطق الكاتب بما دفعته اليه الفطرة التى تجعل الحق سلطانا على أولئك المعاندين والمكابرين ، ولكننا يجب أن نقف وقفة عند قوله « الامبراطورية الاسلامية العربية » لنقول له أيضا ان هذه الكلمة لا تتناسب مع ما ذكرته من عدالة الاسلام فى تعاليمه ومن اكتسابه مسلمين جددا دخلوا الاسلام حبا فى هذه التعاليم . لأن التاريخ القديم الذى ورد فيه ذكر لتلك الامبراطوريات التى قامت · كامبراطورية الاسكندر المقدونى والامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية لم تكن لديها تلك التعاليم التى جمعت أفرادها جميعا تحت لواء الناس سـواسـية كاسنان المشط ، وانما مزقتها الطبقية ، وفرقتها العصبية ، وقضت عليها الأطماع الفردية ثما لبثت أن زالت هذه الامبراطورية ، واندحرت أمام تعاليم الاسلام ومبادئه فكون المسلمون بذلك أعرق أمة ولا نقول امبراطورية فأمة الاسلام خير عنوان يمكن أن توضع تحته تلك الدولة التى عمت المعمورة من المحيط الأطلسى غربا الى بلاد الهند شرقا ·

٤ ــ وهناك أمر آخر وقع فيه كاتب المـادة ذلك أنه عندما تحدث عن فرض الاسلام الجزية على أهل الكتاب أعلن أن هؤلاء الكتابيين قد اعتنقوا الاسلام هربا من هــذه الجزية التى فرضت عليهم ونص حديث الدائرة : « لقد وضع الاسلام اليهود والمسيحيين فى منزلة خاصة على أنهم مجتمعات من أهل الكتب السماوية ، ومنحهم الاستقلال الذاتى ، ولو أنه فرض عليهم دفع ضريبة للصالح العام تسمى الجزية ــ فرضها على كل فرد ــ وذلك عكس ما فعل مع الوثنيين الذين كان عليهم اما ان يدخلوا فى الاسلام أو يقتلوا وهذه الميزة الخاصة لأهل الكتاب امتدت الى اتباع زرادشت والهند من بعد ذلك ، ولكن كثيرا من أهل الكتاب دخلوا فى الاسلام هربا من دفع الجزية ، وهذا الكلام أيضا لا يستند على دليل من كاتب المادة ، لأن الاسـلام الذى

فرض الجزية على أهل الكتاب دفاعا عنهم وتأمينا لعقائدهم وممتلكاتهم لم يفرضها الا على القادرين من أهل الذمة اما العجزة ، أو النساء والصبيان فان الاسلام لم يفرض عليهم الجزية ، فقوله « على كل فرد » فيه تجاوز كبير، وكلنا يعلم موقف سيدنا عمر من ذلك اليهودى الذى كبرت سنه ولم يستطع دفع الجزية الا عن طريق التسول فاذا به يحط عنه الجزية ، ويفرض له نصيبا من بيت المال يدفع له معاشا يعينه على حياته .

وقوله « ان الاسلام عامل أهل الديانات الأخرى مثل الزرادشتية .. أو الهند فيه أيضا عدم الاستناد الى دليل ذلك أن الاسلام لم يعتد الا بأهل الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية أما غير هؤلاء من النزعات الأخرى فلم يعتد بها الاسلام ، وعلى ذلك فان حربه فى فارس والهند وغيرها من البلاد الوثنية لم تكن حربا الا من أجل الدخول فى الاسلام أو القتل .

٥ ــ ولقد تحدث كاتب المادة عن أسس التشريع الاسلامى التى تعتمد على القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد ولكنه يخلط بين بعض المفاهيم ، فعندما تحدث عن الاجتهاد خلط بينه وبين القياس ، بل انه لم يستطع فهم القياس فقال : « ومعنى الاجتهاد هو المحاولة ، وكان مطلوبا أن يجتهد الانسان لكى يجد حلا قانونيا أو شرعيا أو دينيا للمشكلات الجديدة ، وقد أخذ الاجتهاد غالبا من التفكير الفردى (رأى) ولذا كانت هناك ثروة من الآراء المتصارعة وان كانت مشوشة » .

« وفى القرن الثانى الهجرى استبدلت كلمة الاجتهاد « بالقياس » وهى المناقشة (السببية من خلال التناظر أى الاستنتاج المبنى على النصوص القرآنية والحديث ، وتغير الاجماع الى آلية غير قابلة للتغيير وقبول الهيكل النهائى قد أقفل باب الاجتهاد وان كانت جماعة معينة من المفكرين البارزين فى الاسلام مثل الغزالى المتوفى عام ١١١١ ميلادية داوموا على المطالبة بحقهم فى اجتهاد جديد وكذلك أهل رجال الاصلاح فى القرنين الثامن عشر

والتاسع عشر وذلك للعوامل المؤثرة الحديثة التى كانت سببا فى تجديد هذا المبدأ مرة أخرى الذى لقى بعد ذلك قبولا واسعا » .

وهذا الكلام من كاتب المادة فيه تجاوز كبير ، وعدم فهم لمبدأ الاجتهاد الذى حرص عليه الاسلام ، فليس الاجتهاد معناه المحاولة ، وانما الاجتهاد كما يعرفه علماء الأصول — بذل الجهد لتحصيل حكم شرعى عملى بطريق الاستنباط من الأدلة الشرعية » (١) .

فليس الاجتهاد اذن اعتمادا على رأى فردى وانما هو بذل الجهد ليحصل المجتهد من خلال ذلك على حكم شرعى يستنبطه من القرآن والسنة واجماع المسلمين . ومن قال ان الاجتهاد ولد كثيرا من الآراء المتصارعة وان كانت مشوشة كما يدعى صاحب المادة . وكيف تكون تلك الثروة من الآراء مشوشة وقد دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة الى الاجتهاد ، بل انه اجتهد رأيه فى كثير من الأمور التى لم يتنزل عليه فيها وحى . وحديثه مع معاذ بن جبل يشهد بذلك فقد روى أبو داود والترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث معاذا الى اليمن قال له « بم تقضى اذا عرض لك قضاء » ؟ . قال : بكتاب الله قال « فان لم تجد » قال « بسنة رسول الله » قال : « فان لم تجد » قال : اجتهد رأيى ولا آلو فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله » .

واذا كان الصحابة والتابعون قد مارسوا الاجتهاد فان الأجيال التالية لهم لم تكف عن ذلك ، مما دفع الأئمة العظام الى وضع ضوابط للاجتهاد فبدأ « وضع كتب فى أصول الفقه لايجاد دستور سليم يلزمه المجتهدون حتى لا ينحرفوا عن الصراط السوى ، وكان من أول ما وضع فى ذلك « الرسالة »

---

(١) بيان للناس ص ٩٤ جـ ١ ،طبعة الأزهر

للامام الشافعي وفي هذا الجو ظهر نوابغ للفكر في جهات متعددة اتخذ الناس منهم اساتذة ومعلمين يتلقون عنهم ويدونون ما اخذوه عنهم اعجابا بدقة الاستنباط ، ولأنه يعطي كثيرا مما يحتاجون الى معرفته وبخاصة فيما يفترض من أحداث مستقبلة قد كفوهم مؤونة البحث عن حكم الدين فيها حين تقع وكان من أبرز النوابغ أبو حنيفة وأصحابه ، وابن حنبل في العراق ، ومالك في المدينة والأوزاعي في الشام والشافعي والليث بن سعد في مصر » (١) ٠

فهل يمكننا الآن أن نأتي الى تراث هؤلاء وأن نقول عنه « انه فكر مشوش » ؟ ان هذا لأمر عجاب !!

ثم ان الكاتب يقول : « وفي القرن الثاني الهجري استبدلت كلمة الاجتهاد « بالقياس » والحقيقة أن العلماء يعرفون القياس بأنه اثبات حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علة الحكم عند المثبت ، أو أنه مساواة فرع لأصل في علة حكمة ٠

ولم يكن القياس مستبدلا من الجهاد (الاجتهاد) ، أو تاليا له ، وانما القياس مستعمل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد استعمله صلى الله عليه وسلم في قضاء الحج قياسا على قضاء الدين ٠٠ فقد صح في البخاري أن امرأة من جهينة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ان أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : « حجي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا فالله أحق بالقضاء » فالقياس اذن والاجتهاد صنوان عاشا في عصر النبوة وشبا معا في عصر الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ٠

---

(١) بيان للناس ص ٩٦ جـ ١ مطبعة الازهر ٠

ولكن الاختلاف في حجية القياس وهل هو أصل من أصول التشريع أم أنه لا يعد من أصول التشريع فمن عده من أصول التشريع استند فيه الى حديث رسول الله السابق والى ماجرى عليه العمل في عصر الخلفاء الراشدين فقد حد شارب الخمر قياسا على قذف المحصنات في الحادثة المشهورة التى حدثت في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه والتى استفتى فيها سيدنا على فأفتى بجلد شارب الخمر ثمانين جلدة قياسا على حد القذف كما في قوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » ٠

أما من منع الأخذ بالقياس فقد استدل بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله وقوله تعالى « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وقوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم » وقوله « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » ٠

وقد ظهرت الحاجة الى الرأى والقياس بعد اتساع العمران وحدوث قضايا جديدة ، وصعوبة العثور على من يعلمون السنة الواردة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — في هذه القضايا ، وليس فيه افتيات على الكتاب والسنة كما ذكرنا ، ذلك أن الآخذين به قالوا : ان الشريعة معقولة المعنى ولها أصول يرجع اليها ، فان لم يجدوا فيها نصا في شيء جديد قاسوه على المنصوص لوجود علة مشتركة بينهما وظهر هذا المبدأ في أهل العراق أكثر من غيرهم ، وكان منهم أبو حنيفة رضى الله عنه ومدرسته ودافع عن الامام الشافعى في رسالته الأصولية وفي كتاب الأم ، وان كان لا يقبل الاستحسان الذى له صلة بالقياس » (١) ٠

---

(١) رجعنا في ذلك الى كتاب « بيان للناس » من الأزهر الشريف ٠ ط مطبعة الأزهر ١٩٨٥ م ٠

٦ – وتتحدث دائرة المعارف البريطانية عن العقيدة حديثا لا شائبة عليه الا ما جاء من استخدام بعض الألفاظ استخداما لا يتناسب مع جلال الله وعظمته فتقول : « والايمان بالله – فى القرآن – هو الايمان العميق بأنه واحد • الله واحد فرد لا شريك له ولا نظير له ، والتثليث الذى يعتنقه المسيحيون بأن الله ثلاثة أشخاص فى مادة واحدة يرفضه الاسلام بشدة ويعتقد المسلمون أنه لا وساطة (لا وسطاء) بين الله والخلق الذى أخرجه الى الوجود بمجرد كلمة كن ، ولو أن الله موجود فى كل مكان ، ولكنه لا يلازمه فى أى شىء ان الله هو الخالق الفرد لهذا الكون الذى يمده بالحياة حيث يشهد كل مخلوق بوحدانيته والله مع ذلك عادل رحيم ، وعدله يحقق النظام فيما يخلقه ورحمته غير محدودة (ورحمتى وسعت كل شىء) وتشمل كل شىء وخلقه وتدبيره (تنظيمه) للكون يبدو فى الرحمةالواسعة لكل شىء يتغنى بمجده •

ويستمر كاتب المادة فى الحديث عن الله الذى ادعى بأن صورته عند المسلمين تمت بصلة الى التقليد اليهودى والمسيحى ، ولكنه نسى أن اليهود أشركوا مع الله عزيرا فقالوا ان عزيرا ابن الله ، وأن النصارى أشركوا مع الله عيسى فقالوا ان عيسى ابن الله ، وهذا خلاف جوهرى فى صورة الله عند المسلمين الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد •

وكذلك تتحدث الدائرة عن الكون حديثا ليس فيه تجاوز مستندة فى ذلك الى قوله تعالى « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم تحدثت عن خلق الانسان وكما هى عادة كاتب المادة لا يسعفه التعبير الحسن أو الألفاظ المنتقاة فى جانب الملائكة فيدعى أن الملائكة « احتجوا » الى الله على خلق الانسان • وما كان للملائكة أن تحتج على أمر قررته القدرة الالهية ، ولكن الملائكة سألوا الله سؤال من يحاول فهم مجريات الأحداث « أتجعل فيها من يفسد

فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون » ، ولا يسعفه التعبير أيضا فيزعم أن هناك منافسة قامت بين الانسان والملائكة فيعلن ــ ان الملائكة قد خسروا المنافسة أمام الانسان ولذا يعلن القرآن الكريم أنه ــ أى الانسان ــ أنبل الخلائق ٠

لقد كان الواجب علينا أن ننقل كل ما ترجمه الأستاذ كرام ، حتى يعيش القارىء مع ما يكتبه أعداء الاسلام عن الاسلام ، ولكننا رأينا أن ذلك قد يشوش فكر بعض الدارسين الذين مازالوا بحاجة الى عمق فى المعرفة ، وسعة أفق حتى يتحصنوا من تلك الترهات التى يعلنهـا أعداء الاسـلام ولذلك فاننى قد وضـعت فى هذه العجالة ردا على بعض الفقـرات وأترك للقارىء أن يطلع على جزء منها أيضا مع التعليق عليه ان رأيت فيه خروجا عن تعاليم الاسلام التى ندين بها ونعتقد صحتها وسلامتها ٠

وهذا نص ما كتبه الكاتب عن : الشيطان : الاثم والتوبة ، وعن محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ خاتم الأنبياء وعن الحياة الآخرة ، البعث والحساب وعن الله هو المهيمن : الآراء الاجتماعية وعن مفهوم المجتمع والمؤمن ٠

الشيطان : الاثم والتوبة :

لكى يظهر صدق الوحدانية الالهية فقد أرسل الله الرسل أو الأنبياء الى الناس التى كانت طبيعتهم الضعيفة تجعلهم دائما نزاعين للنسيان أو حتى رفض الوحدانية الالهية تحت غواية الشيطان وكما ورد فى القرآن الكريم كان ذلك المخلوق الذى صار شيطانا أو ابليسا والذى كانت له قبل ذلك مكانة عالية ولكنه سقط من تلك المنزلة الالهية السامية جزاء عصيانه لرفضه أن يعظم آدم عندما أمر بذلك ــ هو والملائكة اجمعين ومن ذلك الوقت صار همه أن يخدع الانسان ويقوده الى الاثم والخطيئة وعلى ذلك فالشيطان معاصر للانسان ويفسر القرآن الكريم عصيان الشيطان بأنه اثم الكبرياء وسوف تتوقف مكايد الشيطان يوم القيامة فقط ٠

واذا ما رجعنا الى قصص القرآن الكريم نعرف أن الناس قد قابلوا الرسالات بكثير من ضيق الصدر مع أن الكون كله زاخر بآيات الله وقليل من الناس قابل هذا النداء بالاستجابة غير أن أكثرهم قد رفضوا ذلك وأصروا على كفرهم واذا ما استرسل الناس فى الاثم أو الشرفان الله يختم على قلوبهم ولكن ... كثيرا ما يتوب الآثم ويسترد نفسه بالتوبة الصادقة والله دائما مستعد للمغفرة والتوبة الصادقة تمحو جميع الخطايا وبها يرجع الانسان الى حالة اللا اثم التى بدأ بها حياته .

النبوة : الوحى الالهى – محمد (صلعم) آخر الأنبياء .

الأنبياء رجال اصطفاهم الله خصيصا ليكونوا رسله والنبوة لا تتجزأ ويدعونا القرآن الى الاعتراف بالأنبياء جميعا دون تفريق بينهم (لا نفرق بين أحد من رسله) غير أنهم ليسوا متساوين كان بعضهم صفات بارزة فى الاخلاص والصبر عند الاختبار : فابراهيم وموسى وعيسى كانوا مثلا لهؤلاء الرسل العظام واثباتا لصدق بعثتهم يؤيدهم الله عادة بالمعجزات : نجى الله ابراهيم من النار ونوحا من الطوفان وموسى من فرعون – ولم يولد عيسى من العذراء مريم فحسب بل أنجاه الله من الصلب على أيدى اليهود . وان رسل الله مبرءون كليا هو جزء متكامل من الاعتقاد بالقرآن الكريم .

محمد (صلعم) آخر الأنبياء :

وجميع الأنبياء من البشر وليسوا جزءا من الله وهم : ببساطة – مستقبلون للوحى من الله لأن الله لا يكلم أحدا مباشرة أبدا : فاما أن يرسل اليه ملكا رسولا – أو يجعله يسمع صوتا أو يوحى اليه ومن المتفق عليه أن محمدا (صلعم) آخر رسول فى سلسلة الرسل وأعظمهم لأن جميع الرسالات تمت وختمت برسالته وليس لمحمد (صلعم) من معجزة سوى القرآن الكريم التى لا يمكن لبشر أن يأتى بمثلها (غير أنه بعد موت الرسول

نسب اليه المسلمون معجزات كثيرة) ونزل جبريل بالقرآن على قلب محمد (صلعم) ويمثل القرآن الكريم عن جبريل بالروح ولكن كان الرسول يراه ويسمعه أحيانا وطبقا للنواميس السابقة (الاولى) كان الوحى ينزل على رسول الله وهو فى حالة غيبوبة أى حينما كان شعوره العادى معطلا مؤقتا وكان العرق الغزير ينتفض منه وبين القرآن بأن الوحى كان يصحبه احساس بأن هناك عبئا ثقيلا ويقول القرآن الكريم « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » وكانت هذه الظاهرة يصحبها فى نفس الوقت اعتقاد راسخ لا يتزعزع بأن هذه الرسالة من عند الله وأنها نسخة منزلة من أم الكتاب نسخت من اللوح المحفوظ وكان هذا الاقتناع راسخ لا يتزعزع بأن هذه الرسالة من عند الله وأنها نسخة منزلة من أم الكتاب نسخت من اللوح المحفوظ وكان هذا الاقتناع عميقا لدرجة أن القرآن الكريم ينكر بشدة أن يكون القرآن هو نفسه من مصدر أرضى لأنه بذلك يكون معرضا للشك والذبذبة ٠

الحياة الآخرة : البعث والحساب

نرى فى العقيدة الاسلامية أن اليوم الآخر سيأتى عندما يأتى العالم الى نهايته وسوف يبعث الله الموتى ينطق بالحكم على كل انسان طبقا لأعماله ولو أن القرآن الكريم يخبرنا فى الجزء الرئيسى منه عن الحكم الشخصى الا أن هناك آيات كثيرة تتكلم عن البعث لمجتمعات (مميزة) بعينها سوف يقضى فيها كل طبقا بكتابها واذا كان ذلك كذلك فان القرآن الكريم يتكلم فى كثير من المواضع عن موت المجتمعات كل منها لها مدة محددة فى الحياة وزعم ذلك فان التقسيم العقلى سيكون طبقا لأعمال كل فرد ٠ ولكى يبرهن القرآن على أن البعث سوف يحدث فانه يستخدم جدلا أخلاقيا وحسيا ونظرا لأن الجزاء كله لن يحدد فى هذه الحياة الدنيا لذا يكون الحكم النهائى ضروريا فى الآخرة لاتمامه وعن الجدل المحسوس فان الله الواحد القهار

قادر على أن يدمر أو يعيد الحياة لكل المخلوقات المحدودة الحياة فهم يخضعون لقوة الله التي لا تحد ·

وليس هناك شفاعة في الشريعة الاسلامية الحازمه ولكن الله يمكن أن يغفره برحمته ـ للخاطئين وسوف يحرق الملعونين في نار جهنم ومن ينقذه الله من عذابه فسوف يتمتع بنعيم الجنة الدائم والجنة والنار كل منهما روحي وبدني فعلاوة على ما يعانيه الملعونون من عذاب الجسد فكذلك يقاسون من العذاب الروحي وفوق ما يناله السعداء من المتعة الحسية سوف ينعمون بسعادة روحية أكثر وسوف ينهلون من السرور الالهي ولقد نمت فكرة الشفاعة في بداية الاسلام ربما ردا على العقيدة المسيحية بالتخليص من الخطيئة ·

الله هو المهيمن : الآراء الاجتماعية :

ان الهدف من وجود الانسان وسائر المخلوقات هو الخضوع للمشيئة الالهية لأن الله هو المهيمن على كل شيء واذا كانت الكائنات تطيع الله آليا فان الانسان وحده يملك الاختيار في الطاعة أو عدمها وبالعقيدة الراسخة بوجود الشيطان فالدور الجوهري للانسان هو النضال الأخلاقي الذي هو لب المحاولة الانسانية والاعتراف بوحدانية الله لا يقتصر ببساطه على الاستقرار في العقل بل تتضمن نتائج هذا النضال الذي يتكون أولا : من تحرير الفرد من ضيق العقل وصغر القلب فالانسان يجب أن يخرج من ذاتيته وينفق ما يملك من أجل الآخرين ·

والخدمة الاجتماعية مصطلح معناه التخفيف من المعاناه وتكون مساعدة المحتاجين جزءا جوهريا من التعاليم الاسلامية والصلاة والأعمال الدينية التعبدية الأخرى تعتبر مظهرية تماما في غياب الخدمة الفعاله لصالح المحتاجين وبالنظر الى ما تقيم بنقد القرآن الكريم « ان الانسان خلق هلوعا

اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا » (أى كما تذكره دائرة المعارف البريطانية) يخاف الانســان ويفرق اذا نزل به الشر يهلع جدا واذا جاءه خير منعه من أن يصل الى الآخرين • والشيطان هو الذى يوسوس للانسان بأنه اذا أنفق ماله على الآخرين صار فقيرا والله خلاف ذلك ــ يعد الانسان بالخير والرخاء عوضا عما أنفق لأن ما أنفق قرض لله ينميه أكثر مما يستره الناس عن طريق الربا يمحق الله الربا ويربى الصدقات وكنز الانسان للمال دون أن يضع فى حسابه حق الفقراء منذر له بالعقاب الشديد فيما بعد ويقرر أن ذلك أحد الأســباب الرئيســية لفســاد وتعفن المجتمع فى هذه الدنيا وممارسة التعامل بالربا محرمة •

مفهوم المجتمع المؤمن :

ان هذه العقيدة الاجتماعية الاقتصادية تحيك وشائج الايمان وفكرة المجتمع المترابط للمؤمنين ويعلن القرآن الكريم أنهم اخوة ويقول القرآن « كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » ويؤكد القرآن الكريم التعاون والتناصح بين أفراد المجتمع ومن يحاول ــ عمدا ــ الاضرار بالمجتمــع يعــاقب عقابا رادعا وكذلك يجب قتــال أعداء المجتمــع وقهرهم بالقوة المسلحة اذا لم يحل القضية الاقناع والتحكيم • ويؤكد أن رسالة المجتمع الاسلامى هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » وقدس الاسلام مبدأ الجهاد استنادا الى أن دستور المجتمع هو أساس القوة وليس من هدف الجهاد هداية الافراد الى الاسلام بل بالأخرى هو الحصول على الانضباط السياسى كل شــئون المجتمعات لادارتها على أساس اسلامى وتأتى هداية الأفراد كنتيجة ثانوية اذا انتقلت ســلطة البناء الى أيدى قادة المجتمع الاســلامى ولذا فان هداية الأفراد بالقــوة محرم تماما فى الشريعة الاســلامية بعد أن يقول القرآن « قد تبين الرشــد من الغى » الآية « فمن شــاء فليؤمن ومن شــاء فليكفر » وبانشاء الامبراطورية الاسلامية تكيفت عدل مبدأ الجهاد ، وفى ارادة لواء

المسلمين لأن همهم الأكبر كان توحيد شمل الامبراطورية وادارتها ولذا ترجموا تلك المبادئ بشأن الجهاد بأنها دفاعية أكثر منها توسعية وتعتقد طائفة الخوارج — أن الأمر كله لله ولذا عزموا على الجهاد الدائم الذى لا رحمة فيه ولكن أتباعها هلكوا كلا أثناء الحروب المضنية فى القرن الثامن ٠

وبالاضافة الى مقياس العدل الاقتصادى وخلق مجتمع مثالى قوى فان النبى محمد (صلعم) قد أحدث أصلاحا عاما فى المجتمع العربى وعلى الأخص حماية الأجزاء الضعيفة منه أعنى بذلك الفقراء والأيتام والنساء والأرقاء وكان الرق لم يلغ شرعا ولكن الدين شجع تحرير الرقيق كنوع وكذلك حرم الاسلام شن الحرب للحصول على مجد دنيوى من الاحسان وحصل الأرقاء على حقوقهم الشرعية بما تضمنته هذه الحقوق من حق اكتساب حريتهم بدفع مبلغ متفق عليه من المال بين العبد وسيده مما كسبه بعرق جبينه والأمة التى تحمل من سيدها تصير حرة (آليا) بعد وفاة سيدها وصار وأد البنات محرما وهو الذى كانت قبائل معينة تمارسه خوفا من الفقر أو العار والامتيازات القبلية أو الجنسية أنكرها القرآن وبين الرسول (صلعم) ذلك فى حجة الوداع قبيل وفاته ٠ الناس سواسية كأسنان المشط لا فرق بين أسود وأحمر ولا عربى على أعجمى الا بالتقوى « كلكم لآدم وآدم من تراب » وألقيت سنة العرب فى الجاهلية من أنه من غير الضرورى اعدام القاتل نفسه اذا كان هناك شخص آخر مساو للقتيل فى الدرجة فهو الذى يعدم وقال الرسول (صلعم) العمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصى والحجر وديته مائة بعير » ٠

وعدلت المثالية الاخلاقية عند العرب فى الجاهلية من الرجولة واستبدلت بمثالية أخلاقية : الفضيلة والتقوى ٠

هذا هو ما ترجمه الأستاذ كرم من مادة اسلام الواردة فى دائرة المعارف البريطانية من ص ٩١١ حتى ص ٩١٥ المجلد التاسع ، والذى حاولت التعقيب على بعضه ، وترك بعضه للقارىء الكريم ، حتى يتصور منه اسلوب هؤلاء القوم فى الحديث عن الاسلام والمسلمين ٠

والله أسأل ان يهيىء لنا من أمرنا رشدا

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ٠

دكتور
عبد المنعم يونس
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بالمنوفية

الفهرس

